SHAKER AL-NABULSI

THOUGHT

شاكر النابلسي

تهافت الأصولية

نقد فكري للأصولية الإسلامية من خلال واقعها المعاش

منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

تهافُتُ الأصولية

نقد فكري للأصولية الإسلامية من خلال واقعها المعاش

تهافت الأصوليّة : نقد فكريّ للأصوليّة الإسلاميّة من خلال واقعها المعاش / فكر
شاكر النابلسي / مؤلّف من الأردنّ
الطبعة الأولى ، 2009
حقوق الطبع محفوظة

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص. ب 5460-11 ، هاتفاكس 00961 1 752308 / 751438
نشر مشترك مع :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص. ب 9157 ، هاتف 00962 6 5605432 ، هاتفاكس 00962 6 5685501
e-mail : info@airpbooks.com
موقع الدار الإلكترونيّ : www.airpbooks.com
تصميم الغلاف والإشراف الفنّي :
محمد سيف®
لوحة الغلاف : **فيتسلاف ڤالكوسكي / بولندا**
الصفّ الضوئيّ : **المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر / بيروت ، لبنان**
التنفيذ الطباعيّ : **ديمو برس / بيروت ، لبنان**

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه ، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات ، أو نقله بأيّ شكل من الأشكال ، دون إذن مسبق من الناشر .

ISBN 978-9953-36-320-X

فكر
THOUGHT

▼

شاكر النابلسي

تهافت الأصولية

نقد فكري للأصولية الإسلامية من خلال واقعها المُعاش

▲

المحتويات

فاتحة الكتاب . . . 9

الباب الأول : في السلفية . . .

جذور السلفية وأنواعها . . . 23

الفروق بين السلفية والأصولية . . . 29

القطبية المُرضعة للسلفية الجهادية . . . 47

الشرع بين الأصولية والسلفية الجهادية . . . 53

ما حال الإسلام لو لم تظهر السلفية الجهادية؟ . . . 63

السلفية الوهابية : نظرة مغايرة . . .

الباب الثاني : في الأصولية

معنى الأصولية . . . 83

الأصولية في الأديان كافة . . . 85

التطرف الأصولي : أسبابه ومرحله . . . 95

مصر «أُم الدنيا» وأُم الأصولية . . . 99

دور الإخوان المسلمين في تعاظم الأصولية . . . 103

مظاهر الأصولية المعاصرة . . . 111

الأصولية أزمة فكرية ثقافية في معظمها . . . 117

الأصولية عائق معرفي . . 125

الأصولية عائق لغوي . . . 125

الأصولية عائق اجتماعي . . . 135
الأصولية عائق سياسي . . . 139
الأصولية والإسلام السياسي . . . 151
جناية الأصولية على الإسلام . . . 159
الأصولية فاشية دينية . . . 167
الأصولية والإرادوية . . . 177
الأصولية والحقيقة المطلقة . . . 181
الأصولية والشعبوية . . . 185
الأصولية والدكتاتورية . . . 189
أنظمة عربية تتحدى الأصولية . . . 199
الأصولية والحراك الشعبي . . . 203
أوهام الأصولية . . . 209
ماركسية الأصولية الدينية . . . 217
الأصولية وفوبيا المرأة . . . 223
الأصولية وفوبيا الراوية النسوية . . . 227
الأصولية والفن الجديد وجهاً لوجه . . . 239
هل أوشكت شمس الأصولية على المغيب؟ . . . 249
كتب للمؤلف . . . 263

الإهداء إلى

صاحب نداء اقتحام المُحرَّمات الثقافية
المفكر الليبرالي المصري مراد وهبة

فاتحة الكتاب

-١-

الأصولية ، هي المولود العزيز للسلفية والسلفية الجهادية . ولذا ، فقد بدأنا فصول هذا الكتاب ، بتعريف السلفية والحديث عنها ، لكي ننتهي إلى الأصولية في الباب الثاني .

برزت الأصوليات الدينية السماوية والأرضية على السواء ، بشكل واضح ومؤثر ، في تشكيل العالم من جديد ، بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ ، وخاصة الأصولية الدينية الإسلامية ، التي كان لها اليد الطولى ، في كارثة الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ .

فتنظيم «القاعدة» الديني السلفي الجهادي ، الذي أصبح أصولياً فيما بعد ، كان المنفِّذ لهذه الكارثة ، باعتراف زعيمه أسامة بن لادن . ونجم عن ذلك ، انشغال الفكر ، والبحث ، والإعلام الغربي ، بتفاصيل هذه السلفية والأصولية ، ونبش كل الماضي السلفي/الأصولي الديني في الإسلام . وكان هذا الحال في العالم العربي ولو جزئياً ، وخاصة في مصر ودول الخليج ، حيث تمَّ التركيز على أبحاث السلفية والأصولية الدينية الإسلامية ، وتجلياتها عبر

العصور ، ومستقبل السلفية/الأصولية ، التي تقف صلبةً الآن ، صلابة الحجر ، وليس ثبات الشجر المتجدد كل عام ، في وجه الليبرالية ، والتنوير ، والعَلْمانية .

-٢-

ورغم أن السلفية/الأصولية الدينية الإسلامية ، تلعب دوراً ثقافياً ، وسياسياً ، واجتماعياً ، خطيراً ، وكبيراً ، في تشكيل ، أو في إعادة تشكيل العالم العربي ، إلا أن الدراسات العلمية والتاريخية الأكاديمية العربية والإسلامية ، ظلت قاصرة عمّا قام به الغرب ، ويقوم به ، لدراسة هذه الظاهرة التاريخية ، دراسةً علميةً منهجيةً دقيقة .

ففي أمريكا - مثالاً لا حصراً - قررت الأكاديمية الأمريكية للعلوم والآداب ، منح جامعة شيكاغو الشهيرة ، مليون دولار ، لدراسة الأصوليات في العالم ، بحيث تُصدر مجلدات ، تتحدث عن كل الأصوليات . ولا شك - كما قال المفكر المصري مراد وهبه- في أن العالم العربي في غيبوبة عن هذه الأجزاء . ومن الضروري قراءة هذه المجلدات ، خصوصاً أنه لا توجد أصولية في هذا العالم ، تنفرد بنفسها ، في منطقة معينة من العالم .

-٣-

شنّت السلفية/الأصولية الدينية الإسلامية ، في الحاضر والماضي القريب ، حملات تشويه ، وقدح ، وشتم ، على كل من

تعـرّض لهـا بالنقـد السلبي . وحـاولت بكل قـوة ، أن تربط بين السلفية/الأصولية الدينية الإسلامية ، وبين الدين الإسلامي نفسه ، لكي ترمي أعداءها بالكفر الإلحادي ، والكفر الشركي[1] ، والزندقة .

وعلينا أن نُبيّن بشكل واضح ، أن هناك فرقاً كبيراً بين الدين الإسلامي ، والسلفية/الأصولية الدينية الإسلامية . ومن هذه الفروق :

١- أن الدين - افتراضاً - من صنع الله ورسوله ، متجسداً بالقرآن والحديث ، في حين أن السلفية/الأصولية الدينية من صُنع البشر (الفقهاء ، وعلماء الدين ، والخيال الشعبي ، والعادات ، والأعراف ، والتقاليد . . الخ) . وهذه السلفية/الأصولية ، هي التي ينصبُّ عليها نقد المفكرين الليبراليين ، والعلمانيين ، والتنويريين .

٢- أن الدين بالقرآن والأحاديث النبوية ، هو الدين الإسلامي . وما أُضيف له من فقه الفقهاء وتفسيراتهم ، في مختلف العصور ، تمّت إضافته لأسباب سياسية ، واقتصادية ، واجتماعية ، متغيّرة بتغير العصور . ويقول المفكر والشاعر الباكستاني المعروف محمد إقبال : «إن تراثنا في معظمه كُتب في ظروف مشبوهة» .

---

(١) للكفر في الفقه الإسلامي ثلاثة نماذج . النموذج الأول هو الملحد ، الذي ينكر وجود الله كليةً . والنموذج الثاني هو المشرك ، الذي لا ينكر وجود الله ، ولكنه يُشرك مع الله إلهاً آخر . والنموذج الثالث هو الكافر ، الذي يعترف بوجود الله ، ولكنه لا يعبده .

٣- من خلال فقه الفقهاء ذاك ، نشأت السلفية/الأصولية الدينية الإسلامية ، التي اعتبرت كل معارضة لها ، أو رفض لأفكارها ، هو معارضة للدين الإسلامي ، ورفض له .

٤- السلفية/الأصولية الدينية الإسلامية ، عارضت في ناحية من نواحي النصوص المقدسة من قرآن وسنة . فبينما تحثُّ النصوص المقدسة على التفكير ، والتدبير ، والتأمل في خلق الله ، تنصُّ السلفية/الأصولية الدينية الإسلامية على عدم النظر في النصوص المقدسة بمنطق العقل والتأويل . وتعتبر أن لا باطن في هذه النصوص ، ولا مجاز فيها .

٥- تُركِّز السلفية/الأصولية الدينية الإسلامية على النصوص المقدسة ، من قرآن وحديث شريف ، ولكن على ما قيل وجاء في المرحلة المدينية ؛ وهي مرحلة استعمال القوة والسيف في نشر الدين ، ومحاربة الكفَّار (قريش وأنصارها) حرباً مكشوفة ، ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير﴾ (الحج : ٣٩) وهي أول آية أذن فيها الله تعالى ، بالقتال ، ونزلت في المدينة . ونزلت هذه الآية ، بسبب شكوى الصحابة في مكة والمدينة من أذى الكفار ، وعدم استطاعتهم رد عدوانهم بالقوة ، لأن الرسول لم يكن قد أُمر بالقتال ، من قبل ، إلى أن نزلت هذه الآية . وذلك على عكس ما كان عليه الإسلام الروحي/الصوفي النقي في مكة المكرمة ، قبل الهجرة النبوية إلى المدينة . فكان الإسلام الروحي/الصوفي هو إسلام الفترة المكية . وكان الإسلام المادي/السيفوي هو إسلام الفترة

المدينية ، وهو الذي يُدرّس في معظم أنحاء العالم العربي والإسلامي ، من قبل السلفية/الأصولية الإسلامية ، التي تشارك مشاركة فعلية في وضع مناهج التدريس ، وتقوم بالتدريس كذلك ، وتدريب المعلمين الآخرين على تعاليم السلفية/الأصولية الإسلامية ؛ أي التدريس ضمن خصائص معينة ، ونسق فكري محدد . فهي تعتمد علي حرفية النص الديني ؛ أي عدم إعمال العقل في النص الديني ، ومعارضة النظريات العلمية التي يتوهم السلفي/الأصولي أياً كان ، أنها ضد العقيدة ، بالإضافة إلى المقاومة الشرسة للعَلْمانية ، والتنوير ، والليبرالية .

٦- تُركِّز نصوص الدين المقدسة ، على ضرورة وجود العقل الناقد ، لكي يتوالد منه العقل المبدع . في حين أن فكر السلفية/الأصولية الدينية الإسلامية ، يُركِّز على ضرورة منهاج الإتباع لا الابتداع . وبذلك ، فهي تدعو ، وتسعى إلى تدمير العقل المبدع ، حيث يختفي الإبداع من الأمة ، كما هو حالنا اليوم . وتصبح الأمة أمة التلقين والتدوين ، لا أمة الخلق والإبداع .

٧- الأصوليات جميعها ذات مُطلقات ، وأحكام نقدية ، وحلول مطلقة ، فلا تقبل الحوار ، والحلول الخياريّة الأخرى . فإما هذا وإما فلا . ولا يحدها حدٌّ ، ولا سد . في حين ، أن نصوص الدين ، وخاصة في موضوع المعاملات ، جاءت لتناسب مجتمع مميز ، كان قائماً في ذلك الوقت ، منذ ١٥ قرناً . وهذا

ما تدعو إليه العَلْمانية ، ذات الأحكام والحلول النسبية .

٨- وأخيراً ، تعارض السلفية/الأصولية الدينية في الأديان كافة الإصلاح الديني . وبالنسبة للدين الإسلامي ، فإن سيّد قطب - مثالاً لا حصراً - يعارض الإصلاح الديني والتنوير ، ويطلق على الإصلاح الديني المرض العقلي المُسمى بـ «الفصام النكد» (مرض عقلي معناه عزلة المريض عن الواقع) .

-٤-

إذن ، لماذا هذا الكتاب؟

ولماذا هذا البحث عن السلفية/الأصولية الإسلامية؟

وما هو خطر هذه السلفية/الأصولية على الدين والواقع العربي ، حاضراً ، ومستقبلاً؟

يتمثل خطر السلفية/الأصولية الإسلامية على الحاضر والمستقبل العربي ، في المخاطر المنظورة ، والواقعية التالية :

١- الإيمان المطلق بالحقائق المطلقة[1] ، ومنع النقاش ، والجدل ، والإبداع الفكري فيها . وفي هذا تكبيل تام ، للنشاط الفكري ، والاجتهاد ، وازدهار الرأي الآخر . فالحقيقة المطلقة ، مرتبطة دائماً بالعقائد الدينية ، وليس بالأفكار . فالأفكار تغيير ، أما

---

(١) الحقيقة المطلقة ، تعني إخضاع كل مظاهر الحياة لحقيقة مطلقة واحدة فقط . كما تعني أن الإنسان قد أدرك الحقيقة المطلقة ، فلا جدوى لمزيد من البحث في الكون ، والإنسان ، وخلافه . وحيال هذا ، يتوقف البحث ، ويتوقف المزيد من الإبداع والتجديد ، مما ينجم عنه توقُّف التطور بشكل عام .

العقائد الدينية فهي عابرة للتاريخ ، لا تتغير ، ولا تتبدل .

٢- ارتباط ظاهرة الإرهاب بالسلفية/الأصولية الدينية . واعتبار السلفية/الأصولية الدينية هي الثدي الدافئ المُرضع لأفكار عناصر مليشيات السلفية الجهادية . وعندما تُطبَّق العَلْمانية في العالم العربي ، فسينتهي الإرهاب كتحصيل حاصل . فنحن نعلم – ومن واقع نهايات القرن العشرين ، وبدايات القرن الحادي والعشرين – أن وتيرة الإرهاب قد ارتفعت في هاتين الفترتين مع بروز السلفية/الأصولية الدينية في هاتين الفترتين أيضاً . كما نلاحظ أن من يغذي ميليشيات الإرهاب فكرياً ودينياً في العالم العربي ، هي السلفية/الأصولية الدينية ، التي تُعدّ الخط الثاني للإرهاب .

٣- عزل ومنع العقل من العمل في النص الديني . وهذا موجود في سائر الأصوليات الدينية السماوية والأرضية عموماً ، مما دفع الإرهابيين إلى قتل كل من يحاول إعمال العقل في النصوص الدينية ، على مختلف أشكالها وطوائفها ، باعتبار أن من يحاول إعمال العقل في النص الديني ، يُعدُّ كافراً ، وزنديقاً .

٤- السلفية/الأصولية الدينية ، ضد التجديد ، وضد الإبداع والتنوير ، بل هي ضد الحضارة بصفة عامة . وفي رأي بعض المحللين والمفكرين كمراد وهبة ، فإن استهداف برجي نيويورك ، فيما حدث في ١١ سبتمبر ٢٠٠١ ، هو تدمير لقمة الثورة العلمية والتكنولوجيا . لأن البرج التوأم ، به نحو ٢٩ ٪ من حجم التجارة الحرَّة ، التي هي قلب الثورة العلمية والتكنولوجيا

الآن ؛ لأن التجارة الاليكترونية ، تقلّص المسافات الزمنية والمكانية . فتدمير هذا البناء ، ليس تدميراً موجهاً لأمريكا ، بل هو موجه ضد الحضارة . فأولئك ، الذين دمروا البرج التوأم ، هم أعداء الحضارة ، فلو كان هذا البرج موجوداً في مكان آخر غير أميركا ، لتمَّ تدميره[١] .

٥- من المعروف جيداً ، أن السلفية/الأصولية الدينية (التفكير المطلق) ضد العَلْمانية[٢] (التفكير النسبي) ، والتي هي

---

(١) حوار مع موقع «الشفاف» ،٢٠٠٤/٥/٣١ . ويربط مراد وهبة ، بين حرق كتب ابن رشد ، وبين انهيار البرج التوأم في نيويورك بقوله : «حرق كتب ابن رشد يذكرني بإعدام سقراط ، واضطهاد معظم الفلاسفة والمفكرين ، وتدمير البرج التوأم في نيويورك . الإنسان هنا ، يحرق التطور الحضاري في مؤلفات ابن رشد أو غيره ، وفي البرج التوأم (في نيويورك) يحرق أعلى مراحل الثورة العلمية والتكنولوجية» .

(٢) يقول المفكر الليبرالي العفيف الأخضر ، إن هناك ثلاثة مبادئ أساسية تقوم عليها العَلْمانية : عدم انحياز الدولة إلى معتقد ديني مُعيّن ، حياد المدرسة إزاء الدين ، واحترام حرية الضمير والاعتقاد . من ناحية أخرى ، يُقرُّ مراد وهبة ، بأننا لم نصل بعد في العالم العربي ، إلى المكوّن الأول للعَلْمانية ، وهو الديمقراطية . فهناك أربعة مكونات للديمقراطية : الأول ، العَلْمانية التي نشأت بصدور كتاب عالم الفلك البولندي نيقولا كوبرانيكوس الثوري في ١٥٤٣ وهو On the revolutions of the celestial spheres . والثاني ، التسامح الذي نشأ على يد جون لوك ، وظهور العقد الاجتماعي في القرن السابع عشر . والثالث ، هو التنوير الذي مهد له فلاسفة التنوير ، وعلى رأسهم كانط في القرن الثامن عشر . والأخير ، هو الليبرالية . (لقاء مع موقع «الشفاف» ، ٢٠٠٤/٥/٣١) . وانظر (حوار مراد وهبة مع جريدة «المصري اليوم» ، ٢٠٠٧/٤/٢٩) .

ببساطة فصل السلطة الدينية عن السلطة السياسية ؛ أي فصل الكنيسة أو المسجد عن قصور الحكم ، كما هي الحال في أوروبا وأمريكا الآن . والسلفية/الأصولية الدينية ، تحارب هذا الفصل ، محاربة شديدة وعنيفة ، لكي لا يتمَّ حرمان رجال الدين من سلطاتهم السياسية ، والمالية ، والاجتماعية ، والثقافية ، التي يتمتعون بها ، وتضعهم في مقدمة الصفوف ، وصدر المجالس . ولتظل كل تفاصيل الحياة ومجرياتها في يد رجال الدين وقراراتهم الصغيرة والكبيرة (الفتاوى الدينية على الطالعة والنازلة) ، كما نلاحظ ذلك في بعض الدول العربية ، وخاصة دول الخليج العربي . ولهذا نرى ، ويرى معنا كوكبة من المفكرين العرب ، أن الصراع الحقيقي في العالم العربي ، ليس بين السلفية/الأصولية الدينية والديمقراطية ، ولكنه صراع بين السلفية/الأصولية الدينية والعَلْمانية .

٦- تسعى السلفية/الأصولية الدينية الإسلامية إلى السلطة ، كما كان الحال في الأصولية المسيحية واليهودية . وهذه السلطة ، تمارس حقها في إدانة المفكرين والعقلانيين ، الذين يحاولون تفسير النصوص الدينية المقدسة ، على عكس ما فسره فقهاء السلفية/الأصولية الدينية . وتكون أحكامهم في بعض الأحيان نافذة المفعول ، بما فيها حدُّ القتل . فقتلت السلفية/الأصولية الدينية المفكر المصري فرج فوده ، وحاولت قتل نجيب محفوظ في مصر . وقتلت حسين مروة ، ومهدي عامل في لبنان . وشنقت محمود طه (غاندي السودان) في

السودان . وكفَّرت ، وأهدرت دماء مئات من المفكرين ، والشعراء ، والكُتّاب(١) .

-٥-

وأخيراً ، لقد اتبعنا في هذا الكتاب أسلوباً ، وهو الإكثار من العناوين ، لمضامين مركَّزة ومباشرة . وقد لجأنا إلى هذا الأسلوب ، بعد أن لمسنا ضجر القارىء السيّار ، والمتخصص على السواء ، ورغبته في الملخَّص المفيد ، دون إغراقه في المتاهات الفكرية ، التي أصبحت ثقيلة عليه ، في عصر السرعة الخارقة الذي يعيشه ، وفي

(١) أنظر : عوض القرني (الأصولي السعودي) وكتابه «الحداثة في ميزان الإسلام» ، ١٩٨٨ ، والذي كفَّر فيه مئات من الشعراء ، والكتاب ، والمفكرين العرب المعاصرين . وقد سبق لأبي حامد الغزالي ، الأصولي المعروف ، في القرن الحادي عشر الميلادي ، أن أدى دوراً هاماً في تدمير التطور الفكري الحضاري في العالم الإسلامي ، من خلال كتابه « تهافت الفلاسفة » ، الذي كفَّر فيه الفلاسفة المسلمين ، كالفارابي ، والكندي ، وابن سينا ، وابن رشد ، وردَّ عليه ابن رشد في كتابه «تهافت التهافت» . ويقول مراد وهبة ، في مقابلة مع موقع «الشفاف» ، ٢٠٠٤/٥/٣١ : « كفَّر الغزالي الفلاسفة ، وكفَّر الفلسفة اليونانية ، والعلوم اليونانية ، كالهندسة ، والعلوم الرياضية ، والمنطق . فالغزالي كان يحظر دراسة هذه العلوم ؛ لأنها علوم يقينية ، فخشي على المسلمين إذا اقتنعوا باليقين ، في هذه العلوم ، أن يقتنعوا باليقين في الفلسفة اليونانية . وهيمن الغزالي على المشرق والمغرب العربي . وجاء ابن تيمية ، في القرن الثالث عشر ، امتداداً للغزالي ، وأجهز على البقية الباقية ، من فكر ابن رشد . وأصبح التاريخ الإسلامي ساحة رمّاحة لفكر الغزالي وابن تيمية فقط ، من القرن الثالث عشر ، حتى الآن .»

عصر ثورة الاتصالات والانترنت . والغاية من هذا كله هو الوصول إلى أكبر عدد من القراء ، وعدم حصر هذا البحث بالنُخب المتخصصة فقط .

نتمنى لكم رحلة سعيدة مع هذا الكتاب .

شاكر النابلسي

ابريل/نيسان ٢٠٠٩

الباب الأول

في السلفية

جذور السلفية وأنواعها

-١-

السلفية هي الثدي المُرضع للأصولية .

ظهرت السلفية في القرن الثامن عشر في مجتمعات تقليدية ، صحراوية وبدوية ، شبه بدائية في الجزيرة العربية . وكان أحد أبرز أعلامها الرئيسيين الشيخ السلفي محمد بن الوهاب(١٧٠٣-١٧٩٢م) ، الذي أسس المذهب الوهابي السلفي في الجزيرة العربية . ولم يقتصر انتشار الوهابية على الجزيرة العربية وخاصة في السعودية وقطر ، وإنما انتشر بعد ذلك في سوريا ، ومصر ، والمغرب العربي .

-٢-

شهد العالم العربي في القرنين التاسع عشر والعشرين ، أربعة أنواع من السلفية ، تميزت بمواقعها الجغرافية . وكانت كل واحدة تختلف عن الأخرى ، في طروحاتها ومفاهيمها . وهذه السلفيات الأربع هي :

١. السلفية الشامية، التي نشأت في بلاد الشام

وكانت هذه السلفية ، تعني التخلّف ، والعودة إلى الماضي المناقض للحاضر . وكان شعار هذه السلفية العودة إلى الجذور . كما كان هدفها استنساخ تجارب الماضي وتطبيقها على الحاضر . وناصرت هذه السلفية الدولة العثمانية . ونادت باستمرار الخلافة الإسلامية ، نكاية بالمسيحيين العَلْمانيين في مصر وبلاد الشام . وتحفّظت هذه السلفية على الحداثة . ولا شك ، في أن هذه السلفية ، ساعدت على قيام مجموعة من الأحزاب السياسية الإسلامية ، كانت امتداداً للأحزاب السياسية الإسلامية المصرية ، كحركة الإخوان المسلمين ، وحزب التحرير الإسلامي ، وغيرهما .

٢. السلفية المصرية

كانت هذه السلفية تعني العودة إلى التراث والتمسك به ، مع عدم رفض المعاصرة . وكان شعار هذه السلفية الاستنارة بالتراث . كما كان هدفها محاربة الأفكار التنويرية التي جاءت من أوروبا . وناصرت هذه السلفية الدولة العثمانية ، ونادت باستمرار الخلافة الإسلامية ، نكاية بالاحتلال البريطاني لمصر . وحاربت هذه السلفية الحداثة ، وأفكارها . وبفضلها تحقق قيام مجموعة من الأحزاب السياسية وعلى رأسها جماعة الإخوان المسلمين ، ثم مجموعات كبيرة من الجماعات الإسلامية الإرهابية ، التي تكاثرت وتنوعت في النصف الثاني من القرن العشرين .

٣. السلفية الخليجية، التي نشأت في الخليج العربي

كانت هذه السلفية تعني العودة إلى سيرة السلف ، مع التحفظ على المعاصرة . وكان شعارها إحياء التراث . أما هدفها فكان القضاء على الخرافات ، والطقوس ، والعادات السيئة . وناصبت هذه السلفية العداء للدولة العثمانية ، وثارت عليها ، وعدَّتها عدوة للدين الصحيح الخالي من الخرافات . وحققت هذه السلفية ، قيام كيان سياسي ديني سلفي بقيادة آل سعود ، وكانت بذلك أول حركة دينية استطاعت أن تحقق أهدافها السياسية كاملة ، وتنشر دعوتها الدينية - السياسية خارج منطقة منشأها[1] ، وهي المملكة العربية السعودية . ولم تعرف هذه السلفية- نتيجة انغلاقها الجغرافي والتاريخي - الحداثة ، ولم تتصدَ لها بشكل شرس إلا في الربع الأخير من القرن العشرين ومطلع القرن الحادي والعشرين . وكان أبرز هذه التصديات ما صدر في السعودية من كتب وأشرطة من قبل الأصوليين ، أشهرها كتاب الأصولي عوض القرني («الحداثة في ميزان الإسلام» ، ١٩٨٨) وكتاب سعيد الغامدي «المجزرة» (الانحراف العقدي في أدب الحداثة وفكرها ، ٢٠٠٣) في أجزائه الثلاثة (٢٣١٧ صفحة) الذي نال عليه درجة الدكتوراه مع مرتبة الشرف ، من جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض . وفي هذا الكتاب يُكرر الغامدي ما قاله الباحث السلفي عوض القرني منذ ١٧ سنة ، من أن دعاة الحداثة وكتابها وشعراءها ومفكريها في

---

(١) قطر مثالاً .

العالم هم كفرة ، يجوز قتلهم . وأن «أقوالهم وأعمالهم وعقائدهم التي أذاعوها توجب الحكم عليهم بالردة ، وترفع عصمة الدم عنهم . إلا أنهم في الأجواء السياسية العَلْمانية المستوردة من الغرب ، أذاعوا كل ما في صدورهم العفنة من كفر وإلحاد ، في معاندة للدين ، وأحكامه ، وشرائعه ، وعلمائه ، ودعاته .»(١)

ويُقرن المؤلف بين الحداثة والعَلْمانية ، التي هي في رأيه «سموم فكرية» ، و«مفاهيم ضلالية» ، و«خمور فكرية» . وأنَّ من ينتمون لهذه الأفكار ، «همهم ترويج أصناف الزيف» ، و «ضربت عليهم عماية الجهل» . ويتابع المؤلف قائلاً : «مما يزيد الأمر سوءاً ، أن هؤلاء الممسوخين ، لهم نفوذ صارخ في أجهزة التوجيه والإعلام ، في كثير من بلاد المسلمين . ولا شغل لهم ، إلا نقل النفايات البشرية ، أو المماحكة فيما فرغ الشرع المعصوم من تقريره ، وإثباته . وقضيتهم الكبرى استيراد الآراء النظرية المتناقضة ، وتخدير إحساس الأمة ، بآلاف الدواوين ، والمسرحيات ، والرسوم ، والمقالات النقدية ، وغير النقدية ، من خلال الإثارة ، والجاذبية ، والمتعة الفنية ، في الشعر ، والرواية ، والقصة ، وتهريج المسرح ، وأصباغ الرسوم ، ومن خلال صناعة النجوم .»(٢)

---

(١) سعيد الغامدي ، «الانحرف العقدي في أدب الحداثة وفكرها» ، المجلد ٣ ، ص١٧٤٠ .

(٢) سعيد الغامدي ، مصدر سابق ، ص٣-٤ .

السلفية المغاربية، في المغرب العربي

كانت هذه السلفية تعني الرجوع إلى سيرة السلف الصالح ، وليس الرجوع إلى الوراء . وكان شعارها هو التحديث ، وهدفها محاربة الاستعمار والاستبداد في آن واحد . ولم يكن لها علاقة أو موقف من الدولة العثمانية ، لعدم خضوعها السياسي المباشر للباب العالي . وتبنّت هذه السلفية الحداثة بتحفظ . وناضلت ضد الاستعمار الفرنسي نضالاً بطولياً مُسلحاً وطويلاً . واستطاعت أن تحصل لبلادها على الاستقلال . وكانت بالتالي نموذجاً للسلفية الإسلامية ، التي أخذت بالتحديث من جهة ، ونالت الاستقلال السياسي من جهة أخرى .

الفروق بين السلفية والأصولية

-١-

يخلط كثير من القراء، وبعض الكُتَّاب بين السلفية والسلفيين وبين الأصولية والأصوليين. ويعدون السلفية أصولية، والأصولية سلفية. ربما كان هذا الخلط جائزاً وصحيحاً في الماضي، وقبل نشوء الأصولية التي جاءت بعد السلفية. فالسلفية تاريخياً، أسبق من الأصولية. والأصولية لم تُعرف بوجهها الآن، إلا مع ظهور الإسلام السياسي، في النصف الثاني من القرن العشرين، وبدايات القرن الحادي والعشرين. فالإسلام السياسي، هو الأصولية. ومن المضحك، أن نجد بعض الكتاب يقولون لك مثلاً: «إن الإسلام السياسي والأصولية، كذا وكذا» والصحيح علمياً وتاريخاً أن يقولوا لك مثلاً:

«إن الإسلام السياسي، أو الأصولية كذا وكذا».

-٢-

فما هي أوجه الاختلاف والائتلاف بين السلفية والأصولية؟

١- ظهرت السلفية في القرن الثامن عشر، في مجتمعات

تقليدية ، صحراوية وبدوية ، شبه بدائية في الجزيرة العربية ، كما سبق وقلنا قبل قليل . وانتشرت بدايةً في النواحي الريفية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، ثم في الأرياف الهندية ، وكان فقيهها الأول هناك شاه ولي الله . ووصلت إلى بلاد الشام في القرن العشرين ، وانتشرت في الأرياف والأطراف ، حيث التديّن الشعبي . وفي الأحياء الشعبية العشوائية داخل المدن ، وخاصة في سوريا .

بينما نشأت الأصولية ، مع ظهور الإخوان المسلمين ١٩٢٨ ، وفي مجتمعات مدينية تقرأ ، وتكتب ، وتتابع ما يجري في العالم . وكان أول انتشارها في مصر ، وبلاد الشام .

٢-السلفية دعوة دينية اجتماعية ، تركّز اهتمامها على نبذ التقاليد والأعراف والشعائر ، التي تعدّها جاهلية ، كزيارات القبور ، والإيمان بالأولياء ، والسحر ، والتنجيم ، والتعاويذ ، والشعوذة ، والتصوف الشعبي ، وتقديس الموتى ، وبعض مظاهر الطبيعة . وتسعى في هذا إلى تطهير الدين والتوحيد من الشرك والوثنية ، والعودة إلى الإسلام الأول الصافي . في حين أن الأصولية الدينية ، تعدّ دعوة دينية سياسية ، هدفها الأقصى إقامة الخلافة الإسلامية والدولة الإسلامية . ولهذا السبب اصطدمت الأصولية مع الأنظمة العربية ، ومثالها الواضح صدام الإخوان المسلمين مع عهد عبد الناصر في الخمسينات والستينات من القرن العشرين ، كما اصطدمت دموياً ، مع عهد حافظ الأسد في ١٩٨٢ .

٣- الأصولية تؤمن بالحداثة ، ولكن حداثتها الخاصة بها ، تعني وتكمُن في السعي لإقامة دولة الخلافة الإسلامية . و«الأصوليون حاذقون في معرفة كيفية التفاف سُنَّة الرسول على سُنَّة التاريخ ، وبالتالي تتيح لهم هذه السُنَّة الاندماج في حداثة ، لا تكون مجرد ظاهرة مستوردة من الخارج ، كما يرى السلفيون ، بل حداثة نابعة من المجتمع الإسلامي .»[١]

بينما تُعادي السلفية - وخاصة آباؤها الأوائل - الحداثة بكل أشكالها ، وترمي الحداثيين بالإلحاد ، والكفر برب العباد ، لأنها لم تعرف الحداثة ، ولم تصطدم بها . وليس للسلفية هدف سياسي يتجلّى بإقامة الدولة أو الخلافة الإسلامية . بل إن هدف السلفية الأساسي متواضع جداً بالقياس لأهداف الأصوليين . فهدف السلفية إقامة مجتمع خالٍ من البدع ، وعدم تقديس الأولياء ، والزعماء السياسيين ، والعودة إلى البساطة في السلوك الإسلامي ، وتطهير المجتمع من الخرافات ، والكرامات ، والسحر ، والتنجيم ، والشعوذة التي جاء بها التصوف الشعبي .

والسلفية تنادي بالعودة إلى الكتاب والسُنّة ، وإلغاء كل ما علق بالدين الشعبي من تقاليد ، وعادات ، وأعراف . وظهر داخل السلفية ، فيما بعد تياران :

تيار تقليدي ، يرفض أي تجديد ، وينتمي إلى أحد مذاهب

---

(١) أوليفيه روا ، «تجربة الإسلام السياسي» ، ص٢٨ .

الفقه الأربعة (الحنفية ، والشافعية ، والمالكية ، والحنبلية) ، وهو يتعامل بالشريعة من وجهة نظر أخلاقية بالدرجة الأولى ، ويرتبط في بعض الحالات بالتصوف الشعبي .

والثاني تيار إصلاحي ينتقد التقاليد ، والعادات ، والتدين الشعبي ، والصوفية الشعبية الاحتفالية ، وزيارة القبور ، والاحتفالات الدينية المختلفة كالمولد النبوي ، ورأس السنة الهجرية ، وموالد الصحابة والأولياء ، والعودة إلى النصوص المقدسة والمؤسسة .

٤- برز في عصر النهضة المبكرة ، ما سمّاه بعض الباحثين كمحمد عمارة «بالسلفية العقلانية المستنيرة» ، والتي كانت تتمثل بجمال الدين الأفغاني ، ومحمد عبده ، ورشيد رضا ، وعبد الرحمن الكواكبي ، وعبد الحميد باديس وغيرهم . ولا ندري بادئ ذي بدء ، كيف تمَّ تركيب هذه التسمية من محمد عمارة .

فكيف تستقيم السلفية مع العقلانية ، هذا أولاً؟

وثانياً ، كيف تستقيم السلفية مع الاستنارة؟

أما هؤلاء السلفيون العقلانيون المستنيرون - حسب تصنيف محمد عمارة - فقد كانت لهم مسالكهم ، وطرائقهم في التقدم ، والتي تتلخص فيما يلي :

- أخذُ الدين من منابعه الأولى النقية ، وليس من فكر العصور الوسطى ، ومتونها ، وحواشيها .

- لا بُدّ من إصلاح المؤسسات التعليمية الدينية إذا أردنا

التجديد والإصلاح الديني .

- إدخال العلوم الوضعية والطبيعية ، في مناهج المؤسسات التعليمية الدينية .(١)
- اعتبار الإنسان من أكبر أسرار هذا الكون . وأنه هو القادر - بعقله - على استجلاء ما غمُضَ واستكشاف ما جَهُلَ .
- نقض الحلف غير المكتوب بين رجال الدين - وخاصة من المتصوفة - وبين السلطة . وهو ما كان قائماً في العهد العثماني ، حيث اعتُبر السلطان «ظل الله على الأرض وسيفه المشرع على رقاب العباد» . وهذا بالطبع لا يعني فصل الدين عن الدولة ، بقدر ما يعني عدم استخدام الدين لمصالح الطبقات الحاكمة ، ومبرراً لاستغلالها ، وبطشها ، واستبدادها .
- لا سلطة لأحد من رجال الدين ، أو رجال السلطة على الدين . وسلطة رجال الدين ، ورجال السلطة السياسية ما هي إلا سلطة مدنية ، وليست دينية .
- إن العِرق ليس هو الرباط القومي . كما أن الدين ليس هو الجامعة القومية . وأن العروبة هي محصلة أقوام ، وأجناس

---

(١) اعترض ورفض شيوخ الأزهر هذا المشروع . وكان على رأسهم آنذاك الشيخ محمد البحيري . وكانت معاهد المؤسسة الدينية تضيق بمثل هذه العلوم ، وكذلك بعلم الفلسفة والمنطق . وكانت تردد «من تمنطق فقد تزندق» .ولم يتم إدخال مثل هذه المواد إلا بعد إخضاع الأزهر لرئاسة الجمهورية ، في عهد عبد الناصر في الستينات ، مما اعتُبر خطوة من خطوات عَلْمانية الدولة .

مختلفة ، وأديان متفرقة أصبحوا - بالمعنى الحضاري - عرباً . وأن العرب بحضارتهم وليسوا بعِرقهم ، أو بدينهم ،[1] تأييداً لقول الرسول : « إن العربية ليست بأحدكم من أب أو أم» .

ومن خلال ذلك ، يتبين بأن هؤلاء المفكرين كانوا عقلاء ومستنيرين ، ولم يكونوا سلفيين . وكانت التسمية اللائقة بهم هي «الإسلاميون العقلانيون المستنيرون» فقط ، دون إلحاقهم بالسلفية . ذلك أن السلفية تعني في كثير من الأحيان الجمود ، والقيود ، والانغلاق ، والارتزاق . كما أنها تعني في كثير من الأحيان «إخضاع حياة الخلف لأحكام السلف» . وهو ما لم يُرده هؤلاء المفكرون ، وإن كان معظم هؤلاء من رجال الدين أصلاً ، وممن يرددون دائماً أقوالاً وسيراً من السلف . ولكن هؤلاء لم يحاولوا أن يخضعوا كثيراً حياة الخلف لأحكام السلف .

٥- كان السلفيون في القرن الثامن عشر والتاسع عشر ، من الناس البسطاء الذين لم يعرفوا الحضارة الغربية ، ولم يحتكوا بها نتيجة لظروف تاريخية ، ومكانية ، وزمنية خاصة . كما لم يطلعوا على إنجازات الفكر الأوروبي ، وعصر التنوير .

---

(١) كان سبب هذا الطرح الجديد لمفهوم العروبة في القرن التاسع عشر ، ردّ الأفغاني على المستشرق الفرنسي إرنست رينان من أن الحضارة العربية - الإسلامية ليست من صنع العرب ، وإنما هي من صنع أمم دخلت الإسلام ، وأن العرب في حقيقة أمرهم لا حضارة لهم ، ولا علوم لديهم .

في حين أن الأصوليين وعلى رأسهم سيّد قطب ، وأبو الأعلى المودودي ، كانوا على علاقة وثيقة بالفكر الغربي . وزار قطب أمريكا في عام ١٩٤٨ ، ومكث فيها مدة عامين ، في بعثة تعليمية . كذلك ، فأغلب قيادات الأصوليين ، لا تتشكل من رجال دين بقدر ، ما تتشكل من تخصصات علمية وفكرية (ما عدا إيران) . لذا ، لا تتورع الأصولية عن اغتيال رجال الدين المتحالفين مع السلطة القائمة . فاغتالوا الشيخ محمد الذهبي وزير الأوقاف المصري ، عام ١٩٧٧ ، واغتالوا الشيخ محمد المصري ، مدير أوقاف حلب عام ١٩٧٩ . ويلاحظ أوليفيه روا أن «والحركات الأصولية بما فيها حركة الإخوان المسلمين ، لم تتشكل من رجال دين ، وإنما تشكلت خارج هيئة العلماء ، وبعيداً عن كبريات الجامعات الدينية كالأزهر .»(١)

وعندما سقطت الخلافة الإسلامية في تركيا ، عام ١٩٢٤ لم يهتم لهذا الحدث السلفيون . بل إن السلفيين ، كانوا على خلاف شديد مع الخلافة الإسلامية ، التي سيّرت عليهم الجيوش في نجد والحجاز ، وحاولت الاستيلاء عليهما . ولكن السلفيين - وكانوا يُسمّون بـ «الإخوان» أيضاً في ذلك الوقت - حاربوهم وصدّوهم . في حين أن الأصوليين حزنوا جداً على سقوط الخلافة .

ويقول بعض المؤرخين ، إن قيام جماعة الإخوان المسلمين في

---

(١) أوليفية روا ، مصدر سابق ، ص ٤٢ .

مصر عام ١٩٢٨ ، كان رداً على سقوط الخلافة في ١٩٢٤ . ولذا ، سارع الإخوان بالاشتراك مع الشيخ مصطفى المراغي (شيخ الأزهر آنذاك) إلى تنصيب الملك فؤاد خليفة للمسلمين . ولكنهم فشلوا . فأعادوا الكرّة مع الملك فاروق . ولكنهم فشلوا أيضاً ، لأن مقاومة الليبراليين بقيادة الحزب الدستوري المصري ، في ذلك الوقت مع حزب الوفد العَلْماني ، كانت قوية .

٦-عُني الأصوليون بالمنظمات ، والروابط ، والجماعات ، والتجمعات الحزبية ، والعمل السياسي الجماعي ، وكل ما من شأنه أن يصبح قوة فاعلة ، لقيام الدولة الإسلامية . وهم من أنشأ «رابطة العالم الإسلامي» في مكة المكرمة ، ومعظم أعضائها كانوا من «جماعة الإخوان المسلمين» . وكل هذا ، من أجل أن يُقرّبهم من إقامة الخلافة الإسلامية ، واستلام السلطة . فهدفهم سياسي بالدرجة الأولى والأخيرة . في حين أن السلفيين لم يهتموا بالسياسة ، بقدر ما اهتموا بإعادة الدين إلى ينابيعه الأولى ، وإبعاده عن السياسة . ويلاحظ هنا ، أن السلفيين أقرب من الأصوليين إلى العَلْمانية ، بما تعني فصل الدين عن الدولة . كما أن الدولة في نظر السلفيين ، مجرد أداة ، غير ذات قيمة .

٧- تُعنى الأصولية بالشروح والتفاسير السابقة ، ولا ترغب في فتح باب الاجتهاد الذي أُغلق منذ قرون طويلة . في حين ، تنادي السلفية ، بفتح باب الاجتهاد ، ولا تعتبر الشروح والتفاسير

السابقة . وكان «سبب مطلب السلفية لفتح باب الاجتهاد ، للحد من استئثار العلماء بالنص الديني . فالسلفيون كالأصوليين ليسوا علماء دين في الأصل .»(١)

٨- تُعنى الأصولية بالحاضر والمستقبل عناية كبيرة ، وهذه العناية تعود إلى الهدف السياسي الرئيسي للأصولية . في حين أن السلفية تُعنى بالحاضر في الدرجة الأولى لتخليصه من شوائب الماضي المليء بالخرافات ، والكرامات ، والتهويمات ، الصوفية الشعبية . وعناية الأصولية بالحاضر والمستقبل ، متأتية في ناحية من النواحي ، باعتبارها أن المجتمع الإسلامي التقليدي القديم قد زال ، وحلَّ محلّه التحديث ، والتغريب ، والكفر ، والطاغوت ، وعلينا أن نتصدى لهذا كله ، لإقامة المجتمع الإسلامي الأصيل ، على أنقاض المجتمع القائم الملوث . و«الأصولية في هذا ، حركة جذرية راديكالية ، تشبه في بعض وجوهها الحركات والدعوات اليسارية الحديثة الراديكالية . لذا ، سريعاً ما ظهر أن الدعوة الأصولية ، تُشكِّل انشقاقاً في داخل الإسلام على خلاف السلفية ، التي نشأت كفرقة أو مذهب في داخل الإسلام ، لتطهيره من الشرك ، والمعتقدات الجاهلية السابقة عليه ، جاعلة من الوحدانية ، وماهية التوحد ، والإسلام الصافي ، همَّها الأول والأخير .»(٢)

---

(١) أوليفيه روا ، مصدر سابق ، ص ٣٩ .

(٢) رضوان السيّد ، في لقاء مع موقع «المنتديات السعودية تحت المجهر» على الانترنت .

وعلى هذا الأساس ، يمكننا اعتبار السلفية ، مظهراً أخيراً من مظاهر العصر الإسلامي الكلاسيكي ، وتخضع للآليات نفسها ، التي كانت تخضع لها حركات التجديد ، في الإسلام القديم .

٩- تهتم الأصولية اهتماماً شديداً بالثورة السياسية ، والشريعة ، وقضية المرأة . فيرى الأصوليون ، أن لا وسيلة لعودة المجتمع الإسلامي ، وإقامة الدولة الإسلامية (حيث لا تقوم الدولة الإسلامية إلا بقيام المجتمع الإسلامي) إلا بعمل اجتماعي وسياسي ، خارج المساجد ، ودور العبادة .

في حين أن السلفية ، نتيجة لعدم خبراتها السياسية ، وعدم طمعها في كرسي الحكم ، لا تقيم وزناً للناحية السياسية ، وتركِّز اهتمامها على تنقية الدين من شوائب التديّن الشعبي ، وحصر الدعوة داخل المساجد ، ودور العبادة . أما فيما يتعلق بالحدود الشرعية والمرأة ، فنرى أن الأصولية أقل إلحاحاً على تطبيق الحدود الشرعية ، كما هو الحال مع الإخوان المسلمين في مصر والأردن وسوريا والمغرب وغيرها ، وهم يرون وجوب أسلمة المجتمع أولاً ، قبل المطالبة بتطبيق الحدود الشرعية . فالإسلام بالنسبة للأصولية هو أكثر من مجرد تطبيق للشريعة ، والحدود الشرعية . فهو أيديولوجية كاملة وشاملة . في حين أن السلفية مهتمة جداً بالحدود الشرعية ، وتُلحُّ على تطبيقها ، كما هو حالهم في السعودية ، لأنهم يرون في هذا التطبيق ، الطريق إلى أسلمة المجتمع . وبذا ، فالأصولية تفترض

أسلمة المجتمع قبل تطبيق الشريعة ، بينما تقول السلفية بتطبيق الشريعة من أجل أسلمة المجتمع . وأما بالنسبة للمرأة ، فنرى أن الأصولية لا اعتراض لها على تعليم وعمل المرأة ، كما هو حال الإخوان المسلمين من عمل المرأة ، في معظم أنحاء الوطن العربي ، في حين أن السلفية تعترض على تعليم وعمل المرأة ، وكان موقفهم موقف الرافض - مثالاً لا حصراً - من فتح مدارس للبنات في السعودية عام ١٩٦٢ .

١٠- كلا الفئتين السلفية (بفرعيها التوحيدي والجهادي) والأصولية ، ترفض رفضاً قاطعاً التفسير التاريخي للنصوص المقدسة من قرآن وسُنَّة ، وتتمسك بالتفسير الحرفي المطلق للنصوص المقدسة . فكل قراءة غير تاريخية للنصوص المقدسة ؛ أي ربط كل نص مقدس بأسباب الصدور والتكوين ، واعتبار الأحكام الشرعية فيه موجهة للمجتمع ، الذي صدرت فيه هذه النصوص ، وعدم إمكانية عبورها للحقب الزمنية ، في أغلب الأحيان . فمجتمعات الحقب الزمنية متغيرة ، والنصوص ثابتة ، وإذا أردنا أن نُطبِّق النصوص على كل حقبة من حقب المجتمعات الإنسانية ، فعلينا إعادة النظر في هذه النصوص ، لكي تتلاءم مع تغير المجتمعات ، وقيمها ، وسلوكيات حياتها ، أو أن ندع هذه النصوص جانباً ، ونضع بدلاً منها نصوصاً مدنية ، تناسب المجتمعات القائمة . وهذا ما أخذت به بعض الدول العربية الإسلامية (مصر ، سوريا ، الأردن ، تونس ، المغرب) ، التي أوقفت العمل ببعض

الحدود الشرعية كقطع يد السارق ، ورجم الزاني والزانية ، ومنع حجاب المرأة ، وشهادة امرأتين ورجل واحد . ولنأخذ عبرة ضرورة التفسير التاريخي للنصوص المقدسة ، من القرآن نفسه . فبعض نصوص القرآن مختلفة عن الأخرى بالنسبة لموقف الإسلام من أتباع الديانات الأخرى كاليهود والنصارى ، وذلك حسب المراحل والظروف التاريخية ، التي مرَّ بها الإسلام مع هؤلاء الأتباع . فهناك - مثلاً - آيات تمتدح بني إسرائيل أيام كانت الرسالة النبوية في مكة المكرمة ضعيفة ، ولا صدام مع اليهود (الجاثية : ١٦) . وهناك نصوص تهاجم اليهود ، وتذمهم ، وتمتدح النصارى (المائدة : ٨٢) بعد هجرة النبي عليه السلام إلى المدينة المنورة ، وتصاعد قوة الإسلام . وهناك نصوص تذم اليهود والنصارى معاً (المائدة : ٥١ ، والبقرة : ١٢٠) . وهذا ما طالب به كثير من المفكرين العرب الليبراليين ، واعتبره بعض جهلاء السلفية والأصولية مطالبةً بإلغاء بعض النصوص الدينية . فالمطالبة كانت ضرورية ، للقيام بالفهم والتفسير التاريخي المرتبط بظروف الصدور ، وليس إلغاء النصوص ، أو غضٍّ الطرف عنها . ومن هنا نرى ، أن المتسبب في صدام الغرب مع الإسلام ، والإسلام مع الغرب ، ليس الإسلام نفسه ، ولكن مفسري النصوص الدينية المقدسة ، التي مع التراكم ومرور الزمن ، أصبحت هذه التفاسير إسلاماً جديداً .

وكان الحق مع السلفية التوحيدية ، حين نادت بإلغاء التفاسير

التراكمية المتضاربة ، والعودة من جديد إلى النصوص الدينية المؤسسة . فلا ريب في «أن القرآن هو كلام الله ، ولكنه ليس أزلياً مثل الله ، وإنما هو حادث في لحظة ما من لحظات التاريخ ، التي استدعت أن يأتي هذا النص على النحو الذي أتى عليه . والدليل على ذلك ، أن الله تكلّم قبل ذلك ؛ أي قبل النبي محمد ، والقرآن . لقد تكلّم الله إلى أنبياء بني إسرائيل وعيسى بن مريم . وبالتالي فكلامه حادث مخلوق - كما تقول المعتزلة المؤمنة العاقلة - بحسب الظروف واللحظات التاريخية»[1] . ولكن الأشعرية (نسبة لأبي الحسن الأشعري ٨٧٣-٩٣٥م ، وكان الأشعري من المعتزلة ثم انقلب عليهم ، وجاء أبو حامد الغزالي ١٠٥٨- ١١١١م ، ليكمل المسيرة الأشعرية بوقوفه ضد العقل والفلسفة والمنطق ، وهو الذي ألّف «تهافت الفلاسفة») تجنح إلى التفاسير الحرفية للنصوص ، وقد أخذت السلفية والأصولية عن الأشعرية طريقتها في قراءة النصوص ، إغلاق باب الاجتهاد وخنق حرية الفكر ، والتي استمرت من العصر السلجوقي والفاطمي (٨٧٨-١٠٧٥م) حتى الآن ، مروراً بالعهد العثماني .

١١- السلفية التوحيدية (الوهابية) وجدت ضالتها في الدولة السعودية الأولى (١٧٤٤-١٨١٨م) والدولة السعودية الثانية (١٨٢٤-١٨٩١م) والثالثة (١٩٠٢-؟) ، واستطاعت أن تطبّق

(١) هاشم صالح ، «معضلة الأصولية الإسلامية» ، ص ٦١ .

الكثير من مبادئها الأساسية في هذه الدول ، وخاصة في الدولة السعودية الثالثة . وبذا بردت نارها العقائدية ، ولم تلجأ إلى العنف لتطبيق مبادئها ، إذا التقت الرغبة والقوة السياسية (آل سعود) مع الرغبة والقوة الدينية (آل الشيخ) ، وخلُصا إلى تموضع المجتمع السعودي الحالي بسائر قيمه . في حين أن الأصولية الساعية إلى كرسي الحكم ، لم تستطع أن تطيح بأي نظام سياسي حتى الآن ، وحتى الأنظمة الكرتونية الهشة ، فلجأت إلى العنف ، لكي تحقق أهدافها السياسية كما نرى في العراق ، والجزائر ، وفلسطين ، وأفغانستان وغيرها . « فكلما واجه الأصوليون نكسة يزدادون تجذراً في هذا المجتمع ، وخروجاً عليه وتكفيره ، باعتباره دار حرب . والإسلام الذي لم يكن مرة ديناً ودولة في آن واحد ، جعله الأصوليون متدامجاً ، متخذين من الدمج بين هذين المستويين ، قاعدة معتقدهم ، وركيزته الأساسية ، بقولهم بوحدانية الله ، التي تعني عندهم أن الإسلام دين ودولة ، بلا فرق ولا تمييز ، سعياً منهم إلى الاستيلاء على السلطتين الدينية والسياسية على الطريقة الخمينية ، أو تشبهاً بها ، بل عبر مساعدة جمهورية الإسلام الخمينية في إيران .»(١)

١٢- تهتم السلفية بوجوب طاعة ولي الأمر (الحاكم) ، وتقول بإمكانية معصية ولي الأمر ، سواء كان باراً أم فاجراً ، إلا في

---

(١) رضوان السيّد ، مصدر سابق .

شأنين : الصلاة خلفه ، والقتال معه في دعوته إلى الجهاد . والسمع والطاعة لولي الأمر ولو كان عبداً أسود . في حين أن الأصولية تسعى إلى قلب الحكم ، إذا كان ولي الأمر فاجراً ، أم غير فاجر ، لكي تستولي هي على الحكم . ووصل الأمر بالأصولية إلى محاولة إعلان الخلافة ، حتى في الدول الغربية . إذ نادى عمر البكري ، زعيم «تنظيم المهاجرين» في بريطانيا ، برفع الراية الإسلامية ، فوق قصر بكنجهام في لندن ، لإقامة الدولة الإسلامية في بريطانيا . «فهؤلاء الأصوليون ، يولدون من رحم التوق إلى السلطة . والاستيلاء على السلطة دينهم وديدنهم . وهذه هي الفكرة الأصلية التي توجِّه سلوكهم وتتحكم به . أما مسألة الدين والتدين فثانوية ، مقارنة مع رغبتهم المستميتة في الوصول إلى السلطة بأي ثمن ، ولو عبّدوا الطريق إليها بجثثهم وجثث غيرهم من المسلمين ، وغير المسلمين ، الممزقة ، والمقطّعة الأوصال ، والمحترقة في شوارع مدن العالم . وإن كان هدف وصولهم إلى السلطة تطبيق الشريعة الإسلامية لإنشاء مجتمع جديد ، هو مجتمع الجنة على الأرض ، الذي أنشأته الثورة الإسلامية الخمينية في إيران .»[١]

و«يستميت الإسلام الأصولي ، الذي ذهب بعيداً في سفك الدم ، في طلب السيطرة على قطعة أرض ، ولو صغيرة

---

(١) رضوان السيّد ، مصدر سابق .

(«حماس» و«حزب الله» في غزة، ولبنان كمثالين) لإقامة دولة يُطبّق فيها شرعه وعقيدته الغريبتين عن عقيدة الإسلام التقليدي، أو العادي، وأعرافه وتقاليده، وخصوصاً في ما يتعلق بمسألة سفك الدماء. والدليل ما هو عليه الإسلام الأصولي اليوم ما حصل في غزة، حيث استماتت «حماس» في قتال داخلي دموي للسيطرة على قطعة أرض، سرعان ما راحت تسعى بعد سيطرتها عليها إلى إيقاف العمليات العسكرية، ضد العدو الخارجي، إسرائيل، من أجل تثبيت سيطرتها على الأرض، التي استولت عليها في حربها الداخلية. وهذا يؤكد أن العدو الأصلي لهذه الأصولية داخلي، وليس خارجياً. أما ما انشق الأصوليون عنه وعليه، فليس مجتمع التقليد الإسلامي، الذي مات وزال من زمان، بل المجتمع الإسلامي الذي خلط بين بقايا التقليد القديم والحداثة والتحديث، وحاول المواءمة بينهما في السلوك والعادات والحياة اليومية. والمجتمع هذا هو الذي يعدّه الأصوليون يهودياً يجب محاربته وتدميره.»[1]

١٣- وأخيراً، اكتفت السلفية باستجابة الدولة (السعودية مثالاً) لدعواتها المختلفة في عدم اختلاط النساء بالرجال، والفصل بين الإناث والذكور في المدارس والعمل، وفي ضرورة غطاء الجسم كاملاً للمرأة، وليس الشعر فقط، ووجوب إغلاق

---

(١) أيضاً.

المحلات العامة في الأسواق في مواعيد الصلاة، وفي عدم بناء القبور وزيارتها، وفي عدة تحفظات معظمها يتعلّق بالمرأة، وحياتها، ومسلكها، ولباسها. وكان بينها وبين الدولة سمنٌ وعسل. في حين اتجهت الأصولية (متمثلة بالإخوان المسلمين في مصر والأردن وفلسطين) إلى العمل الاجتماعي داخل الدولة، وذلك لضمان نجاحها في الانتخابات، ولكسب الشارع العربي إلى صفها، في وقت قصّرت فيه الدولة بالأداء في مختلف المجالات الصحية، والتعليمية، والتشغيلية. وهذه محاولة من «الإخوان المسلمين» لأسلمة المجتمع العربي استعداداً، وترقباً لإقامة الخلافة الإسلامية، التي يسعون إلى إقامتها منذ ثمانين عاماً ويزيد، لإيمانهم أن الخلافة الإسلامية والدولة الدينية، لن تقوم إلا على أساس أسلمة المجتمع أولاً، بالطريقة التي يريدونها، ويسعون لتطبيقها. ومن هنا، لا يلجأ «الإخوان المسلمون» في مصر، أو في الأردن، أو في فلسطين إلى العنف كثيراً، ذلك أنهم يفرّغون طاقة العنف لديهم في الخدمات الاجتماعية الواسعة، التي يقدمونها. ولكن بعض المؤرخين للحركات الإسلامية يتخوفون من هذه الخطوات، ويعتبرونها الطريق المؤدي إلى تقليص هامش حرية الرأي، في ظل سيادة فكرة «الصحوة» هذه. ويقول رضوان السيّد: «أتخيّل أنني بعد عشر سنوات من الآن، لن أستطيع التحدث عن الإسلام كما أتحدث عنه الآن. لكن إذا استطاع إسلام الصحوة هذا - وخصوصا «الإخوان المسلمون» في مصر

و«الجماعة الإسلامية» في باكستان ، وهما الحركتان الإسلاميتان الأكبر والأضخم في العالم الإسلامي اليوم ، إضافة إلى «المحمدية» في اندونيسيا ، و«حزب العدالة والتنمية» في تركيا - أن يظل متجنباً العنف في معناه المادي والمباشر ، فسوف يُهيمن ويسيطر على المجتمعات الإسلامية ، وسوف يلغي الحداثة في المعنى الذي نعرفه اليوم . هذا مع العلم أن الإسلام الجهادي العنيف ، إسلام «القاعدة» وابن لادن ، يحرج حرجاً شديداً إسلام الصحوة ، ويؤثر عليه تأثيراً سلبياً . إنني أتخيل أننا سنكون مجتمعا شبيها بالمجتمع الصيني ، بعد عقد أو عقدين من السنوات . وأعني في هذا التشابه أننا سنكون مجتمعاً يعيش فصاماً أو انفصالاً بين أنظمة الحكم فيه وبين أنظمته الاقتصادية وحياته الدينية ، حيث يعيش الفرد وتعيش الجماعات البشرية وفق انتماءات وهويات متعددة ومتضاربة ، معرضة للانفجار في أية لحظة ومناسبة ، ويمكن أن تستمر وتبقى على تعايشها . وهذا إسلام مُنفّر ، وأسّس شبكة من المصالح والتضامنيات الكبرى ، في النسيج الاجتماعي للطبقات الوسطى والعليا .»[١]

---

(١) رضوان السيّد ، مصدر سابق .

القطبية المُرضع للسلفية الجهادية

-١-

من الملاحظ، أن السلفية الجهادية الإرهابية، هي الابن الشرعي للقطبية (نسبة إلى سيّد قطب)، حيث يعدّ أيمن الظواهري نفسه، الوريث الفكري والسياسي المباشر لسيّد قطب.[1] كما أن القطبية تعدّ الحاضنة الدافئة للسلفية الجهادية. وكذلك نلاحظ، أن السلفية الجهادية الإرهابية والسلفية/الأصولية السياسية ليستا حركتين دينيتين، ولكنهما حركتان سياسيتان بمسوح دينية، وتحت مظلة دينية، وذلك بغية الإفلات من العقاب السياسي. فاعتقال أو سجن رجل الدين، من التابوهات السياسية في العالم العربي، ولذا تطالب العَلْمانية بإبعاد رجال الدين عن السياسة.

-٢-

فعندما اعتُقل حسن الترابي الداعية الديني/السياسي عام

---

(١) فرانسوا بورغا، «الإسلام السياسي في زمن القاعدة»، ص ١٤٣.

٢٠٠١ ، لخلافه السياسي مع حكومة المؤتمر الوطني السوداني الحاكم منذ عام ٢٠٠٠ ، كان الحكم السوداني رفيقاً به ، في حين أن الحكم الناصري لم يتوانَ عن إعدام سيّد قطب عام ١٩٦٦ ، لأنه لم يكن شيخاً دينياً . وتمَّ إعدامه على أنه رجل سياسي معارض ، وليس رجلاً دينياً معارضاً . وكذلك يجري الحال نفسه ، مع معظم زعماء الإخوان المسلمين داخل مصر وخارجها منذ ما يزيد على نصف قرن . وكان ذلك في صالح الأنظمة الحاكمة في التخلص من معارضيها اليمينيين .

-٣-

كذلك نلاحظ ، أن زعماء التنظيمات الدينية السياسية من السلفية الجهادية والسلفية/الأصولية ، ليسوا من رجال الدين ، أو من خريجي المعاهد الدينية في مصر أو في السعودية . فلا ابن لادن ، ولا أيمن الظواهري ، ولا معظم قيادات حركة الإخوان المسلمين داخل مصر وخارجها ، بدءاً من حسن البنا وانتهاءً بمحمد مهدي عاكف ، كانوا من رجال الدين المعتمدين من «الفيفا» الدينية (الأزهر) ، كما يطلق عليها الشيخ الأزهري المصري خالد الجندي . بل إن مشيخة الأزهر ، والمؤسسات الدينية السعودية الرسمية ، كـ (هيئة كبار العلماء) ، و(الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد) ، و (اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء) ، كانت باستمرار تصدر الفتاوى الدينية المساندة للدولة ، والمضادة للعمليات الإرهابية ، وللفكر التكفيري ،

الذي يصدر عن السلفية الجهادية، والسلفية/الأصولية، بشأن الحكم والحكام.

-٤-

ولولا عوامل سياسية صرفة معينة (مقاومة المد القومي والاشتراكي الناصري والبعثي، ومحاربة الشيوعية والأحزاب اليسارية) ما كان لدول الخليج وخاصة السعودية، والكويت، واليمن، أن تفتح أبوابها على مصراعيها لقوافل الإخوان المسلمين الفارين من حكم عبد الناصر، وحافظ الأسد في الستينات، والثمانينات، وإطلاق يد الإخوان المسلمين في التعليم، ودسّ كتب وتعاليم سيّد قطب في المناهج الدراسية.[1]

-٥-

كذلك، فإن سيّد قطب ومحمد قطب، لم يكونا من خريجي الأزهر. في حين أن الأشياخ من خريجي الأزهر، أو الجامعات الدينية في السعودية، هم أكثر حرصاً ومراعاة لأنظمة الحكم

---

(١) مثال ذلك اعتماد كتاب سيّد قطب الخطير «معالم في الطريق» ١٩٦٤، ككتاب مدرسي في المرحلة الثانوية في السعودية. وفي هذا الكتاب رمى سيّد قطب المجتمع بالجاهلية، وأطلق عليه: «جاهلية القرن العشرين». وجاء من بعده شقيقه محمد قطب. وكان لاجئاً سياسياً ومدرساً في جامعة الملك عبد العزيز بجدة وعاش فترة في مكة - وألّف كتاباً بعنوان «جاهلية القرن العشرين»، ١٩٩٢.

السياسي في العالم العربي من هؤلاء جميعاً ، لارتباطهم ارتباطاً وثيقاً بأجهزة الدولة ، ومناصبها ، ورجالها . وربما تعمّد هؤلاء جميعاً عدم الدراسة في «الأزهر» ، حتى لا يقعوا تحت عقوبات الأزهر ، ولوائحه ، كما جرى للشيخ علي عبد الرازق (١٨٨٧- ١٩٦٦) الذي سُحبت منه شهادته الأزهرية ، وطُرد من عصبة العلماء ، ومن ممارسة القضاء ، بعد إصداره لكتابه («الإسلام وأصول الحكم» ، ١٩٢٥) والذي كان رداً على كتاب محمد رشيد رضا (الخلافة أو الإمامة العظمى ، ١٩٢٣) ، الداعي إلى استعادة عظمة الخلافة ، التي سقطت نهائياً ١٩٢٤ . ولذا ، فلا سلطة للأزهر ، أو أية جهة سياسية عليهم ، عدا أن تعتقلهم أو تشنقهم ، كما فعلت بسيّد قطب في ١٩٦٦ . فنرى أن الشيخ علي عبد الرازق ، وطه حسين ، قد تراجعا عن آرائهما (يقول محمد عمارة إن محمد بن علي عبد الرازق ، قد أخبره أن أباه كان ينوي كتابة كتاب ينقض فيه ما جاء في كتابه الأول ، لولا أن أدركه الموت عام ١٩٦٦) كما قام خالد محمد خالد(الشيخ الأزهري) تحت إرهاب الإخوان المسلمين بالتراجع عن كتابه «من هنا نبدأ» ، ١٩٥٠ ، عندما أصدر كتابه «الدولة في الإسلام» ، ١٩٨١ .

-٦-

وسيّد قطب ، الذي يعدّ المُنظِّر الأول للأصولية الدينية ، وهو بمثابة ماركس للماركسية ، لم يدرس الدين دراسة أكاديمية ، وكان بعد عودته من أمريكا يجنح إلى أن يصبح ناقد أدبياً . وهو من

المبشرين بنجومية نجيب محفوظ الروائية ، منذ الأربعينات وبداية الخمسينات . ولكن يبدو أن صدمة الحضارة التي تلقاها بعد عودته من أمريكا عام ١٩٥٠ كانت كبيرة ، بعد أن قضى فيها سنتين ، حيث كان في بعثة تعليمية هناك (في ولاية كولورادو) باعتباره موظفاً في وزارة التعليم المصرية . فعاد من أمريكا معادياً لحضارتها ولتقدمها الصناعي ، كما قرأنا ، في كتاب صلاح الخالدي («أمريكا من الداخل بمنظار سيّد قطب» ، ١٩٨٥) ، حيث يرميها سيّد قطب بجاهلية القرن العشرين . ويروي في هذا الكتاب قصصاً عن المجتمع الأمريكي أشبه بالخيال أو أكثر . ويقول عن نظامها الاقتصادي بأنه نظام جشع وانتهازي واحتكاري . ويقول عن تحرير المرأة ، بأنه عبارة عن سوق رقيق . وينتقد التمييز العنصري القوي والوحشي . وهو ما اعتادت أن تحفظه وتردده عناصر السلفية الجهادية والسلفية/الأصولية من بعدها .

الشرع بين الأصولية والسلفية الجهادية

-١-

تُغرم السلفية/الأصولية والسلفية الجهادية على السواء بكلمة «شرع» . فيطلقون على كل ما لا يحبونه ، أو ما لا يرغبون به ، أو يتعارض مع قيمهم الذاتية هم ، أنه «ضد الشرع» ، حتى وإن لم يرد فيه نصٌ شرعيٌ محدد . والعامة التي تمارس الدين الشعبي ، تأخذ هذا التعبير ، دون نقاش ، أو تمحيص ، أو تفكير ، وتكتفي بالابتعاد عنه ، أو عدم ممارسته عملاً ، أو قولاً .

-٢-

وكلمة شرع في القاموس السلفي والأصولي ، تُطلق على كل شيء ، على الملبس ، والمأكل ، والمُنْظَر . فالعباءة السوداء التي تغطي المرأة في الخليج العربي من قمة رأسها حتى أخمص قدميها هي اللباس الشرعي ، شرط أن تكون فضفاضة غير مُكسَّمة ، حتى لا تُبيّن تقاطيع جسم المرأة ، والشورت الذي يصل إلى أسفل الركبة للاعب كرة القدم ، أو السابح في بعض دول الخليج ، هو اللباس الرياضي الشرعي ، وعدم اختلاط الرجال بالنساء هو السلوك

الشـرعي ، وعـدم تدريس النسـاء للأطفـال في المدارس ، وروضـات الأطفـال هو السلوك الشـرعي . ولكـن العـامـة لا تعـرف ، ولا تفـهـم وحـدها «الشـرعي» من عـدمـه . لذا ، فـهـي تلجـأ إلى الشـيـوخ ، و«العلمـاء» ، لتبـيـان صحـة المسـائل الشـرعـية من عدمـهـا . ونحـن نعلم ، بأن الأصل في الأشـيـاء الإباحـة ، كـمـا يقـول الـفـقـهـاء الأقدمون . ولكن الـفـقـهـاء المحدثون ، يقولون للعامة ، إن الأصل في الأشياء التحريم .

فحرِّم تسلم .

-٣-

وكلمـة «شـرْع» جـاءت من «شَـرَعَ» ؛ أي أباح . والتـشـريع في معظمه وضعه رجالٌ مثلنا ، ولكنهم عاشوا في ظروف ، وسـياقات اجتماعية ، وسياسية ، وثقافية ، مختلفة ، فشرّعوا لها ما شرّعوا . ونحن في زمـاننا ، علينا أن نُشـرّع الجـديد . «فـهـم رجـال ونحن رجال ، فنجتهد كما اجتهدوا» كما قال الإمام أبو حنيفة . وهو – للأسف – ما يردده السلفيون والأصوليون ، لكي يجيزوا لأنفسهم الاجتهاد ، والإفتاء . ولكن السلفيين والأصوليين معاً ، ينكرون هذا علينا . ينكرون ، أن لنا عـقـولاً كـمـا كـان للأقـدمين من المُشـرّعين . ويحطّون من مـقـام مُـفكري هذا العـصـر ، ويُطلق عليـهـم يوسف القرضاوي «المفاعيص» (جمع مفعوص ، والمفعوص كلمة عامية ، وهو الصغير غير الراشد) .

ويقـولون ، إن مـا يميّـز الأولين عنا ، هو أننا لم نـشـهـد عـصـر

الرسالة ، كما شهدها الأولون

ويقولون أيضاً : « العجب من جرأة أصحاب هذه المقولة على الإسلام ، إذا ما طالبتهم بدليل على بدعتهم هذه ، قالوا : نحن رجال وهم رجال ، نقول كما يقولون ، ونرى كما يرون» . يقصدون بذلك علماء الصحابة ، ومن بعدهم من الأئمة . غير أن السؤال الذي يطرح نفسه :

ماذا فيهم من أُولئك الرجال؟

هل بُشروا بالجنة؟

هل عاشوا في العصور الممدوحة؟

هل رأوا رسول الله؟

هل رأوا من رأى رسول الله؟

هل أجمعت الأُمة على عدالتهم؟

هل قدّموا للإسلام ، ولأُمتهم مثل ما قدّم أُولئك؟

وقد صدق من قال : إنهم ذكور ، وليسوا رجالاً .»

-٤-

ومنهم من يقول ، إن قول «هم رجال ونحن رجال» بدعة ابتدعها الحداثيون . وكأن التشريع قاصر على فئة معينة من الفقهاء والعلماء ، وهي الفئة السلفية ، أو السلفية/الأصولية .

ومنهم من يأتي بمقولة ، إن الأوائل كانوا علماء ربانيين ، أما نحن فعلماء إنسانيون . والفرق واضح بين الرباني والإنساني . لذا ، فلن نرقى إلى مستوى العلماء الأولين ، وبالتالي فلن نستطيع

التشريع كما فعلوا . وكأن الحياة قد توقفت عند حد الأوائل ، ولم تستمر ، وتتطور .

ويقول علي الصيّاح : « فهم السُنَّة النبوية وبيانُ حِكَمها وأحكامها له أصول وقواعد ، يُنطلق منها وفق منهج علميّ رصين . فمن لم يراعِ هذه القواعد العلمية ، والأسس المنهجية كان فهمه للسنة النبوية - في الواقع- ثورة عليها وتغييراً لدلالتها . وبالتالي يصبح الأمر فوضى ، وتضيع كل قواعد العلم ، وتصبح السُنَّة النبوية حِمىً مستباحاً لكل من هبَّ ودبَّ . يقرأ أحدهم كتاباً في «السُنَّة النبوية» يوم السبت ، ويُصنِّف فيه يوم الأحد ، ويدعو كلَّ أحد للاستنباط يوم الاثنين ، أما يوم الثلاثاء فيطاول الأئمة ، ويقول : «نحن رجال وهم رجال .»[1]

قال ابنُ حزم في «السيّر» «لا آفة على العلوم وأهلها أضر من الدخلاء فيها ، وهم من غير أهلها ، فإنهم يجهلون ، ويظنون أنهم يعلمون ، ويُفسدون ويظنون أنهم مصلحون» .

وقال الجرجاني في «دلائل الإعجاز» : «إذا تعاطى الشيء غير أهله ، وتولى الأمر غير البصير به ، أُعضل الداء ، واشتد البلاء» .

-٥-

إنَّ مسألة فَهْم السُنَّة النبوية ، وبيان حِكَمها ، وأحكامها ، والاستنباط منها ، وتمييزِ ضعيفها من صحيحها ، ليست من قبيل

---

(١) علي بن عبد الصيّاح ، «الثورة على السُنَّة النبوية» ، ص ١٣٥ .

الثقافة العامة ، التي يتناولها الكتاب والمفكرون والمثقفون والشعراء بالنقد والتعليق ، كما يتناولون نقد القصيدة أو المقالة ، وإنما هي مسألة علمية ، تتعلق بدين الله وشرعه ، والقول على رسول الله بغير علم ، كالقول على الله بلا علم ، لأن الرسول «لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا هو وحي يوحى .»(١)

-٦-

وهذا كما هو واضح ، رفض تام للاجتهاد ، واستنباط الأحكام الجديدة للحياة الجديدة . ولكني أعتقد ، بأن لدينا الآن مجموعة من العلماء والمفكرين الليبراليين ، الذين يفوقون في علمهم علم أبي حنيفة ، وعلم كثير من الصحابة ، الذين كانوا محدودي الثقافة . وكانوا يتحركون ، ويدورون ، في دائرة فكرية وثقافية صغيرة جداً . فعبد الله ابن عباس (حبر الأمة) - مثلاً - لم يعرف الرسول إلا صبياً صغيراً .(٢) ولا فضل للصحابة إلا أنهم عاصروا النبي عليه السلام ، وشاهدوه ، وجلسوا معه .

ومن هؤلاء العلماء والمفكرين الذين يفوقون الصحابة علماً وثقافة ، محمد أركون ، وجورج طرابيشي ، ومحمد وعبد المجيد الشرفي ، وعزيز العظمة ، والعفيف الأخضر ، ورضوان السيّد ، وهاشم صالح وغيرهم ، من العلماء والمفكرين الذين هاجروا إلى

---

(١) علي بن عبد الله الصيّاح ، مصدر سابق ، ص ١١٩ .

(٢) عندما رحل الرسول عليه السلام ، كان عمره ١٣ سنة ، ورغم ذلك فقد روى عن الرسول آلاف الأحاديث .

الغرب ، لكي يتاح لهم التفكير والإنتاج الثقافي الحر .

والأحكام الشرعية الآن ، لم تعد مرتبطة بالنصوص الدينية فقط ، ولكنها مرتبطة بعلوم كثيرة كعلم الأديان المقارن ، وعلم الاجتماع ، وعلم النفس ، وعلم الاقتصاد ، والانثروبولجيا ، وغيرها من العلوم المختلفة ، ذات العلاقة الوثيقة بحياة الإنسان . فواضعو الدساتير في العالم ، لا يقتصر علمهم على علم واحد فقط ، وإنما يكونون ملمين بعدة علوم ، وإن لم يكن الأمر كذلك ، فيأتوا بمتخصصين في علوم مختلفة . ولذا ، أصبحت الدساتير - وخاصة في الغرب - التي توضع لخدمة الإنسان ، وضمان حياة ميسرة وسعيدة له ، هي خلاصة العقل البشري الشامل ، وليس عقلاً بشرياً متخصصاً في علم من العلوم ، أو في تخصص من التخصصات .

كذلك ما يجب أن تكون عليه الأحكام الشرعية الآن ، التي يجب أن لا تقتصر على علماء الدين وحدهم . لأن هذه الأحكام أصبحت في بعض المجتمعات الإسلامية هي البديل للدستور الوضعي . وما يسري على الدستور يسري عليها . وقد صدق الشيخ يوسف القرضاوي حين قال : « الفقيه في نظر علمائنا الأولين هو المجتهد في علم الشرع ، والمجتهد في علم الشرع هذا ليس هيناً ، يعني لا بُدَّ أن يكون عنده من الثقافات ، ومن المعارف العلمية ، ما يؤهله لاستنباط الأحكام من مصادرها ، ومن أدلتها . والعلماء اعتبروا المقلِّد ليس عالماً وليس فقيهاً حين يقولون : قال الفقهاء كذا ، يقصدون قال الأئمة المجتهدون ، ولذلك ليس كل من حصَّل

بعض أحكام الفقه ، أو قرأ بعض كتب الفقه ، أو قرأ بعض كتب الحديث يُعَد فقيهاً .»[1]

-٧-

لم أسمع من أي فقيه تعبير «شرع البشر» . كل الكلام حول الشرع ، يجري على أساس «الشرع الإلهي» أو «شرع الله» . فيقال «هذا شرع الله» ، و «وكيف لنا أن نخالف شرع الله» ، و «الله أعلم بخلقه ، ولذلك شرع لهم كذا» ، و «شرع الله واحد لا نقاش فيه ، ولا اختلاف» ، و «يا عباد الله ، أين شرع الله؟» ، و «لا شرعية لمن خالف شرع الله» ، و «الليبراليون الملاحدة ، وانقلابهم على شرع الله في شأن المرأة» ، و «فكل شرع غير شرع الله طاغوت ، ومن احتكم لغير شرع الله ، يكون قد احتكم لطاغوت» ، و «حرمة انتخاب من يشارك في سن قوانين وتشريعات من غير شرع الله» . . الخ .

ونرى في هذه الأقوال ، أبطالاً واضحاً وصريحاً لعمل العقل ، وتأكيداً وترسيخاً لمبدأ النقل . فالله سبحانه وتعالى ، لم يترك شيئاً إلا شرّع له ، كما يقول معظم الفقهاء ، ويوردون لك هذه الآية ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُّبِيناً﴾ (الأحزاب : ٣٦) . ولكنا لو وضعنا هذه الآية في سياقها التاريخي ،

(١) موقع القرضاوي على الانترنت ، «من هو الفقيه وما هي مواصفاته؟»

ولم نقرأها من فوق التاريخ ، وقرأناها من داخل التاريخ ، لوجدنا أن هذه الآية جاءت لتُعبّر عن حالتين ، وحادثتين فرديتين :

الأولى ، حالة فردية بذاتها ، وهي في شأن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ، وكانت أول امرأة هاجرت من النساء ، ووهبت نفسها للنبي ، ولكن النبي زوّجها من زيد بن حارثة .

الثانية ، أنها نزلت في شأن زينب بنت جحش ، وقد خطبها الرسول لزيد بن حارثة ، فامتنعت ، وامتنع أخوها كذلك لنسبها في قريش ، وأنها كانت بنت عمة النبي ، وأن زيداً كان عبداً بالأمس ، إلى أن نزلت هذه الآية . فقال أخوها لزيد : مرني بما شئت ، فزوّجها من زيد . وروى البخاري وغيره عن أنس ، أن هذه الآية نزلت في شأن زينب بنت جحش .

-٨-

ورغم أن طنين ورنين تعاليم الشرع والنصوص الشرعية ، تملأ الفضاء العربي والإسلامي اليوم ، إلا أن أحكام الشرع في غالبية البلدان العربية غير مُطبَّقة ، ولا أعتقد بأنها يمكن أن تُطبّق اليوم بالكامل . بل نحن نرى ، أنه سنة بعد سنة ، وحقبة بعد حقبة ، يتخلّص الفضاء العربي والإسلامي من أحكام شرعية معينة ، ذات سياق تاريخي ، وخصوصية اجتماعية معينة . وكان البلد العربي الرائد في هذا تونس ، فقد استطاع الحبيب بورقيبة خلال ثلاثين عاماً تقريباً ، وبين العامين ١٩٥٦-١٩٨٧م أن يضع تونس مجتمعاً ودولة ، على سكة الحياة الحديثة المعاصرة ، حين ألغى الزواج من

أربعة نساء ، وحين منع الطلاق إلا في المحكمة أمام القاضي ، وحين أصدر مجلة الأحوال الشخصية عام ١٩٥٦ ، والتي اتُهم على إثرها من قبل المؤسسات الدينية في العالم العربي بالخروج على الإسلام .[1]

---

(١) طالع البرقيات المتبادلة بين الحبيب بورقيبة وبين مفتي السعودية الراحل ، الشيخ عبد العزيز بن باز ، في كتاب لطفي حجي «بورقيبة والإسلام . . الزعامة والإمامية» .

ما حال الإسلام لو لم تظهر السلفية الجهادية؟

-١-

ما حال الإسلام الآن ، لو لم تظهر «السلفية الجهادية» بقيادة تنظيم «القاعدة» الديني ، الذي يقوده رجال سياسة بثوب ديني مهلهل ، يسعون في كل مكان إلى الاستيلاء على السلطة بالعنف ، حيث لم يقدروا عليها بالسياسة والفكر؟

وما حال الإسلام الآن ، لو لم تظهر السلفية/الأصولية ، التي بنى فكرها رجل الدين والفقيه الباكستاني أبو الأعلى المودودي من خلال حزبه «جماعت إسلامي» ، وتلميذه سيّد قطب من خلال «جماعة الإخوان المسلمين» ، التي ظلت محظورة في مصر حتى الآن ، منذ عام ١٩٤٨ ، بعد اغتيالهم رئيس الوزراء المصري محمود فهمي النقراشي باشا (١٨٨٨-١٩٤٨) ، بواسطة جهازهم السري؟

فهل كان الإسلام دين الإرهاب؟

وهل المسلمون جميعهم أصوليون؟

وهل الأصوليون المسلمون بالتالي هم إرهابيون؟

ورغم هذا ، فإن الإرهابيين - للأسف الشديد - أصوليون ، أو من السلفية الجهادية .

قال برنارد لويس المستشرق الأمريكي من أصل بريطاني ، عام ٢٠٠٣ : «معظم المسلمين ليسوا أصوليين ، ومعظم الأصوليين ليسوا إرهابيين ، ولكن معظم الإرهابيين الحاليين هم مسلمون ، ويدعون بفخر أنهم كذلك .»

-٢-

لقد قام سيّد قطب - الثدي الدافئ المدرار للأصولية الإسلامية المعاصرة - بمراجعة ، وإعادة كتابة ، ما قاله ابن حنبل ، وابن تيمية ، وأبو الأعلى المودودي بخصوص جاهلية المجتمع الحديث ، وجاهلية السلطة والقيم السياسية السائدة ، وانتهى - كما انتهى أبو الأعلى المودودي - إلى أن الحاكمية لله ، هي أرقى ، وأبقى نظم الحكم السياسي للبشرية جمعاء . بل إن سيّد قطب ، يردد ما قاله ابن حنبل ، وابن تيمية ، وأهل السُنَّة والجماعة من قبلهم ، بضرورة إطاعة ولي الأمر ، وعدم الخروج عليه . وهي أن :

«الخلق عباد الله ، والولاة نواب الله على عباده ، وهم وكلاء العباد على نفوسهم .»(١)

وترديد الحديث النبوي ، الذي رواه الحسن البصري :

« لا تعصوا أولي الأمر منكم ، فإن عدلوا فلهم الأجر ، وعليكم الشكر . وإن بغوا فعليهم الوزر ، وعليكم الصبر ، فهو امتحان من

---

(١) تقي الدين ابن تيمية ، «السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية» ، ص ١٧ .

الله ، يبتلي به من يشاء من عباده ، فعليكم أن تتقبلوه بالصبر والأناة ، لا بالثورة والغيظ .»

وهناك حديث رواه أحمد بن حنبل ، عن عبدوس بن مالك العطاري ، يقول :

«من غلب على المسلمين بالسيف ، حتى صار خليفة ، وسُمي أمير المؤمنين ، فلا يحلُّ لأحدى يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيت ولا يراه إماماً ، باراً كان أم فاجراً .»

وقول الحديث النبوي ، الذي يحض على طاعة السلطة ، ومسؤوليتها أمام الله :

«أدوا إليهم الذي لهم ، فإن الله سائلهم عما استرعاهم .»

وكل هذه النصوص تعترف بالعجز البائن ، عن إمكانية محاسبة السلطة السياسية باعتبارها خليفة الله ورسوله على الناس ، ومسؤوليتها أمام الناس هي مسؤوليتها نفسها أمام الله ورسوله . ولا يغير السلطة إلا الله ، الذي أتى بها إلى الحكم .

-٣-

الحاكم لا يخضع للشارع ، ولكنه يخضع للشرع .

وقد قرأنا قول الخليفة عثمان بن عفان ، عندما جاء إليه نفر من الصحابة بقيادة محمد بن أبي بكر الصديق ، يطالبونه بالتنحي خوفاً من الثورة عليه وقتله ، فرد عليهم بالقول المشهور ، الذي أصبح فيما بعد المادة الوحيدة المُحافظ عليها ، والمُتبعة من قبل كل حكام المسلمين :

«لا أنزع قميصاً سربلنيه الله .»

وبالتالي فإن المحاسبة ، ما دامت واجبة وشرعية ، فلتكن للمجتمع الكافر المتماهي مع المجتمع الغربي المنحل ، ولتكن للمؤسسة الدينية المتحالفة مع السلطة ، والتي تُسبغ عليها الشرعية الدينية ، وتدافع عنها .

-٤-

ولكن ، علينا أن نلتفت إلى جانب مهم في كتاب ابن تيمية «السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية» عندما نقرأه من داخل التاريخ ، وليس من فوقه . فنصل إلى نتيجة أن هذا الكتاب ، قد كُتب في القرن الثالث عشر الميلادي تقريباً ، في وقت كان فيه المسلمون بحاجة إلى حاكم عربي مسلم ، في ظل تداعي الإمبراطورية العباسية ، وإشرافها على الهلاك ، وفي ظل تهديد المغول للشرق الإسلامي ، وخاصة منطقة العراق ، وبلاد الشام . كما كان فيه الصراع في العراق بين السُنَّة والشيعة على أشده - كما هو حاله اليوم مع إيران - مما مكَّن المغول من اجتياح العراق ، بمساعدة مؤيد الدين العلقمي ، عدو السُنَّة ، وزير آخر خلفاء بني العباس المستعصم بالله (١٢٤٢-١٢٥٨م) الذي قتله المغول . ويشرح هذا الظرف التاريخي الباحث المغربي ، سالم يفوت بقوله :

«كانت الملامح العامة للظرف التاريخي ، الذي عاش فيه ابن تيمية ، غياب خلافة فعالة ، وغياب سلطة فعالة . ذلك أن الخليفة ، لم تعد له سوى سلطة وهمية ، بينما ظلت السلطة الحقيقية بيد

الأمراء المماليك . كذلك ، كان هناك غياب وحدة في العقيدة لانتشار التصوف ، وهيمنة الجمود ، الذي كرّس التفرقة والانقسام ، وابتعاد الناس عن أدلة القرآن نفسها .»(١)

-٥-

وفي هذا الظرف التاريخي الدقيق ، كان على ابن تيمية ، وهو يشاهد انهيار الخلافة الإسلامية ، وتولي المغول الحكم في بغداد ، وتدمير بغداد ، وقتل الخليفة المستعصم بالله ، وسيطرة التتار على العراق ، وخراسان ، وبلاد الشام ، أن يقف موقفاً فكرياً وثقافياً ودينياً معادياً ، للآخر ولفكر الآخر ، كما يقف الآن بعض مثقفينا من الفكر الغربي ، والثقافة الأمريكية ، نتيجة لما يجري في فلسطين ، والعراق ، وأفغانستان . فكان موقف ابن تيميه وتمسكه بالنقل ، وعدائه للعقل اليوناني ، كما جاء في كتابيه «الرد على المنطقيين» ، و «نقض المنطق» ، وقوله المشهور : «من تمنطق فقد تزندق» موقفاً تمليه عليه اللحظة التاريخية آنذاك ، ويمليه عليه التاريخ الجديد للعرب والمسلمين .

---

(١) سالم يفوت ، حفريات المعرفة العربية الإسلامية ، ص٢٢١ ، نقلاً عن ابن كثير ، «الكامل في التاريخ» ، جزء١٢ ، ص ١٣٨ ، وج١٠ ، ص ٩٤ . وكذلك ابن كثير في «البداية والنهاية» ، ج١٣ ، ص ٢٠١-٢١١ .

-٦-

ويضيف سالم يفوت قائلاً : هذا الظرف التاريخي ، لا يمكننا أن ننتظر منه ، أن يفرز سوى الميل إلى مناصرة المنقول ، ومقاومة ما عداه ، وإلى التأكيد على أن للمنقول معقوله الخاص ، وأنه لا ينطوي على قضايا إخبارية فقط ، بل وأيضاً برهانية . وتوجيه الأنظار إلى الأصول العقلية فيه ، قصد إبراز غنى المنقول ، واكتفائه الذاتي ، وعدم احتياجه إلى ما هو أجنبي عنه . فقد جاء في كتاب «الرد على المنطقيين ، ص ٣٠» ، «إن المنطق اليوناني لا يحتاج إليه الذكي ، ولا ينتفع به البليد .»[١]

(١) سالم يفوت ، مصدر سابق ، ص٢٢٢ .

السلفية الوهابية: نظرة مغايرة

-١-

اهتمامنا بالسلفية الوهابية ، وتخصيص هذا الفصل لها ، تأتى من كون السلفية الوهابية قد لعبت دوراً سياسياً ، واجتماعياً ، وثقافياً ، في الجزيرة العربية ، وفي السعودية خاصة ، كما لم تلعبه أية سلفية أخرى . وما زال هذا الدور ماثلاً حتى الآن في السعودية خاصة ، فيما يتعلق بالحريات الدينية والثقافية والاجتماعية ، وسائر شؤون المرأة بشكل عام .

كذلك ، فإن بعض المحللين السياسيين يعتقدون أن ما حلَّ في الشارع المصري الآن من ردة كبيرة إلى التديّن الشعبي ، وزيادة عدد النساء اللائي يلبسن الحجاب ، وزيادة الشعبية لجماعة الإخوان المسلمين في مصر ، كل هذا مرده إلى الأفكار السلفية الوهابية ، التي عاد بها العاملون المصريون من منطقة الخليج ، ومن السعودية ، على وجه الخصوص . وقد اتهم هؤلاء المحللون السعودية بتصدير المبادئ الوهابية إلى مصر ، كما سبق واتهموها بنشر الوهابية في أفغانستان وباكستان ، عن طريق تمويل المدارس الدينية المتشددة والمتطرفة ، والمنتشرة بكثرة في هذين البلدين . ولا يُخفي هؤلاء

المحللون شكوكهم ، من أن السعودية تموّل كذلك جمعيات دينية وثقافية واجتماعية مصرية للترويج للمبادئ الوهابية ، علماً أن وزارة الإعلام السعودية في عام ٢٠٠٨ ، وبناء على أوامر عليا ، نبهت العاملين في الصحافة السعودية إلى وجوب عدم ذكر الوهابية سلباً أو إيجاباً ، في أية مادة صحافية . وربما كان سبب ذلك كثرة النقد السلبي من العالم العربي ومن الغرب عامة ، الموجّه للسلفية الوهابية ، والتي تتحمل الدولة السعودية وزره على مختلف المستويات .

-٢-

دافع الكاتب الفرنسي شارل سان برو عن الإسلام السلفي ، واعتبره حركة إصلاحية . وقال سان برو : «إن على الإسلام اليوم ، التذكير بأنه حركة اجتهاد دائمة ، ودين قابل للتكيف مع التطور» . ورفضَ «التطرف الإسلامي» والنظريات الداعية لـ«التغريب» ، ونقضَ المقولات السائدة عن الشيخ محمد عبد الوهاب ، والتيار السلفي ، منوهاً بأن عبد الوهاب ، كان صاحب حركة إصلاحية .

وذكر سان برو في حديث لوكالة الأنباء الإيطالية بمناسبة صدور كتابه «إسلام ، مستقبل السلفية بين الثورة والتغريب» ، أن كتابه يرمي إلى «إظهار الإسلام الحقيقي ، الذي لا علاقة له بالتطرف الإسلامي والإرهاب ، الذي نتحدث عنه كثيرا» .

وقال : «التطرف هامشي جداً في الإسلام ، ولكن في الوقت نفسه وكما أرفضُ التطرف أنقضُ نظرية وضع الإسلام المتطرف

مقابل تغريب الإسلام» ، وأضاف : «أرفضُ التطرف الإسلامي ، والإسلام المشوه المُغرَّب ، وأفضلُ البحث عن الإسلام الحقيقي ، الذي كان دائماً حركة إصلاحية» ، على حد قول الكاتب الفرنسي المختص بقضايا الإسلام ، والعالم العربي .

-٣-

وأوضحَ سان برو ، أنه ينقضُ في كتابه الجديد ، الفكرة السائدة عن الشيخ محمد عبد الوهاب ، و«الوهابية» . وقال : «بعكس الفكرة التي نقدمها عن الشيخ عبد الوهاب على أنه متشدد ، فهو أول الإصلاحيين . وبفضل تفكيره ، وعمله حرَّك الإسلام ، ودفع طاقة الإسلام التي كانت مُجمدة . فعبد الوهاب يندرجُ ضمن التقليد . وهو لم يؤسس مدرسة جديدة ، لكنه يقول بضرورة التخلّي عمّا يشوّه صورة الإسلام ، والعودة إلى السلف ، للانطلاق من جديد ، وليس للعودة إلى الخلف» .

-٤-

قال سان برو إن الشيخ محمد عبد الوهاب (١٧٠٣ - ١٧٩١م) ، «طوّر أموراً كثيرة في الاقتصاد ، وشجع التعاونيات الزراعية على سبيل المثال ، وأيضاً أعطى المرأة مكانة هامة في الإسلام» ، وفق تعبيره .

وانتقد سان برو النظريات التي طوَّرها بعض المفكرين المسلمين ، وتقول «إن الإسلام شأن فردي ، وإيمان في الحيز الخاص ،

وإنه لا بُدَّ من التخلّي عن بعض المفاهيم في الإسلام ، لتحديثه حسب المعايير المعاصرة» .

واعتبر سان برو أن «هذه النظريات هي سُبلٌ لتشويه الإسلام ، لأننا إذا ألصقنا المبادئ والقيم والإيديولوجية الغربية اليوم به ، سنقتله» . وقال «هذا ما يرمي إليه البعض . لكن في الواقع لا يمكن حصر الإسلام بمسألة إيمان خاص . فمثله مثل الأديان كافة شأن يخصُ المجتمع ، والمقولة الأساسية في الإسلام ، أنه دين ودنيا» . وذكر أن «الدين هو ما يربط بين الناس ، ويعطيهم اعتقاداً جمعياً» حسب رأيه .

-٥-

ورأى المفكر الفرنسي ، أن التحديات التي تواجه الإسلام اليوم ، تتمثل بضرورة «التذكير بأن الإسلام حركة اجتهاد دائمة ، ودين الوطن ؛ أي إنه دين قابل للتأقلم مع التطور . وهو دين الاعتدال» ، مضيفاً : «لا بُدَّ من تقديم الصورة الحقيقة للإسلام نحو الخارج والغرب بشكل خاص . فهو يُقدم اليوم بصورة كاريكاتورية» .

وشدَّد على ضرورة أن «يجدَ الإسلامُ حركته الداخلية . حيث كان دائماً له قدرة على التكيّف ؛ أي إعادة فتح باب الاجتهاد ، وليس تقليد الغرب» ، على حد قوله .

ورأى المفكر الفرنسي ، أن البعضَ في الغرب خاصة ، يستخدم مصطلحات مثل «الإسلاموية» ، و«الإسلام الراديكالي» ، و«السلفية» ، و «الوهابية» ، دون فهمها بشكل جيد . وذكَّر أن الذين

يتحدثون عن «خطر الإسلام» ، يقومون بذلك ، نتيجة «نوايا سيئة» ، لتبيان أن هناك صدام حضارات ، أو بسبب «الجهل» بحقيقة الإسلام .

وقال : «أحاربُ الجهل والهجوم على الإسلام . واعتقدُ أن المشكلة ليست صدام الحضارات ، بل هي اليوم إنقاذ الحضارات ، إزاء التهديد ضدها عامة . وأعتقد أن عليها التعاضد مع الأديان ، لتنقذ نفسها» .

وأضاف : «إن النقاش يجب أن يكون بين البربرية المادية والحفاظ على الحضارات ، وليس بين الحضارات نفسها» .

-٦-

ويقدم سان برو ، مدير «منتدى الحقوق والحضارة الإسلامية» ، وعضو «معهد القانون الدولي والمقارن» في كلية «رينيه ديكارت» للحقوق في باريس ، في كتابه ، دراسة تحليلية متجددة لكبار المفكرين السلفيين ، كأحمد بن حنبل ، أو ابن تيمية ، ويتخذ من «الإصلاحي» محمد عبد الوهاب إطاراً مرجعياً ، مسلطاً الضوء على تطور العقيدة السلفية ، خصوصاً من جوانبها الاجتماعية ، والسياسية ، والشرعية ، بدءاً من القرون الأولى للإسلام ، وصولاً إلى يومنا هذا .

كما يتناول «التيار الإصلاحي» ، الذي يمثله الأفغاني ، ومحمد عبده ، ورشيد رضا ، وكذلك عبد الرحمن الكواكبي . ويرى في الخلاصة أن «السلفية الإسلامية ، هي ردٌ على التشرذمات المذهبية

المتطرفة . وهي أفضل من التغريب ، الذي قد يؤدي إلى إلغاء الهوية الإسلامية ، التي تتميز بالمزاوجة بين الزمني والروحي .»

-٧-

شاعت بعد كارثة ٢٠٠١/٩/١١ ، أن الفكر الوهابي الذي ظهر في القرن الثامن عشر بزعامة الشيخ محمد عبد الوهاب ، مع الدولة السعودية الأولى (١٧٤٤-١٨١٨م) ، التي تأسست في بلدة الدرعيّة بنجد ، وشملت أجزاء كبيرة من شبه الجزيرة العربية وأسقطها إبراهيم باشا على رأس جيش مصري كبير ، وأسر رئيسها عبد الله بن سعود ، وأخذه إلى الآستانة مع مجموعة من أفراد عائلة الشيخ محمد عبد الوهاب ، حيث تم إعدامه هناك . ثم الدولة السعودية الثانية في القرن التاسع عشر (١٨٢٤-١٨٩١م) برئاسة فيصل بن تركي ، التي انهارت بواسطة آل الرشيد . ثم الدولة السعودية الثالثة في القرن العشرين (١٩٠٢-؟) ، التي أسسها الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود ، وأعلن على إثرها المملكة العربية السعودية الموحدة من نجد والحجاز عام ١٩٣٢م . وقد اعتمد المؤرخون والمعلقون الذين ربطوا بين التعاليم الدينية الوهابية ، وبين ارتقاء السلفية/الأصولية ، والسلفية الجهادية الراديكالية على ظاهرة وجود ١٥ شاباً سعودياً من بين مفجري كارثة ٢٠٠١/٩/١١ ، وأن هؤلاء قد رضعوا من ثدي الوهابية . وأن أسامة بن لادن زعيم «القاعدة» ، هو الآخر سعودي الجنسية (حضرمي يماني الأصل) ومن بين من رضعوا أيضاً من ثدي الوهابية . ولكن علينا أن نلاحظ

أن الوهابية ظهرت في القرن الثامن عشر، واستمرت على أرض الواقع بتعاليمها ومريديها أكثر من ثلاثة قرون إلى الآن. ولم نشهد لها في القرن الثامن عشر، والتاسع عشر، والقرن العشرين، أية عمليات إرهابية، كما تمَّ منذ مطلع القرن الحادي والعشرين ٢٠٠١. وكان كل نشاطها العقائدي خلال القرون الثلاثة الماضية، ينصبُّ على تطهير الإسلام من مظاهر التديّن الشعبي (الشعوذة، والأساطير، والسحر، وتقديس الأولياء، وبناء القبور الفخمة، والتكايا، والطقوس الصوفية الشعبية. وجميع هذه المظاهر انتشرت بشكل واضح، في العراق، ومصر) وهي بهذه الدعوة التي لُحمتها العودة إلى المنابع الدينية الأولى، وسداها تخليص ما علق بالدين القويم، من شوائب التديّن الشعبي، كانت تُعدّ عقيدة طليعية تقدمية أكثر منها عقيدة سلفية. إلا أن خطأها، كان في تفسير النصوص تفسيراً حرفياً متشدداً، من فوق التاريخ، وليس من خلاله. ورفضها تأويل النصوص المقدسة تأويلاً تاريخياً، وعدم ربطها بين النص المقدس، وبين السياق الاجتماعي والتاريخي والثقافي الذي جاء فيه.

-٨-

ورغم موقفها السلبي من الآخر، إلا أننا نرى أن الدولة السعودية الثالثة، اعتمدت في قيامها منذ ١٩٠٢، إلى الآن اعتماداً كبيراً على الآخر. وعلينا أن لا ننسى أو ننكر المساعدات المالية والعسكرية، التي كانت تقدمها بريطانيا للملك المؤسس عبد

العزيز بن سعود في حروبه الممتدة مع أعدائه من زعماء القبائل في الجزيرة العربية ، ومع الهاشميين في الحجاز ، إلى أن استطاع إقامة المملكة العربية السعودية عام ١٩٣٢ . ثم لا ننسى الدور الأمريكي في اكتشاف حقول النفط في المنطقة الشرقية ، والذي لعب ويلعب حتى الآن ، دوراً كبيراً ووحيداً في بناء الدولة السعودية الثالثة . ولم يكن الملك عبد العزيز في تلك الأثناء ، خاضعاً كل الخضوع للوهابيين المقاتلين معه ، والذين كان يُطلق عليهم «الإخوان» .

ففي عام ١٩٢٩ قام زعيم «الإخوان» الوهابي فيصل بن سلطان الدويش ، بمشاركة سلطان بن بجاد المقاطي ، وضيدان بن حثلين ، بشن هجوم على قوات الملك عبد العزيز فيما عُرف بمعركة «السبلة» . ولكن الملك عبد العزيز استطاع أن يهزمهم . ومات فيصل الدويش وكُسرت شوكة «الإخوان» ، في هذه المعركة التي لعب فيها الملك فيصل بن عبد العزيز دوراً عسكرياً مشهوداً . وكانت أسباب هذه المعركة الحاسمة ، الخلاف الحاد الذي ظهر بين «الإخوان» الوهابيين ، وبين دولة الملك عبد العزيز ، والذي يتلخص في التالي ، الذي من خلاله نرى ، كم كانت الدعوة الوهابية قصيرة النظر ، وحرفية القراءة ، وضيقة التفكير :

١- اتهام دولة الملك عبد العزيز ، بأنها تستخدم السحر ، المتمثل باستخدام السيارات ، والطائرات ، ووسائل الاتصال السلكي واللاسلكي . واعتبار هذا السحر من الأهداف التي حاربها الوهابيون في الماضي ، ويرفضها الإسلام .

٢- اتهام دولة الملك عبد العزيز ، بفرض رسوم ومكوس على

البضائع المستوردة ، وهذه الرسوم والمكوس ضد تعاليم الإسلام .

٣- اتهام دولة الملك عبد العزيز ، بالخروج على الإسلام لعقدها معاهدات مع دول كافرة كبريطانيا وأمريكا .

٤- تقاعس دولة الملك عبد العزيز ، عن غزو العراق والجهاد ضد الشيعة في العراق .

٥- عدم إطاعة «الإخوان» لأوامر الملك عبد العزيز برد سائر الأسلاب ، التي غنموها من غزوهم للأماكن المقدسة للشيعة في العراق .

٦- عدم إجبار الملك عبد العزيز شيعة الإحساء على ترك مذهبهم ، والانضمام إلى مذهب السُنَّة والجماعة .

٧- وأخيراً ، رغبة «الإخوان» بالإغارة على مناطق الشيعة في جنوبي العراق ، لمزيد من الأسلاب والغنائم ، وممانعة الملك عبد العزيز بذلك .

-٩-

ومن مفارقات التاريخ ، أن الشيعة لم يردوا على الإخوان في عدوانهم ، وأن الاعتداءات العسكرية ، التي تمت على الجزيرة العربية ، وعلى نجد والحجاز خاصة ، لم تكن اعتداءات شيعية بل كانت سُنيّة . ومنها ما كان في عهد محمد علي باشا ، ثم في عهد صدام حسين .

ورغم هذا ، سارت الدولة السعودية في سياستها ، كأي دولة

من دول العالم ، وتعاملت وأقامت علاقات دولية ، مع معظم دول العالم ، غير آبهة بتعاليم الوهابية المتشددة . وفي الداخل ، استطاعت أن تبني شرعيتها على مشاريع البناء والتنمية التي أقامتها ، وليس على الوهابية ، كما كانت عليه الدولة السعودية الأولى والثانية .

-١٠-

ومن هنا نرى ، أن المرجعية الدينية النظرية للسلفية الجهادية ، المتمثلة بتنظيم «القاعدة» ، والجماعات الأخرى ، وكذلك للأصولية (الإسلام السياسي) المتمثل بالإخوان المسلمين ، و «حماس» وغيرهما ، هي مرجعية قطبية (نسبة إلى سيّد قطب) وليست وهابية . وفي هذا يقول فرانسوا بورغا : «كثيراً ما نسمع أن أهم مرجعية نظرية لمؤسسي القاعدة ، (أسامة بن لادن ، وأكثر منه أيمن الظواهري) ، وعدد من أتباعهما الشبان ليست هي الوهابية . ولكن المرجعية المهمة لهؤلاء هو سيّد قطب . فسيّد قطب ، هو الذي منح لهؤلاء طوال النصف الثاني من القرن المنصرم جزءاً كبيراً من قواعده الإيديولوجية .»[١] وسيّد قطب ، هو الذي يُعطي للراديكالية السياسية لمؤسسي «القاعدة» مصدرها اللاهوتي السياسي الأساس . فالسلفيون الجهاديون يشجبون اليوم تلّوث المسلمين بالتأثير الغربي ، وتخلّيهم عن التشريع الإلهي لصالح القانون «الوثني» . وهذا كله

---

(١) فرانسوا بورغا ، «الإسلام السياسي في زمن القاعدة» ، ص ١٣٣ .

بفضل تعليمات سيّد قطب ، التي كتبها في السجون الناصرية ، والمبثوثة في كتابيه «في ظلال القرآن» ، و «معالم على الطريق» .

«فابن لادن ، وأيمن الظواهري ، يتفقان مع سيّد قطب ، بأن أصحاب السلطة ليسوا مذنبين فقط بتجاوزات تقليدية استبدادية دنيوية ، ولكنهم متهمون بالعودة إلى الجاهلية الأولى قبل الإسلام ، فحقّ عليهم القصاص لعجزهم عن احترام الشريعة الإلهية . وهذا العجز يفسّرُ فسقهم السياسي . والدليل الأكبر هو تلوثهم بهذه العَلْمانية ، التي ينصُّ جوهرها على إحلال «القانون الوضعي» محل القانون الإلهي وهو الشريعة .»[1]

---

(١) فرانسوا بورغا ، مصدر سابق ، ص ١٣٦ .

الباب الثاني

في الأصولية

معنى الأصولية

الأصولية كحبة البطيخ خضراء من الخارج وحمراء أو قرعاء من الداخل ؛ أي إما دموية ، أو لا تقول ، ولا تفعل شيئاً .

-١-

لفظ 'أصولية' لفظٌ ذُكر في الإنجيل ، ويشار إليه بالانجليزية Fundamentalism . ويقول بعض الباحثين وأساتذة الفلسفة كالمصري مراد وهبة ، إن هذه الكلمة مشتقة من كلمة Foundation ، وتعني «الأساس» . ومن المحتمل أن يكون رئيس تحرير مجلة 'نيويورك وتشمان' هو الذي جاء بهذه الكلمة إلى الإنجليزية عام ١٩٢٠ ، وعرَّف الأصوليين ، بأنهم أولئك الذين يعملون بتفانٍ من أجل تثبيت الأصول(١) .

-٢-

ويقول الباحث المصري مهدي بندق «من المعروف أن أساس

---

(١) مراد وهبة ، «أصوليات هذا العصر» ، مجلة الديمقراطية ، القاهرة ، عدد ٢٩ ، ٢٠٠٨ .

مذهب الأصولية Fundamentalism هو الفهم البروتستانتي للعقيدة المسيحية - الذي انتشر في القرن العشرين ، وبالذات في أمريكا- ومؤداه أن الكتاب المقدس معصوم من الخطأ ، ليس في مسائل العقيدة والأخلاق فحسب ، بل وفيما يتعلق بالتاريخ البشري أيضاً ، مثل قصة الخلق الواردة في سفر التكوين ، ومثل خروج بني إسرائيل من مصر بعد أن أغرق الربُّ ملكها وجيشها في اليمِّ . ومثل ميلاد السيّد المسيح من السيّدة العذراء كابن (بيولوجي؟!) للإله الأب ، ثم صلبُ هذا الابن الإلهي وقيامته من الموت . ومن حيث ترفض الأصولية إعمال التأويل لمقاربة العقل والمنطق ، فلقد صار على «المؤمنين» أن يتقبلوا هذه «المعارف» حرفياً ، ودون نقاش .(١)

-٣-

ويقول الباحث الإسلامي بكر أبو زيد في كتابه «معجم المناهي اللفظية» : إن كلمة أصولي تعني من الجاري في مصطلحات العلوم الشرعية : أُصول الدِّين . ويُقال : الأصل ، ويُقصد به : علم التوحيد . ومنها : أُصول التفسير ، وأُصول الحديث ، وأُصول الفقه . وإلى هذا اشتهرت النسبة للمبرز فيه بلفظ : الأُصولي . وعنهم أَلَّفَ المراغي كتابه «طبقات الأُصوليين» . ويقول أبو زيد ، إن أعداء الإسلام في العصر الحديث رموا الأصوليين الإسلاميين بالتزمت ، والتطرف . وأصبحت الأصولية تعني هذين المعنيين .

(١) مهدي بندق ، «كيف التهمت الأصولية حداثة الغرب؟» موقع الشفاف على الانترنت ، ٢/٤/٢٠٠٨ .

الأصولية في الأديان كافة

-١-

يتحدث الناقد والكاتب الليبرالي المصري ، جابر عصفور عن بدايات الأصولية الفكرية ، فيقول إنها بدأت - تاريخياً- من الجمود المقترن بالتأويلات الدينية المتعصبة ، في الأديان المختلفة . لكن الدلالة المقترنة بحرفية الفهم ، وفرضه على الآخرين ، جاوزت الدائرة المتصلة بالتأويل الديني إلى الدوائر المدنية . وأصبحت قرينة كل فكر يُحيل النصوص ، أو القواعد ، أو الأفكار ، أو الآراء البشرية ، إلى أصول ثابتة ، جامدة ، متصلبة ، لا تعرف المرونة ، ولا تراعي المتغيرات في الواقع المتحول ، الذي يحيط بها . ولذلك لم تنفصل الأصولية المدنية في تياراتها الفكرية المختلفة عن خاصيتها التكوينية الأولى ، في نشأتها المرتبطة بالتأويلات الدينية المتعصبة . وهي الخاصية ، التي انقلبت في الأصوليات المدنية إلى محاولة مستمرة ، لإضفاء طابع القداسة على النصوص ، أو القواعد ، أو الأفكار ، أو الآراء البشرية ، التي يحيلها التعصب إلى ما يشبه الأقوال الدينية ، التي لا تقبل التأويل المغاير ، أو

الاجتهاد المخالف .[1]

-٢-

وُجدت الأصولية في الأديان السماوية الثلاثة : اليهودية ، والمسيحية ، والإسلام . كما وُجدت في الديانات الأرضية كذلك .

ففي اليهودية ، كانت الأصولية مرادفة للأرثوذكسية اليهودية ، التي يستند صدقها الأبدي إلى التلمود والشريعة . وهي لذلك تذهب إلى القول ، بأن «العهد القديم» ليس له سلطة إلا إذا تمَّ تأويله وفقاً للتلمود ، استناداً إلى كلام الباحث المصري في الفلسفة مراد وهبة . وفي رأي وهبة ، أن السلوك القديم لليهود ، بدأ يتوارى مع بزوغ ثلاث قوى بعد عصر التنوير ، كان من شأنها أن هزّت النظام العالمي . وهذه القوى هي : التصنيع ، وتحضير القرى ، والحراك الاجتماعي . وبناءً عليه ، ونتيجة لعصر التنوير ، أصبح المستقبل أهم من الماضي ، والتغيير أهم من الثبات ، والعقل أهم من الإيمان . ويلاحظ وهبة ، أن الأصولية اليهودية ترفض التمثيل ، والتلاقح الثقافي ، وتحيا على رفض التلاقح الثقافي ، وهي بذلك تقترب كثيراً من الأصولية الإسلامية الحالية .

-٣-

ليست الأصولية قاصرة فقط على الدين الإسلامي ، ولا

(١) جابر عصفور ، «الأصولية ومخاطرها في المجتمع» ، جريدة «الأهرام» ، القاهرة ، ٢٠٠٤/٢/٢٣ .

الأصوليون قاصرين على المسلمين فقط . ففي الديانة اليهودية ، هناك أصولية متزمتة جداً ، تُسمى طائفة «السكناج» . والأصولية اليهودية هي الأكثر تطرفاً بين جميع الأصوليات الدينية في التاريخ ، ولها دور سياسي كبير في إسرائيل ، وخارج إسرائيل . وهي التي اغتالت رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق اسحق رابين . ونستطيع أن نقول إنهم الأكثرية في المجتمع الإسرائيلي ، إذ لا يشكل العلمانيون أكثر من ٢٥-٣٠٪ من عدد اليهود ، بينما يشكل التقليديون ٥٠- ٥٥ ٪ ويشكل المتدينون ٢٠٪ . وقد تتبع الباحثان شاحاك ونورتون متسفينسكي جذور الأصولية اليهودية في كتابهما «الأصولية اليهودية في إسرائيل» . واعتبر هذان الباحثان أن الأصولية اليهودية ، هي أكثر الاتجاهات تأثيراً وخطورة في إسرائيل . وأن هذه القضية تعدّ من أكثر القضايا خطورة في إسرائيل .

-٤-

ويقرُّ هذان المؤلفان أن الأصولية في كل الأديان ، ترغب في العودة بالمجتمع إلى الأزمنة القديمة الطيبة ، الخالية من الشرور والآثام الحديثة . وهؤلاء الأصوليون يتشددون في السياسة ، كما يتشددون في الدين . فهم - على سبيل المثال لا الحصر - يعتبرون المستوطنات قلاعاً للأيديولوجية اليهودية ، ويمكن أن تكون نواة للمجتمع الإسرائيلي ، الذي يرغب القادة الأصوليون في بنائه في الضفة الغربية . وتؤيد الغالبية العظمى لأعضاء الكنيست هذا التوجه . ويعتبرون اتفاق أوسلو ، وقيام السلطة الفلسطينية ، كارثة

حلّت بإسرائيل ، وجعلت لزاماً عليهم أن يحاربوا بلا رحمة «الكيان الكنعاني الفلسطيني» الجديد ، وهي النظرة نفسها من جانب الأصولية السياسية الإسلامية تجاه إسرائيل .

-٥-

وترى كارين آرمسترونج الراهبة السابقة ، ومؤلفة كتابي «معارك في سبيل الإله والتاريخ المختصر للإسلام» ، وكتاب «تاريخ الله» الذي يعد واحداً من أفضل الكتب مبيعاً خلال السنوات الماضية ، وهي واحدة من أنجح الباحثين في مجال نشأة الأصولية في الديانات الثلاث : الإسلام ، والمسيحية ، واليهودية . وتعد أبحاثها في هذا المجال مرجعاً رئيسياً وأكاديمياً لا يُستهان به . وتقول آرمسترونج ، إن اليهود كانوا أول من أقبل على التطرف الديني ، لأنهم عانوا أزمة عدم العدالة الاجتماعية ، ووجدوا أن مدنية العصر الحديث هي السبب وراء اضطهادهم ومعاناتهم ، فهم بكل ما يحملونه من خرافات دينية وأساطير ، لم يعودوا مُقنعين لعقلية عصر العلم والتكنولوجيا . ويقول محمد المصري في مقال له عن «الأصولية اليهودية والعنف» ، إن الأصوليين اليهود مع شعورهم بالدونيّة الذي عاصروه على يد المجتمع المتمدين ، الذي يؤمن بالنصرانية الغربية في نهاية القرن الخامس عشر ، دُفعوا إلى ضرورة استخراج مخزونهم من الحيل البارعة ، والمبادئ الدينية ، والخرافات ، والأساطير ، التي تمنعهم من إعادة سلطة الدين في الحصول على حقوقهم المهضومة على يد الغرب المسيحي . ولقد

استمروا في إخراج وتدوير هذا المخزون لسنوات ، حتى أصبح فيما بعد ، حقيقة مقنعة للغرب إلى حد ما ، وممارسات شائعة في العالم الحديث ، واتجاهات نحو المزيد من التطرف الديني ، لإخضاع العقل لسيطرة الدين .

-٦-

ولم تكن الأصولية المسيحية بأكثر انفتاحاً من الأصولية اليهودية . فكما يوجد لدينا في العالم العربي شيوخ نجوم على شاشات الفضائيات ، فللأصولية المسيحية في أمريكا خاصة نجومها اللامعين ، منهم جيري فالويل ، وبات روبرتسون ، وغيرهما كثيرون . فهم كما تقول كارولين فوريست وفياميتا فينير ، مؤلفتا كتاب «العَلْمانية أمام تحديات الأصوليات الثلاث : اليهودية ، والمسيحية ، والإسلامية» ، والذي عرضه هاشم صالح في كتابه «معضلة الأصولية الإسلامية» ، يسيطرون على حوالي ٤٠٠ محطة تلفزيون ، في شتى أنحاء أمريكا . وهؤلاء الأصوليون قريبون جداً من أفكار الأصولية الإسلامية . فهم يُدينون - مثلاً - الإجهاض ، ويرفضون المساواة بين الرجل والمرأة ، ويطالبون بفرض الصلاة المسيحية بشكل إجباري في المدارس ، وبالعمل بالقوانين العنصرية ، والتفريق بين البيض والسود ، ويمنعون الاختلاط بين الجنسين ، ويُدينون ممارسة الإناث للرياضة ، ويمانعون في تدريس نظرية داروين والنظريات العلمية الحديثة المتعلقة بنشأة الكون ، والعالم ، وتفسير التطور ، ويدعون إلى العودة إلى القيم العائلية في القرن التاسع عشر ، وهو

العصر الذهبي برأي زعماء الأصولية الأمريكية كبات روبيرتسون ، وبات بوكانان . وهم يصرون على أن الإنجيل أهم من العلم الحديث . والأصولية المسيحية تكره اليهود ، وتعادي إسرائيل ، كما تفعل الأصولية الإسلامية . وقال بايلي سميث ، القس البروتستانتي الأمريكي ذات مرة : «إن الله لا يقبل صلوات اليهود» . واشتكى بيلي غراهام الزعيم الروحي للتحالف المسيحي الأمريكي ، والقريب من عائلة بوش ، من سيطرة اليهود على وسائل الإعلام الأمريكية .

ولكن هناك فئات مسيحية كثيرة ، تدعم اليهود ، ودولة إسرائيل ، لاعتقادهم أن المسيح سوف يظهر من جديد في فلسطين . وأن المسيح سوف يُفني ثلثي اليهود ، أما الثلث الباقي ، فسوف يعتنق المسيحية ، وبذا يزول اليهود عن وجه الأرض . وهي تقريباً الرؤيا ذاتها ، التي كان يراها الشيخ الراحل أحمد ياسين ، مؤسس «حماس» ، من أن إسرائيل سوف تزول بعد أربعين عاماً من تاريخ إنشاء حماس (١٩٨٨) ؛ أي في عام ٢٠٢٨ . وإنّا لمنتظرون تحقيق رؤيا الأصولية المسيحية الأمريكية ، أو الأصولية الإسلامية الفلسطينية .

-٧-

وكما تكره الأصولية المسيحية الإسلام ، فإن الأصولية الإسلامية تكره المسيحيين كذلك ، وتعدهم كفاراً ، هم واليهود .

وتقول كارين آرمسترونج ، في رصدها لظاهرة بزوغ الأصولية في القرن العشرين ، ووجود قواسم مشتركة بين الأصوليات الثلاث :

الإسلامية ، والمسيحية واليهودية ، إنه : «لم يكن لدى الأصوليين وقتٌ للديمقراطية ، أو التعددية الحزبية ، أو التسامح الديني ، أو الحفاظ على السلام ، أو الخطاب الحر ، أو فصل الكنيسة عن الدولة .» ويقول هاشم صالح في هذا الصدد : «هكذا راحت الأصوليات تهيّج بعضها بعضاً . فأمثال ابن لادن عند اليهود والمسيحيين متوافرون بما فيه الكفاية . وهم يحملون نفس العقلية الخرافية عن العالم . والأصوليات المختلفة تكره بعضها بعضاً . وعدو الأصولية المشترك واحد ، وهو النزعة الإنسانية العَلْمانية ، أو فلسفة التنوير والحداثة ، أو الفلسفة الليبرالية .»[1]

-٨-

ولكن ما سبب صعود الأصولية الإسلامية ، في نهايات القرن العشرين ، وبداية القرن الحادي والعشرين؟

تقول المؤلفتان كارولين فوريست ، وفياميتا فينير لكتاب «العَلْمانية أمام تحديات الأصوليات الثلاث : الإسلامية والمسيحية واليهودية» إن السبب يكمن فيما يلي :

١- تشجيع العقلية الخرافية من قبل الأنظمة العربية .

٢- اعتماد برامج تعليم قديمة وعقيمة .

٣- سيادة النظم الدكتاتورية سواء كانت عسكرية أم حزبية ، أم قبلية .

(١) هاشم صالح ، «معضلة الأصولية الإسلامية» ، ص ١٠٢ .

٤- الفساد المالي والسياسي .

٥- انتشار الفقر والبطالة والأمية .

٦- لا بارقة أمل للشعوب المحبطة .

وهذه العوامل مجتمعة ، أدَّت إلى تنامي الأصولية ، وارتفاع أثرها في العالم العربي خاصة ، رغم أن هذه الأصولية ، تنتمي بعقلها إلى العصر الحديث ، وتستعمل منتجاته كافة لصالحها ، ولصالح انتشارها . ولكن روحها - كما يقول بنيامين باربر في كتابه «الجهاد ضد أمركة العالم» - تنتمي إلى العصور الوسطى ، أو ما قبلها . فهم أناس يحبون ، ويرحبون بالتكنولوجيا الغربية ، ولكنهم يكرهون في الغرب الفلسفة العلمية ، أو التنويرية ، التي أدت إلى هذه التكنولوجيا الحديثة . ولذا ، يلاحظ باربر ، أن هناك انفصاماً عقلياً لدى الأصوليين ، الذين يريدون من الحداثة منتجاتها المادية ، ويرفضون عقلها ، وفلسفتها ، وطريقة الحكم السياسي فيها .

-٩-

أما الأصولية الإسلامية المعاصرة ، فقد بناها أربعة من المفكرين الإسلاميين من العرب ، وغير العرب . فكان من العرب ، سيّد قطب ، وكان من الباكستان أبو الأعلى المودودي ، وهو المنظِّر الأول للأصولية الإسلامية المعاصرة ، وهو من جاء بفكرة «الحاكمية» لله (الحاكم الحقيقي على الأرض هو الله ؛ أي الغيب) التي تبنَّاها فيما بعد تلميذه النجيب سيّد قطب . وكان من إيران الخميني ، وعلي شريعتي .

والأصولية الإسلامية الماضية والمعاصرة ، تدعو إلى إعادة إقامة الخلافة ، مما يعني أن كل حاكم في الأرض يخضع للدستور الإسلامي ، يكون خليفة الحاكم الأعلى . وزاد الخميني - كأصولي- على هذا كله ، بأن جعل الولاية للفقيه فقط ، في كتابه «الحكومة الإسلامية» .

-١٠-

لم توجد الأصولية فقط في الأديان السماوية الثلاث المذكورة آنفاً ، وإنما وُجدت أيضاً في الأديان الأرضية ، وأشهرها ، وأكثرها اتباعاً البوذية ، والكنفوشية ، والسيخية . وأكبر هذه الأديان الثلاث البوذية ، التي انتشرت في الهند ، واليابان ، وسري لانكا ، وتايلاند ، وبورما ، وغيرها . والبوذية تفرَّعت إلى ثلاث فرق : تيرافارا ، وماهايانا ، وفاجرايانا . وكلها فرق ذات نزعات قومية مطلقة ، ومغلقة ، صالحة لكي تكون مستقبلاً ذات مناهج عنيفة ، ودموية .

وهذه الأصوليات جميعها ، تتفق على مزج المُطلق بالنسبي ، والحقيقة الأبدية بالحقيقة العابرة . وتعجز عن التعامل مع الوضع القائم ، لأن خطابها العام خطاب ماضوي .

ومن هنا ، كان عداء الأصولية الإسلامية ، وسائر الأصوليات ، للعَلْمانية ذات التفكير النسبي الذي يعارض الأصولية الدينية ، ولا يعارض الدين . ومن هنا أيضاً ، وُصمت العَلْمانية بالكفر والإلحاد ، رغم أنها لا تنكر الذات الإلهية .

-١١-

وسواء كانت الأصولية الدينية سماوية ، أو أرضية ، فهي ترفض رفضاً باتاً إعمال العقل في النص الديني ، وضرورة قبول النص الديني قبولاً مطلقاً . وقد لحق بالمفكرين الدينيين - ابن رشد مثالاً لا حصراً - الأذى والضرر الكبير ، حين أراد استعمال العقل في قراءة النص الديني ؛ أي النظر في المعنى الباطن للنص الديني ، وهو المجاز في علم البلاغة .

التطرف الأصولي: أسبابه ومراحله

-١-

برز الأصوليون بروزاً واضحاً في المرحلة الثالثة من مراحل طوفان الإرهاب، حسب وصف المستشرق الفرنسي، والمتخصص في شؤون الجماعات الإسلامية فرانسوا بورغا في كتابه «الإسلام السياسي في زمن القاعدة». حيث يؤرخ بورغا لثلاث مراحل من مراحل الأصولية:

١- المرحلة الأولى، وتبدأ من تاريخ تأسيس جماعة الإخوان المسلمين في الإسماعيلية بمصر عام ١٩٢٨، وتمتد هذه المرحلة إلى عام ١٩٥٠ تقريباً. حيث وجدت هذه المرحلة تحديات كثيرة في مصر، وخارج مصر. ففي مصر حاول الإخوان المسلمون بمساعدة شيخ الأزهر مصطفى المراغي، إعادة إحياء الخلافة الإسلامية، التي أطاح بها في تركيا كمال أتاتورك عام ١٩٢٤. ولكن الإخوان فشلوا في محاولاتهم مع الملك فؤاد، ثم مع الملك فاروق. وكان حزب الوفد، وحزب الدستوريين العَلْمانيان، يقفان للإخوان بالمرصاد، ويحولان دون خطف الدولة المصرية العَلْمانية، لتصبح الدولة المصرية الدينية.

٢- المرحلة الثانية ، وتبدأ من فجر الاستقلال العربي ، الذي تمَّ بعضه قبل عام ١٩٥٠ كسوريا ولبنان والأردن ، ويمتد حتى عام ١٩٩٠ . وفيها تعرضت الأصولية للسجن ، والتعذيب ، والقتل ، والطرد من الحلبة . وسادت في هذه الفترة ، وخاصة من ١٩٥٢-١٩٧٠ ، الموجة القومية المناوئة للاستعمار التي قادها عبد الناصر . ولكن بدأ صعود الأصولية من جديد ، في عهد الرئيس السادات (١٩٧٠-١٩٨١) عندما أطلق يد الأصولية في المعاهد التعليمية ، وفي الصحافة ، لكي يقلل من ضغط الناصرية وأتباعها عليه ، ولكي يمهد لطرد الخبراء الروس من مصر ، والانفكاك من المحور السوفيتي ، والاتجاه نحو الغرب وأمريكا بالذات ، حيث كان يعلن أن ٩٩٪ من أوراق اللعبة في الشرق الأوسط بيد أمريكا . كذلك شهدت هذه الفترة انتعاشاً كبيرة للأصولية في الخليج العربي وخاصة في السعودية ، والكويت ، واليمن ، نتيجة لتدفق الإخوان المسلمين الهاربين إليها من مصر وسوريا . وتركت هذه الفترة بصمات واضحة على جيل أسامة بن لادن ، الذي تلقَّن في السبعينات آراء سيّد قطب بفضل شقيقه المدرس بجامعة الملك عبد العزيز بجدة محمد قطب ، والتي بعدها سافر ابن لادن إلى الباكستان وأفغانستان ، لكي يشارك في الحرب ضد الاحتلال السوفيتي لأفغانستان ، تحت الراية الأمريكية .

٣- المرحلة الثالثة ، وتبدأ بعد حرب الخليج ١٩٩١ إلى الآن ٢٠٠٨ . وفي هذه المرحلة تمَّ تشكيل تنظيم «القاعدة» ، وانتقال

ابن لادن من السودان إلى الباكستان ، ثم إلى أفغانستان عام ١٩٩٦ . وفي هذه المرحلة ، قام تنظيم «القاعدة» ، بعدة تفجيرات في الرياض عام ١٩٩٥ ، والخبر عام ١٩٩٦ ، وتفجير سفارتي أمريكا في كينيا وتنزانيا عام ١٩٩٨ ، ثم التفجير الأكبر لبرجي نيويورك ٢٠٠١ . ويقول فرانسوا بورغا عن هذه المرحلة بأنها المرحلة «التي ترسّخ نوعاً من النقلة في المشهد العالمي ، أو بالأحرى عودة إلى الدولي لحركات الكفاح المعارضة في الوطن العربي .»(١)

-٢-

ويلاحظ فرانسوا بورغا ، أن العلاقة المشتركة بين الأزمنة الثلاثة هذه(وطني وإقليمي وعالمي) هي أنها وسّعت تدريجياً هوّة سوء التفاهم بين ملايين المواطنين ، في منطقة كاملة من العالم ، والذين يَعدُّون أنفسهم ضحيتها من جهة ، ومن جهة أخرى ائتلاف المستفيدين منها على المستوى العالمي ، أو الإقليمي ، أو ضمن مختلف المناصب الوطنية : الإدارة الأمريكية وحلفاؤها الإيديولوجيون المحافظون الجدد ، ثم الدولة العبرية ، التي يدعمها بقوة رأيها العام وقدرتها القوية على الاتصالات ، ثم النخب الحاكمة العربية ، المجردة غالباً من أي دعم شعبي . هذا الإخفاق

(١) فرانسوا بورغا ، مصدر سابق ، ص ٥٩ .

المتكامل للضبط السياسي لتوترات العالم ، هو الذي ساهم إلى حد ما في بداية التسعينات في فتح علبة الباندورا (علبة الشرور في الأساطير اليونانية) للراديكالية الإسلامية .[1]

(١) فرانسوا بورغا ، مصدر سابق ، ص ٦١ .

مصر «أم الدنيا» وأم الأصولية

-١-

يتعولم العالم الآن بسرعة .

العالم الآن ، يصبح شيئاً فشيئاً سوقاً واحدة ، وهوية واحدة ، وجزيرة واحدة ، وسفينة واحدة ، إذا خرق ديكتاتور ما جزءاً منها ، هدد العالم كله بالغرق والموت . وهو ما شاهدناه في عهد هتلر ، وموسوليني ، وستالين ، وصدام حسين وغيرهم .

فعصر الدولة القومية ، والهوية النقية ، والعقيدة الخصوصية ، يتعرض اليوم لطوفان كبير وغالب ، هو العولمة ، التي تريد وحدة العالم ، لا وحدة أقطار معينة فقط . وتريد هوية عالمية واحدة ، لا هويات إقليمية متعصبة ، ومحاربة لبعضها بعضاً . والأصوليون ، يسعون الآن إلى «الاستقلال الحضاري» المزيف والمتخيّل ، وتدمير الحضارة التنويرية الأخرى ، التي أطلق عليها الأصوليون «جاهلية القرن العشرين» ، وسعى أبو الأعلى المودودي ، وأبو الحسن الندوي ، وسيّد ، ومحمد قطب ، وأيمن الظواهري ، والغرير ابن لادن ، لتقويضها ، ومحاربتها ، وتهديدها ، بأنها سترى ما لا تسمعه ، كما قال ابن لادن في خطابه ، في مطلع هذا العام ٢٠٠٨ .

-٢-

تتمسك الأصولية بخطاب سياسي صوفي متخيّل . وتنشر خطابها الديني الشعبوي في الأرياف والأطراف والطبقات الفقيرة الأميّة (بلغ عدد الأميين - حسب آخر تقارير الأمم المتحدة - في العالم العربي ١١٠ ملايين أمّي من النساء والرجال) . وتمزج هذا الخطاب بالخرافات ، والأساطير ، والشعوذات ، وتقديس الزعماء ، والقادة ، ورجال الدين .

وفي مصر بالذات ، بدأت الأصولية بالتأسيس لما أُسميه «الكنسسة الدينية» . أي إقامة كنيسة دينية متمثلة بالأزهر ورجاله ، الذين يلبسون لباساً كهنوتياً خاصاً . ولديهم تراتبية دينية ، ليست بالضرورة على غرار التراتبية المسيحية ، أو التراتبية الشيعية ، ولكنها تقترب منها .

-٣-

ومن مصر ، انتشر زي رجال الدين الخاص بالعمّة والقفطان . . الخ ، في كل العالم العربي ، ما عدا دول الخليج ، التي يلبس فيها رجل الدين كما يلبس الآخرون . والخطاب الديني الشعبوي الذي تنشره الأصولية - وخاصة المصرية - لصيق بالخطاب السياسي الشعبوي القائم على الخرافات ، والأساطير ، وتخيل المؤامرات ، والدسائس . وقد أدى كل هذا إلى نوع من (الهمبكة) الدينية ، ثم (الهمبكة) السياسية . فانتشر في كثير من أنحاء العالم العربي - وخاصة مصر - ما يعرف بالصوفية الشعبية ، التي تسلك «درب

المهابيل» ، والتي تقيم الكرنفالات الدينية في الموالد والأعياد والمناسبات الأخرى . وتتعبد عند أعتاب الأسياد أصحاب الكرامات ، وهم في الواقع أصحاب خرافات وليست كرامات ، وليس لهم أية مساهمة في الفكر الديني المحض .

-٤-

وهؤلاء كانوا سبباً ومثالاً في إقامة معابد للزعماء السياسيين حتى قبل موتهم . بل هم ألّهوا هؤلاء الزعماء ، بحيث لا يُسألون عما يفعلون (لم يُحاكم عبد الناصر على ما فعله عام ١٩٦٧ ، والشيخ متولي الشعراوي أيام كان وزيراً للأوقاف ، قال للرئيس السادات ، في مجلس الشعب ١٩٧٦ ، والله لو استطعت أن أقول لك ، إنك لا تُسأل عما تفعل لقلتها لك ، والشيخ الشعراوي في الواقع قالها ، وإن لم ينطقها) . وكانت نتيجة تغلغل الأصولية في مصر على هذا النحو ، انطلاق الإرهاب والعنف الديني ، في سائر أنحاء العالم العربي من مصر .

-٥-

فالإخوان المسلمون انطلقوا من مصر ، منذ ١٩٢٨ ، وانتشروا في أنحاء العالم العربي كافة .

والفكر الإرهابي وفكر العنف ، انطلق من مصر (سيّد ومحمد قطب اللذان يُعدّان الثديين المدرارين لفكر الإرهاب بكتابيهما : «معالم في الطريق» ، و«جاهلية القرن العشرين») .

والتنظيم السري للإخوان المسلمين الذي كان هو الآخر، مرضعة الجماعات الإسلامية الإرهابية التي اغتالت السادات ١٩٨١، وحاولت اغتيال الرئيس مبارك في أديس أبابا عام ١٩٩٦، انطلق من مصر.

والجماعات الإسلاموية التي خرجت من عباءة الإخوان المسلمين («التكفير والهجرة» و«الجهاد الإسلامي» في مصر، و«حزب العدالة والتنمية» و «جمعية العدل والإحسان» في المغرب، و«حزب التجمع والإصلاح» في اليمن، بقيادة عبد المجيد الزنداني، وغيرهم) انطلقت من مصر.

والأصوليون المحيطون بالغرير ابن لادن، والذين يخططون له، ويساعدونه على حرق العالم، وتدمير الحضارة الإنسانية، وعلى رأسهم أيمن الظواهري مصريون.

و(الهمبكة) الدينية المتمثلة بالصوفية الشعبوية، ومظاهرها، وكرنفالاتها، ومسيراتها، ولباسها، وأفكارها، وشعوذاتها، انطلقت من مصر، التي تضم رفات زعماء الصوفية الشعبوية الخرافية.

و(الهمبكة) السياسية المتمثلة بمقولة «الشعب هو المعلم»، التي كان يرددها عبد الناصر في خطبه الحماسية، وأن كل خطوة تريدها الجماهير - لا ما تحتاج إليها- هي خطوات ثورية مُستجابة، انطلقت من مصر، ومن حقبة عبد الناصر بالتحديد.

وكما كانت مصر «أُم الدنيا» كما يردد العامة، فقد كانت «أُم الأصولية» أيضاً كما يردد الخاصة.

دور الإخوان المسلمين في تعاظم الأصولية

-١-

عندما تأسست جماعة الإخوان المسلمين في مصر عام ١٩٢٨، كانت مصر قبل هذا التاريخ، وبعده، تعجُّ بالفكر الليبرالي المصري والفكر الليبرالي الشامي الذي جاء لاجئاً إليها، وهارباً من الاضطهاد العثماني، ثم من الاستعمار الفرنسي، وملاحقته للمثقفين القوميين، الذين كانوا يطالبون بالاستقلال والحرية. وكان الفكر الليبرالي يتمثل قبل ١٩٢٨، وبعد هذا التاريخ بفرح أنطون، وشبلي شميّل، وعلي عبد الرازق، وطه حسين، وقاسم أمين، وعبد العزيز فهمي، وإسماعيل أدهم، وإسماعيل مظهر، ومحمد حسين هيكل، وغيرهم. وكان هؤلاء كافة يؤمنون بالعَلْمانية، وفصل الدين عن الدولة، الذي قال به الشيخ علي عبد الرازق في كتابه المشهور «الإسلام وأصول الحكم» عام ١٩٢٥. كما كان كل هؤلاء يؤمنون بمساواة المرأة بالرجل بالحقوق والواجبات، وبالديمقراطية، والحرية السياسية، والاجتماعية، والثقافية. ومعظم هؤلاء إما أنهم درسوا في الغرب، أو اطلعوا على الثقافة الغربية وقرأوها. وهؤلاء جميعاً اغتبطوا لسقوط الخلافة الإسلامية في

تركيا ١٩٢٨ . بينما واجه شيوخ الأزهر هذا الحدث بغضب شديد ، وممانعة قوية ، فكتبوا الكتب والمقالات ، وكان من أشهر هذه الكتب كتاب مصطفى صبري الوكادي آخر مفتي للديار العثمانية الذي أصدر كتاباً بعنوان «النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والأمة» . وأصدر الشيخ رشيد رضا كتاباً آخر ، بعنوان «الخلافة أو الإمامة العظمى» .

-٢-

وعندما جاء الإخوان المسلمون ، وجدوا هذا السد الكبير من الفكر والثقافة الغربية أمامهم . وكان عليهم أن يستعينوا بالسلطة السياسية لمواجهة هذا المد الفكري والثقافي التغريبي . فأوحوا إلى الملك فؤاد ، بإمكانية بعث الخلافة الإسلامية من جديد على يديه ، وتنصيبه خليفة على المسلمين ، باعتبار أن مصر أكبر بلد عربي ، وأكثر بلد عربي يضم عدداً من شيوخ الأزهر ، وعلماء الدين . واقتنع الملك فؤاد بذلك ، واتصل بالشيخ مصطفى المراغي الذي أيّد الفكرة ، ودعا إليها ، ولكن كتاب علي عبد الرازق «الإسلام وأصول الحكم» ، الذي نفى فيه وجود دولة دينية في الإسلام ، كان العقبة الكأداء في وجه هذا المشروع .

-٣-

وكرر الإخوان المسلمون المحاولة مرة أخرى ١٩٣٧ ، لتتويج الملك فاروق في الأزهر بمساعدة شيخ الأزهر الشيخ المراغي وعلي ماهر

باشا ، وإعلان تنصيبه خليفة للمسلمين ، مستغلين حبّ الشعب المصري الجارف للملك الشاب ، ولكن حزب الوفد العَلْماني ، كان قوياً في تلك الفترة ، مما مكّنه من وقف ذلك ، وعدم تنفيذه . وكان الإخوان المسلمون يطمعون من وراء ذلك في الوصول إلى السلطة أولاً ، عن طريق الخليفة الجديد فاروق بن أحمد فؤاد ، ومحاربة الأفكار والقيم الغربية كالحداثة ، التي بدأت تنتشر في مصر سياسياً ، وثقافياً ، وعلمياً . وهو ما يذكرنا بالمسيحية السياسية التي انتشرت في أوروبا ، كرد فعل على الحداثة هناك .

-٤-

قام الإخوان المسلمون ، بإقناع الملك فاروق بإلغاء الأحزاب ، التي كانت عنوان الديمقراطية المصرية ، حيث لا ديمقراطية بدون أحزاب . والإبقاء على حزب واحد وهو حزب الله أي حزبهم فقط . ومصادرة كل الصحف والمجلات الموجودة في الأسواق ، ومنع الخلاعة في السينما والمسرح والإذاعة ، وإعادة رجال الحسبة (هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) لمراقبة الناس ، وحثهم على أداء الصلاة ، وتطبيق الأحكام الشرعية . كما دعوا الملك فاروق إلى وجوب تطبيق الشريعة والحدود الشرعية ، ومنع الاختلاط في المدارس والعمل ، وجعل مواقيت العمل تتفق مع مواعيد الصلاة ، والوقوف في وجه تحديث مصر ، الذي بدأه جده محمد علي باشا والخديوي إسماعيل . وكأن الإخوان اقتنعوا بالإستراتيجية الأصولية المعروفة ، وهي أن الطريق لإقامة الدولة الإسلامية والخلافة

الإسلامية ، تبدأ بأسلمة المجتمع أولاً ، بمثل هذه الخطوات . وهذا ما يعملون عليه منذ ثمانين عاماً حتى الآن ، ولكن يبدو أن طوفان الحداثة الغربية الغامر ، الذي أصاب أطرافاً من العالم العربي ، لم يسمح لهم حتى الآن بتحقيق هدفهم ، الذي كان سياسياً بالدرجة الأولى ، ويستعمل الدين كمطية للوصول إلى كرسي الحكم . ولا ننسى أن حسن البنا - كوسيلة للوصول إلى كرسي الحكم - كان قد رشّح نفسه للانتخابات النيابية عام ١٩٤٢ ، وبدعم من القصر الملكي ، الذي كان يكره حزب الوفد ، ويميل إلى الإخوان المسلمين ، الذين كانوا حلفاء أوفياء للقصر ، وكانوا يطلقون على الديوان الملكي «الديوان الإسلامي» . ولكن مصطفى النحاس ، أقنع البنا بالتراجع عن خوض الانتخابات ، مقابل صفقة سياسية بين حزب الوفد وجماعة الإخوان المسلمين ، نال فيها الإخوان ، ما كانوا يطلبون .

-٥-

يُحمّل معظم الباحثين الغربيين في شؤون الجماعات الأصولية (الإسلام السياسي) في العالم العربي الإخوان المسلمين مسؤولية تصاعد وتيرة الأصولية إلى الحد الذي نشاهده هذه الأيام ونحن في هذا العام ٢٠٠٩ . فحيث تتمركز الأصولية في السعودية واليمن ، يرى فرانسوا بورغا الباحث الفرنسي ، الذي خَبُرَ هذه المنطقة جيداً ، وأقام فيها سنوات طويلة ، أن الإخوان المسلمين المصريين في اليمن ، والذين هربوا من ملاحقات نظام عبد الناصر القمعي لهم ، لعبوا دوراً مهماً في اشتداد عضد الأصولية فيها . فهم قد جاءوا إلى

اليمن وعملوا في التعليم والتدريس . وذهبوا بأعداد كبيرة إلى الجزائر عام ١٩٧٣ ، ليساهموا في خطة تعريب التعليم العالي ، ونفذوا منها إلى المناهج التعليمية وإلى الإعلام ، وإلى الالتقاء بجموع الناس في المساجد والمناسبات الدينية . وتعدّ حركة «مجتمع السلم» ، أحد أحزاب التحالف الرئاسي في الجزائر ، أكثر الأحزاب الجزائرية تأثراً بالإخوان المسلمين . وقد تأسست هذه الحركة سنة ١٩٩٠ بزعامة الشيخ محفوظ نحناح ، تحت اسم «حركة المجتمع الإسلامي» (حماس) . وشارك الحزب في جميع الاستحقاقات السياسية ، التي جرت في البلاد . ولها حوالي أربعين نائباً ، و ثلاثة وزراء . والسبب في تسمية الحركة «مجتمع السلم» وليس «مجتمع المسلم» ، هو أنه بعد الانفراج السياسي والتعددية في الجزائر ، تأسست «حركة المجتمع الإسلامي» (حماس) وشاركت في الانتخابات البلدية والتشريعية وحتى الرئاسية ، حيث نافس مرشحها ورئيسها محفوظ نحناح ، الرئيس عبد العزيز بوتفليقة . وبعد إلغاء نتائج الانتخابات التشريعية ١٩٩٢ وما بعدها ، وضعت الدولة الجزائرية قانوناً جديداً للأحزاب ، يقضي بعدم احتواء اسم أي حزب على كلمة إسلامي أو إسلام ، لأن الإسلام هو الدين الرسمي للدولة ، ولا يجوز أن يُقْحَم في التجاذبات السياسية . فغيّرت الحركة اسمها من «حركة المجتمع الإسلامي» ، إلى «حركة مجتمع السلم» .

-٦-

كذلك كان الحال بالنسبة للسعودية . ففي السعودية ، اندسَّ الإخوان المسلمون في سلك التربية والتعليم ، وأصبح جزء منهم مشرفين على وضع المناهج الدراسية ، وقرروا بعض كتب سيّد قطب ككتب نصوص مدرسية ، مثل كتابه الخطير «معالم في الطريق» ، ١٩٦٤ ، الذي كان يرمي المجتمع الحديث بالجاهلية . وأطلق في كتابه مقولة «جاهلية القرن العشرين» ، ثم جاء شقيقه محمد قطب ، الذي كان مدرساً في جامعة الملك عبد العزيز بجده ، وألّف كتاباً بعنوان «جاهلية القرن العشرين» في ١٩٩٢ ، وكان امتداداً وتعميقاً لما كتبه سيّد قطب في كتابه «معالم في الطريق» . كما قامت دور النشر السعودية[١] ، بترجمة ونشر بعض كتب أبي الأعلى المودودي (الأب الروحي لسيّد قطب) ، ومنها كتابه المهم ، وباعث نظرية «الحاكمية» التي تبناها سيّد قطب (الحكومة الإسلامية) ، وكتاب (مبادئ أساسية لفهم القرآن) ، وكتاب (نظرية الإسلام وهديه في السياسة والقانون والدستور) ، وكتاب (نحن

---

(١) منها «الدار السعودية للنشر والتوزيع» بجدة ، ومؤسسها محمد صلاح الدين الدندراوي ، وهو ناشط مصري في الأخوان المسلمين ، لجأ إلى السعودية ، ونال جنسيتها . وكان معه كشركاء الأخوان اليمنيان إبراهيم ومحمد الوزير ، وكانا ذوي توجه إسلامي محافظ ، هاجرا إلى السعودية ، بعد قيام الثورة اليمنية ١٩٦٢ . ولكن إبراهيم الوزير وهو باحث إسلامي أقام في أمريكا ، وبقي محمد الوزير في جدة ، يشرف على أعمال دار النشر السعودية ، بعد أن خرج منها محمد صلاح الدين .

والحضارة الغربية) ، وكتاب (نظام الحياة في الإسلام) ، وكتاب (تفسير سورة النور) ، وكتاب (السُنَّة ومكانتها في التشريع الإسلامي) ، وكتاب (أُسس الاقتصاد بين الإسلام والنظم المعاصرة ومعضلات الاقتصاد وحلها في الإسلام) وغيرها . وكذلك نشر كتب سيّد قطب كافة ، وبعض كتب محمد قطب ، ويوسف القرضاوي (المرجعية الفقهية العليا للإخوان المسلمين) . وكانت هذه الدار بمثابة دار نشر رسمية للإخوان المسلمين في السعودية ، تنشر كتبهم ، وفكرهم ، وأدبياتهم ، وكتب ، وفكر ، من يعاضدونهم ، كما هي عليه «دار الشروق» في القاهرة .

-٧-

كما تغلغل كُتّاب الإخوان المسلمين ، الذين هاجروا في الخمسينات والستينات إلى السعودية في الإعلام ، وراحوا يكتبون في الصحافة السعودية بكثافة ، وخاصة في جريدة «المدينة المنوّرة» ، التي كانت تصدر في المدينة المنوّرة ، ثم انتقلت إلى جده .[1] كما سيطر الإخوان على الصفحات والملاحق الدينية . وكان رئيس وزراء سوريا الأسبق (معروف الدواليبي) يكتب فيها

(١) كان أصحابها ، أولاد عثمان وعلي حافظ (المؤسسان) ، وهما : محمد وهشام حافظ - وكانا من الإخوان المسلمين - وهما اللذان أسسا جريدة «الشرق الأوسط» اللندنية ، ثم باعاها للأمير سلمان بن عبد العزيز وأولاده ، وهم مالكوها الآن . وكان من بين أبرز كتابها محمد صلاح الدين ، الناشط الإخواني المعروف .

بعض الأحيان . وكان الدواليبي من زعماء الإخوان المسلمين في سوريا ، وكان من المثقفين والدارسين للقانون في فرنسا ، وله مؤلفات إسلامية منها (الحركة التشريعية في الإسلام) ، و(مدخل إلى علم أصول الفقه الإسلامي) . ولجأ إلى السعودية عام ١٩٦٣ ، بعد انقلاب حزب البعث ، وعمل مستشاراً في الديون الملكي السعودي ، منذ عام ١٩٦٥ .

مظاهر الأصولية المعاصرة

-١-

كانت أهم مظاهر الأصولية ، بروز مجموعة من الشباب المصريين الذين قرأوا عدداً قليلاً من الكتب السلفية الدينية ، وأصبحوا دعاة دينيين ، ثم أصبحوا من أصحاب الملايين (قالت مجلة «فوربس» إن أحدهم بلغ دخله السنوي حوالي اثنين ونصف مليون دولار ، ويتقاضي حوالي ٤٠ ألف دولار في دول الخليج مقابل إحياء ليلة دينية دعوية ، وهو ضعف أجر الراقصة أو المغنية الشهيرة) ونجوماً تتخاطفهم الفضائيات ، وهم لم يدرسوا الفقه الإسلامي ، ولا الشريعة الإسلامية ، ولم يتخرّجوا من المعاهد الدينية المتخصصة كالأزهر وغيره . ولا تعترف بهم (الفيفا) الأزهرية ، كما قال الشيخ خالد الجندي . وهذه في الواقع علامة من علامات الانحطاط الثقافي ، التي تجتاح الأمة العربية منذ فجر الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ إلى الآن .

وأما المظهر الثاني والدال على عصر الانحطاط الشديد ، فهو الفترة الممتدة من مطلع القرن الحادي والعشرين إلى يومنا هذا ، والتي شهدت صدور أكبر عدد من الفتاوى الدينية ، إلى درجة أن

الأزهر أنشأ خطاً تلفونياً ساخناً لتقديم الفتاوى ، وقامت مؤسسة «إسلام اليوم» ، بإنشاء قناة فضائية متخصصة للفتاوى برئاسة الشيخ السلفي السعودي سلمان العودة .

-٢-

وظاهرة ازدياد عدد الشيوخ الذين يفتون ممن يفقهون ، وممن لا يفقهون ، وزيادة عدد السائلين من طالبي الإفتاء على هذا النحو الكبير ، دليل واضح جداً على عصر الانحطاط الثقافي ، الذي نعيشه هذه الأيام ، وذلك للأسباب التالية :

١- زيادة نفوذ الأصولية الدينية ، صاحبة الحق الوحيدة في الإفتاء ، وتصدُّرها للإجابة على كل ما يعتري الإنسان العربي من مشاكل اجتماعية ، وسياسية ، واقتصادية ، وثقافية ، ودينية . وهو ما يشير إلى تزايد نفوذ رجال الدين في المجتمعات والدول . ومن هنا ، حرص كمال أتاتورك على تخليص المجتمع ، والدولة التركية ، من سيطرة رجال الدين في مشروعه الكبير لبناء الدولة العصرية . واعتبر أن إنهاء سيطرة رجال الدين على الدولة ، هي أولى الخطوات المهمة ، لبناء الدولة العصرية . لذا ، قام بإلغاء منصب «شيخ الإسلام» ، وإغلاق المدارس الدينية ، وإلغاء وزارة الأوقاف ، التي كانت تكية كبرى من تكايا رجال الدين ، ومنع المظاهر الدينية في الشوارع والمدارس ، وخاصة الطرق الصوفية ودراويشها .

٢- أصبحت الأصولية الدينية في العالم العربي ، هي المصدر الوحيد للمعرفة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية والدينية . وتغلّب الفقهاء على العَلْماء والخبراء . وهذا يذكرنا بما كان عليه الحال في القرون الوسطى بالنسبة لرجال الدين المسيحي . ففي العصور الوسطى ، كان الفاتيكان يملك - اعتماداً على حق الوصاية الدينية - كامل الأراضي التي تشغلها الدول التي تدين بالمذهب الكاثوليكي ، وهو ما يعني معظم القارة الأوروبية . ولم يقتصر احتكار الفاتيكان على مُلكية الأرض ، بل ادّعى امتلاكه لمملكة السماء . وأخذ يبيع أراضي في الجنة ، للملوك ، والأباطرة ، وكل من يدفع المال ، تحت مُسمى صكوك الغفران .

وكان الملوك يستمدون شرعيتهم في الحكم من التفويض الإلهي . وكان بابا الفاتيكان هو الذي يتوّج الملوك . وامتدت سيطرة رجال الدين ، لتشمل كل نواحي الحياة ، مما تسبب في إعاقة التطور كل مناحي الحياة . وهذا ما حاول رجال الأزهر عمله ، برئاسة شيخ الأزهر ، في الثلاثينيات ، الشيخ المراغي ، حين طلبوا تتويج الملك فاروق في الجامع الأزهر ، بدلاً من مجلس الأمة ، إلا أن النحاس باشا العَلْماني رفض ذلك ، وأصرَّ على تتويج الملك فاروق في مجلس الأمة .

٣- إن زيادة أعداد السائلين ، من طالبي الفتاوى الدينية ، ينمُّ بما لا يدع مجالاً للشك ، عن انحطاط مستوى وعي العربي العام بشؤون حياته . ويدلُّ على أن غالبية العرب ، لا تستطيع أن

تسلك طريق الحياة إلا بقيادة وإرشاد رجل الدين الذي نصّب نفسه وسيطاً بين الله وعباده . وكأن المواطن العربي السائل للفتوى ، أصبح كالأعمى ، لا يقوده إلا بصير ديني . وبذا ، أعاد العرب إلى رجال الدين أهميتهم القصوى ، التي كانت لديهم في المسيحية ، قبل عصر التنوير الأوروبي ، وفصل الكنيسة عن الدولة .

ففي موقع ديني واحد فقط على الانترنت ، نقرأ الأخبار التالية :

- الأزهر يحوّل فتوى «توريث جمال مبارك» الحكم ، لأعلى هيئة فقهية .
- عالم سعودي يكفِّر الداعية عمرو خالد ، لأنه أنكر تكفير إبليس .
- عالم سعودي يعلن تراجعه عن تكفير عمرو خالد .
- فتاوى سعودية ، تعتبر مسابقات ملكات جمال الإبل (مزايين الإبل) من المنكرات .
- جمال البنا (ليس شيخاً أزهرياً) ، يُفتي بتحليل القبلات بين الشباب والفتيات ، ثم يتراجع عن فتواه .
- مفتي سوريا - أحمد الحسّون - يفتي بوجوب المشاركة بالقمة العربية ، كفرض عين ، ومن يتخلف فهو آثم .
- وزير مصري ، يطلب فتوى بتحريم إطعام الطيور بالخبز المدعوم .
- قارىء يسأل : هل يحلُّ لي إيقاظ زوجتي من نومها لنكاحها؟
- قارئة تسأل : هل مصُّ عضو الرجل الذكري حلال أم حرام؟

-٣-

وتمتد القائمة إلى ما لا نهاية . والمفيد من هذه القائمة :

١- أن الفتاوى الدينية تراوحت ما بين السياسي والاجتماعي والجنسي ، وهناك طلب فتاوى أخرى لم نذكرها في الجانب الاقتصادي ، والفلكي ، والتاريخي . وفي رمضان يكثر طلب الفتاوى وخاصة حول السلوكيات الجنسية ، وحول حكم الشرع في أكل القطايف والمهلبية والسحلب ، بدل التمر المبارك . . الخ . وهو دليل كبير على شلل العقل العربي ، وعدم قدرة الإنسان العربي على سبر أغوار الحياة ومسالكها ، دون قيادة وإرشاد من رجل الدين .

٢- أن سلطة رجال الدين المتعاظمة في المجالات كافة التي نراها الآن ، ليست متأتية من قوة ثقافة ومعرفة رجال الدين ، بقدر ما هي متأتية من ضعف وهشاشة وجهل الشخصية العربية (يوجد مائة مليون أمي في العالم العربي) التي كبُرت سناً وصغُرت عقلاً ، ولم تعد تقوى على اتخاذ قرار صغير ، في حياتها ، دون الحصول على الضوء الأخضر من رجال الدين . وهو ما يذكرنا بحال الأوروبيين في القرنين السادس عشر والسابع عشر للميلاد . كما ينطبق عليه صدق القول ، بأن العرب في القرن الحادي والعشرين لا يزالون يعيشون في القرون الوسطى . مظاهر وأجسام القرن الحادي والعشرين ، وعقليات القرون الوسطى .

الأصولية أزمة فكرية ثقافية في معظمها

-١-

منذ كارثة ٢٠٠١/٩/١١ ، وبروز الأصولية على النحو الذي رأيناه ونراه الآن ، تكالبت التفسيرات العربية والغربية لمعرفة سبب هذا البروز .

فمنهم من قال ، إن التعليم الديني المحفّز على كراهية الآخر ، هو السبب وراء هذه الظاهرة المنتشرة كالوباء . ولكن جاء من ينفي ذلك بالأرقام ، والحقائق العلمية . وزاد الطين بلّة أن من شكّك في حقيقة أن وراء إرهاب الأصولية هو التعليم الديني كان غربياً وأمريكياً بالذات ، وهو بيتر بيرجن (زميل في «مؤسسة أمريكا الجديدة») وسواتي بانيد (باحثة مشاركة في المؤسسة نفسها) ، اللذان يقولان : للتأكد من مدى إسهام المدارس الدينية التقليدية في تفريخ الإرهابيين ، قمنا بدراسة المسار الدراسي لخمسة وسبعين إرهابياً ، من الذين نفّذوا أهم الهجمات الإرهابية ضد الغرب .

وقد وجدنا ، أن معظم هؤلاء ، حصلوا على شهادات جامعية ، خصوصاً في المواد التقنية كالهندسة . وفي الهجمات الأربع التي نتوفر فيها على معلومات وافية عن المستويات الدراسية لمنفذي تلك

العمليات ، وهي على التوالي : تفجير مركز التجارة العالمي في ١٩٩٣ ، والاعتداءات على السفارتين الأميركيتين في كينيا وتنزانيا في ١٩٩٨ ، وهجمات ١١ سبتمبر ٢٠٠١ ، ثم تفجيرات بالي ٢٠٠٢ ، وجدنا أن ٥٣ ٪ من الإرهابيين ، قد درسوا في الجامعة ، أو حصلوا منها على شهادات . ويذكر أن ٥٢٪ فقط من الأمريكيين يلتحقون بالجامعات . وهو ما يدفعنا للاعتقاد ، بأن هؤلاء الإرهابيين ، الذين شملتهم الدراسة لا يقلون في المتوسط عن العديد من الأمريكيين ، فيما يخُص المستوى الدراسي .

-٢-

وفي البحث الذي نشرته «نيويورك تايمز» في ٢٠٠٥/٧/٢ ، ونشره بعد ذلك (المركز الدولي لدراسات أمريكا والغرب) تحت عنوان (أسطورة المدارس الدينية العتيقة) قال هذان الباحثان :

إذا نظرنا عن كثب إلى الهجمات الإرهابية ، سنجد أن جميع الإرهابيين الضالعين في تفجير مركز التجارة العالمي في ١٩٩٣ حصلوا على شهادات جامعية . كما أن جميع الطيارين الذين شاركوا في هجمات ١١ سبتمبر بالإضافة إلى المخططين الآخرين ، الذين كشفت عنهم لجان التحقيق في تلك الأحداث ، تخرَّجوا من الجامعات الغربية ، وهو مسعى لا تسلكه إلا النُخب في الشرق الأوسط . والأكثر من ذلك تُفاجئنا التحقيقات ، بأن محمد عطا ، وهو الطيار الرئيس المسئول عن هجمات ١١ سبتمبر ، حاصل على شهادة من جامعة ألمانية في تخصص الصيانة المدنية . بينما سبق

لخالد الشيخ ، مخطط عمليات ١١ سبتمبر أن درس الهندسة في جامعة كارولينا الشمالية . وزادت دهشتنا أكثر ، عندما اكتشفنا أن ثلثي الإرهابيين ، الذين قاموا باختطاف الطائرات في ١١ سبتمبر وتفجيرها ، سبق وأن التحقوا بالجامعات .

-٣-

ومن ضمن ٧٥ إرهابياً خضعوا للدراسة ، التي شملت مسارهم الدراسي لم نعثر سوى على تسعة إرهابيين ممن درسوا في المدارس الدينية ، وهم لم يشاركوا إلا في عملية واحدة نُفذت في بالي . ولن نندهش ، إذا عرفنا ، أنه حتى هذا الاعتداء ، كان وراءه مخططون حصلوا على شهادات جامعية ، بمن فيهم محاضران في الجامعة .

وربما يرجع سبب الركون ، إلى تلك الفرضية القائلة ، إن المدارس الدينية تُشكِّل حاضنات لتفريخ أجيال من الإرهابيين ، إلى تلك الفكرة الخادعة والمخدرة ، عن أن من ينفذون تلك العمليات ضدنا هم أناس جهلة ، لا يفكرون ، وليسوا من خريجي جامعات ، كما هو عليه الحال في أغلب الأحيان . والأكثر من ذلك ، كشفت الدراسة أن اثنين منهم حصلوا على شهادة الدكتوراه من جامعات غربية ، واثنين آخرين كانا في طريقهما للحصول عليها . إلى ذلك يجدر الذكر ، أن هذه الفرضية تشبه تلك التي تفيد بأن الفقر هو المسئول عن الإرهاب ، وهو ما أثبتت الدراسات عدم صحته .

-٤-

وقد أثارت دراسة موّلها البنك الدولي ، ونُشرت مؤخراً ، المزيد من الشكوك حول التأثير الفعلي للمدارس الدينية في باكستان ، وهو البلد الذي يُعتقد أن المدارس الدينية ، تلعب فيه دوراً كبيراً ، في تأجيج المشاعر المعادية للولايات المتحدة . وقد كشفت هذه الدراسة ، أن عدد الطلبة المنتسبين إلى المدارس الدينية لا يتعدى ١٪ ، وذلك عكس ما أظهر تقرير لجنة التحقيق ، في أحداث ١١ سبتمبر ، بالإضافة إلى صحف عديدة من أن ١٠٪ من الطلبة في باكستان ، يدرسون في تلك المدارس . وإذا كانت هذه النسبة صحيحة ، فإن ذلك يعني أن عدد الطلبة الأمريكيين الذين يفضل آباؤهم تدريسهم في المنازل ، هم أكثر من عدد الطلبة الباكستانيين الذين يرسلهم آباؤهم إلى المدارس الدينية .

-٥-

وفي دراسة صدرت حديثاً ، قام بها كلٌ من جون إسبيزيتو ، الباحث في «المركز الإسلامي المسيحي» ، بجامعة جورج تاون بواشنطن العاصمة ، وداليا مجاهد ، مديرة «مركز جالوب للدراسات الإسلامية» ، وكانت هذه الدراسة عبارة عن مسح استقصائي بين الأغلبية الصامتة المسلمة ، في أنحاء متفرقة من العالم العربي والإسلامي ، بدل أن يبقى الرأي العام العالمي مرهوناً لآراء المتطرفين والمتشددين الدينيين من الأصوليين وغيرهم ، وخلُصا إلى نتائج تنفي النظرة السائدة المتطرفة ، إلى العلاقة بين العالم العربي

والإسلامي وبين أمريكا . وقد امتدت هذه الدراسة الاستقصائية لست سنوات ، قام خلالها الباحثان بعمل متواصل طال أكثر من ٥٠ ألف مستجوب ، يتوزعون على ٣٥ بلداً ، تقطنها غالبية سكانية مسلمة ، أو تتوفر على أعداد كبيرة من المسلمين . ويُعدّ استطلاع الرأي هذا ، الذي يمثل أكثر من ٩٠٪ من السكان المسلمين في العالم ، أول دراسة شاملة من نوعها تسعى إلى استكناه آراء المسلمين ، ومعرفة مواقفهم ، إزاء عدد من القضايا العالمية . وتتحدى النتيجة النهائية لهذه الدراسة المقولات الكلاسيكية حول «صراع الحضارات» ، أو حتمية المواجهة بين الإسلام والغرب ، حتى في ظل الحروب الدائرة حالياً في أفغانستان والعراق .

فما هي النتائج التي خرج بها هذان الباحثان من استقصائهما ، لمواقف حوالي ١,٣ مليار مسلم :

١- أظهرت الدراسة ، أن الذين اختاروا العنف والتطرف ، كوسيلة للرد على خصومهم ، كان بدوافع سياسية ، وليس الفقر أو التديّن . وأنه من بين ٧٪ فقط من المستجوبين ، عدوًّا هجمات ١١ سبتمبر مبرَرَة ، ولكن لم يُعبِّر أي منهم عن كرهه للحريات الأميركية . وأظهرت الدراسة ، توقهم الجارف للحرية الأمريكية . لكنهم في الوقت نفسه ، يَعدوُّن أن الولايات المتحدة ، والعالم الغربي عموماً ، يتبنّى سياسة مزدوجة ، تقوم على الكيل بمكيالين ، تقف في وجه المسلمين ، وتحول دون رسمهم لمستقبلهم باستقلالية وحرية .

٢- خرجت الدراسة بنتائج مدهشة ، وغير متوقعة ، عندما أظهرت مثلاً أن المسلمين ، - شأنهم شأن الأميركيين- يرفضون استهداف المدنيين ، ويعتبرون ذلك أمراً غير مبرَّر من الناحية الأخلاقية . ويرى المسلمون ، أن أفضل وسيلة ينتهجها الغرب لتحسين علاقاته بمجتمعاتهم ، هي تغيير نظرته السلبية للإسلام ، وإعادة النظر في سياساته الخارجية .

٣- يشاهد الأمريكيون صور الشباب المسلم الغاضب ، وهو يشارك في مظاهرات عنيفة تجوب الشوارع ، وتتوعد الغرب . أو شباب آخر يلتحق بتنظيم «القاعدة» ، ويتدرّب في معسكراتها . إلا أن الدراسة ، أظهرت كيف يحلم الشباب المسلم في غالبيته بالحصول على الوظائف ، والعيش بسلام ، بدل الذهاب إلى الحرب ، وخوض المعارك . وتقول الدراسة ، إنه عندما سألنا الشباب المسلم عن أحلامهم المستقبلية ، اتفق أغلبهم على أنها تتمثل في تحصيل فرص عمل جيدة ، وضمان الأمن الاجتماعي لهم ولأسرهم . ولم يُعبِّر سوى القليل منهم عن رغبته في تبني العنف سبيلاً للتغيير .

٤- أبانت الدراسة ، أن المسلمين يسعون - شأنهم في ذلك شأن نظرائهم في الغرب - إلى مزيد من الحريات والحقوق والديمقراطية . لكن في الوقت نفسه ، يعتقد غالبية المسلمين ، بأن على المجتمع أن يستند إلى القيم الإسلامية ، وبأن تكون الشريعة مصدراً من مصادر التشريع فيه .

٥- وتقول الدراسة ، إن الغرب بلا شك ، سيُسر كثيراً ، إذا ما

عرف أنه من بين كل عشرة مسلمين ، هناك تسعة يتبنون آراء معتدلة .

٦- وتخلص الدراسة في النهاية ، إلى أن الصراع بين المسلمين والغرب ليس حتمياً ، وبأنه مرتبط بالسياسة أكثر منه بالدين . لكن ما لم يستمع صُنّاع القرار مباشرة إلى الأشخاص العاديين ، ويتخلصوا من التصورات المغلوطة التي تتحكم في الإدراك ، سيواصل المتطرفون على الجانبين معاً اكتساحهما لمواقع جديدة .

-٦-

وتبقى الأخبار غير السارة - كما قال الباحثان - في هذه الدراسة ، وهي أن عدداً كبيراً من المسلمين الراديكاليين الذين يشكلون ٧٪ فقط من مجموع المسلمين (أي ٩١ مليون مسلم في العالم) ، مستعدون لارتكاب أعمال عنف ضد المدنيين ، ما دام ظل الشعور بالإقصاء السياسي والظلم ، مهيمناً على المسلمين .

إذن ، لا يكفي أن نقول إن تفسير ظاهرة الأصولية الدينية في العالم العربي يعود إلى بيوت الصفيح ، والفقر المدقع ، الذي يشمل شرائح واسعة من المجتمعات العربية والإسلامية .

فقد أثبتت الدراسات الميدانية والعلمية المختلفة أن ظاهرة الأصولية ناتجة عن أزمة ثقافية في معظمها سببها التعليم الديني ، والقهر السياسي ، والظلم ، والطغيان ، والكبت الاجتماعي .

وكما يقول هاشم صالح ، ربما كانت الأصولية رحمة للعرب ،

لكي تهزهم هزاً من شروشهم ، وتخلّصهم من أزمتهم الثقافية . فالأصولية أزمة ثقافية عربية بامتياز ، وتطرح تحدياً ثقافياً ، لم يجرؤ أحد حتى الآن على مواجهتها على أرضية ثقافية ، غير قلة قليلة من المفكرين العرب الليبراليين أمثال : محمد أركون ، ومراد وهبة ، ومحمد وعبد المجيد الشرفي ، والعفيف الأخضر ، وجورج طرابيشي ، وعزيز العظمة ، ومحمد الحداد ، وهشام جعيط ، وكمال عبد اللطيف ، وعبد الله العروي ، ونصر حامد أبو زيد ، وغيرهم ، فيما لا يذكر هاشم صالح غير محمد أركون فقط .(١)

(١) هاشم صالح ، مصدر سابق ، ص ٦٩ .

الأصولية عائق معرفي

-١-

يرى المفكر التونسي العفيف الأخضر ، أن الأصولية الدينية تُشكِّل عائقاً معرفياً ، من حيث أن الصراع بين التراث والحداثة صراع سياسي مصطنع في رأينا . وأن القائمين عليه ، والمتولين أمره ، من الجانب الأصولي هم طلاب كراسي ، ومن الساعين للقبض على المراسي .

فالتراث يستوجب التغيير والتجديد والحركة ، لكي يستطيع خدمة الحياة التي تستحضره . وإلا ، فإنه يصبح تراثاً متحفياً للفرجة والتذكُّر . والحداثة هي «الحالة الناتجة عن تطور زمني ، يسمح للوضع القائم المتجدد تلقائياً أن يُعبِّر بشكل أو بآخر عن روح العصر .»[١]

فأين الخلاف في ذلك ، وما هي موجبات الصراع إذن؟

-٢-

إن الأسباب التي أدت إلى أن تصبح الأصولية عائقاً معرفياً ،

(١) فتحي ورشيدة التريكي ، «فلسفة الحداثة» ، ص٣٣ .

تتركز فيما يلي :

١- ترفض الأصولية الدينية الحداثة ، بما هي اعتراف بحرية البحث العلمي والإبداع الأدبي والفني ، التي تصفها الأصولية الدينية الإسلامية بالردة . ورفض الأصولية للحداثة ، ناتج عن أن الحداثة غلّبت العقل على النقل ، بينما تتشبث الأصولية بالنص ، ولو كذّبته جميع الحقائق العلمية ، تكذيباً ساحقاً ، ماحقاً .

٢- تقوم الأصولية الدينية بمكافحة العَلْمانية ، ليس على الساحة الإسلامية فقط ، بل تطالب بجبهة ثيوقراطية إسلامية - يهودية - مسيحية - عالمية لمكافحة العَلْمانية ، كما تُكافَح الأوبئة . «فالظروف التي يعيشها العالم الآن ، والتي تعرضت فيها القيم الروحية والمبادئ الدينية لخطر ماحق مبرر ، لتوحيد جهود أتباع الديانات السماوية جميعهم ، من أجل إنقاذ البشرية من مهاوي الهلاك .»[1]

٣- اعتبار الأصولية الابنة الشرعية للمجتمع التقليدي المتفكك ، الذي أخفق بالانتقال من القدامة إلى الحداثة ، فعادى الحداثة ، وخاصة فيما يتعلق بتحديث التعليم والمعرفة . فعندما حدّثت تونس تدريس التربية الدينية ، ١٩٩٠ ، كفّرتها «حركة النهضة» السلفية/الأصولية ، بحجة أنه يجفف منابع الأصولية . وطالبت بعزل محمد الشرفي وزير التربية آنذاك .

---

(١) راشد الغنوشي ، لقاء صحافي مع جريدة «الراية» القطرية ، ٢٣/٤/ ١٩٩٦ .

وما زال راشد الغنوشي يطالب في كل مناسبة بـ «مراجعة الاختيارات التربوية» لإلغاء هذا البرنامج المستنير ، الذي هو مجموعة نصوص لمفكرين وكتاب مسلمين ، وحتى إسلاميين ، مثل القاضي عبد الجبار ، وابن رشد ، وجمال الأفغاني ، ومحمد عبده ، ورشيد رضا ، ومحمد إقبال ، والطاهر بن عاشور ، وقاسم أمين ، وحسن حنفي ، وعبد الله العروي . . الخ . لكن من يقرأ تكفير الغنوشي لهذا البرنامج ، يتوهم أن نصوصه مقتطفة من بروتوكولات صهيون . فأول ما طالبت به الأصولية الكويتية عقب انتخابات ١٩٩٦ ، هو إلغاء قسم الفلسفة في الجامعة ، ودروس الفلسفة في المدارس الثانوية ، وزيادة حصص التربية الدينية ، بمختلف المستويات الدراسية .(١)

(١) العفيف الأخضر ، **الأصولية كعائق معرفي** ، دراسة من تقديم حكيمة برادة ، والصالح بو وليد ، ومصطفى الناوي .

الأصولية عائق لغوي

-١-

إضافة إلى أن الأصولية تعدّ عائقاً معرفياً ، فهي عائق لغوي أيضاً . فقد حبست الأصولية الدينية الإسلامية - كما سبق للأصولية اليهودية أن فعلت بالعبرية - اللغة في سجن من الشعائر الدينية . ولم تستطع النخبة العربية ، على مدار قرون طويلة ، أن تُخرج اللغة العربية من هذا المحبس . في حين استطاعت العَلْمانية اليهودية ، إخراج اللغة العبرية من محبسها ، بفضل جهود العَلمانيين من اليهود .

-٢-

ويؤكد العفيف الأخضر ، أن اللغة كأي كائن آخر ، غير ثابتة ، وخاضعة للنمو والتطور . واللغة تموت عندما تثبُت ، ولا تتطور . وناموس التطور العام ، سواء في مسار الحياة النباتية والحيوانية والبشرية ، خضع دائماً لمبدأ الانتخاب الطبيعي ، لا الإرادوي Volantariste الذي يُخضع التاريخ له ولأفكاره ، ولا يخضع للتاريخ والتغيرات الكيماوية ، البنيوية والبيئية التي تدفع الإعلام الجيني

Linformation génétiqueí للتكيف مع المستجدات . والأحياء التي عجزت عن التكيّف انقرضت ، ولم يتبقَ منها إلا الأحافير . كذلك ينطبق الأمر على اللغات التي انقرضت ، واللغات التي عاشت ، وتطورت ، وازدهرت ، والانجليزية أبرز مثال على ذلك .

-٣-

فما هو أثر الأصولية الدينية الإسلامية على تطور اللغة العربية ، أو إعاقتها من التطور ، إلى درجة أن اللغة العربية نتيجة لذلك ، أصبحت مهددة بالانقراض ، ولا تُستعمل في اللغة السياسية ، أو الاقتصادية ، أو العلمية إلا ما ندر ، مما يجعلها لغة دينية ، ولغة مجاملات فقط ، ويدفعها مستقبلاً - لو بقي الأمر على ما هو عليه الآن - لأن تصبح أحفورة من الأحافير في تاريخ اللغات البشرية؟

-٤-

هناك عدة آثار سلبية للأصولية الدينية الإسلامية القديمة والمعاصرة على اللغة العربية ، شكّلت عائقاً كبيراً أمام تطور اللغة العربية منها :

١- وراء كل أصولية تكمن أسطورة نرجسية القبيلة ، كما يسميها ايريك فروم ، أو المركزية الإثنية كما تسميها الانثروبولوجيا : نحن خير أمة أُخرجت للناس ، ولنا الصدر دون العالمين أو القبر . واعتبرت هذه النرجسية اللغة العربية لغة مقدسة

باعتبارها لغة القرآن ، لا يجوز مسّها أو جسّها بالتطوير والتغيير ، حتى لا يتغير الدين الذي نطقت به ، أو يتطور . فهي لغة سماوية ، لا تخضع لتطورات وتغيرات الأرض . وهذا ما حرص عليه الأقدمون كابن فارس الرازي في كتابه (اللغة والمقاييس) ، وابن حزم في (الإحكام في أصل الأحكام) .

٢- اعتبار الأصولية الدينية الإسلامية اللغة العربية ، لغة الشريعة الصالحة لكل زمان ومكان ، والعابرة للتاريخ ، كما هي الشريعة الإسلامية ذاتها . حيث لا فصل بين اللغة والدين ، فيما لو علمنا أن معجزة الإسلام ، كانت معجزة لغوية صرفة . ويقول ابن منظور عن اللغة العربية في هذا المقام : «شُرّف اللسان العربي بالبيان على كل لسان . وكفاه شرفاً أنه به نزل القرآن ، وأنه لغة أهل الجنان» . وعن ابن عباس أن النبي قال : «أحبوا العرب لثلاث : لأني عربي ، والقرآن عربي ، ولسان أهل الجنة عربي» . والسؤال هنا : كيف يتفاهم المسلمون من غير العرب مع المسلمين العرب من أهل الجنة؟! وهل في الجنة مدرسة لتعلُّم اللغة العربية ، لكي يتفاهم بها أهل الجنة جميعاً من العرب ، وغير العرب؟!

٣- اعتبار الأصولية الدينية الإسلامية اللغة العربية ، غير قابلة للعلمنة التي هي ضرورة حتمية . فنقل اللغة من لغة دينية إلى لغة علمية وعَلمانية ، ضرورة يفرضها تطور اللغات . وهذا ما قامت به اللغة العبرية مثالاً لا حصراً ، حين قطعت حبل سرتها بالمقدس المُعيق ، بما هو ثبات أسطوري . فالأصولية

تعارض علمنة اللغة من حيث حرصها على البحث في التراث بالتراث، وعلى البحث في الدين بالدين لا بعلم الأديان المقارنة، ومن حيث حرصها كذلك على منع دخول المفاهيم المستوردة. كذلك تحرص الأصولية على عزل نفسها عن مناهج الفلسفة الغربية، باعتبارها كفراً وفساداً.

٤- ونتيجة لكون اللغة العربية لغة دينية مقدسة، فقد حرصت الأصولية الدينية الإسلامية على إبعاد اللغة العربية عن المصطلحات العلمية الغربية. بل إن إدخال المصطلحات العلمية وغير العلمية على اللغة العربية، يُعدُّ من قصور اللغة برأي الأصولية الدينية الإسلامية. ولعل رفض مجمعات اللغة العربية للكلمة الشهيرة «سندوتش» واستبدالها بالمصطلح الذي غدا نكتة، ووسيلة للتهكم والاستهزاء (شاطر ومشطور وبينهما طازج) وكذلك استبدالهم لكلمة «تلفزيون» بكلمة «الرائي»، وهو ليس رائياً فقط، وإنما مسموع أيضاً. وكان يجب أن يترجم إلى «الرائي المسموع» كما هي الكلمة الانجليزية. وكذلك استبدال كلمة «كومبيوتر» بكلمة «الحاسوب» فهو ليس حاسوباً يحسب فقط، ولكنه مصدر للمعلومات وآلة للطباعة، ورسم البيانات.. الخ. من ناحية أخرى، لا تقوم اللغة العربية، بفضل الأصولية الدينية الإسلامية، بمعالجة يومية لأي مصطلح، في حين أن الإنجليزية تُنتج يومياً نصف مليون مصطلح، والفرنسية ٤٠٠ ألف مصطلح، والعبرية ٣٥٠ ألف مصطلح. ومكتب تنسيق التعريب لم يترجم منذ تأسيسه

حتى ١٩٩٠ إلا أقل من ٨٠ ألف مصطلح . وتصدر في العالم ٦٠ ألف مجلة علمية بسائر اللغات ، بينما لا تصدر مجلة واحدة علمية باللغة العربية ، نتيجة للقصور العلمي الذي أصاب هذه اللغة ، ونتيجة الإصرار على إبقائها لغة دينية .

٥- اعتبار الأصولية الدينية الإسلامية اللغة العربية الدينية المقدسة ، لغة لا يجوز أن تتبنى المصطلحات العلمية ، كما هي آتية من لغاتها الأصلية المختلفة ، أو بتعريبها بكلمة واحدة ، أو بنحتها . وبهذا تحكم الأصولية الدينية على اللغة العربية بأنها لغة غير قادرة على نقل العلوم العصرية إليها . لذا فالمُجمعات اللغوية العربية تقوم بترجمة هذه المصطلحات ترجمة غير دقيقة ، بل مضحكة في بعض الأحيان ، مما يفقدها معناها الصحيح ، الذي جاءت به في لغاتها الأصلية . فمصطلح اللغويات Linguistics تمت ترجمته إلى العربية بثلاثة وعشرين اسماً ، ولم نهتدِ بعد إلى اسم نوافق عليه جميعاً . والأمثلة كثيرة .

٦- لتحديث اللغة العربية ثمن باهظ نفسياً : جرح أليم ؛ جرح قطيعة اللغة العربية المعاصرة مع عوائقها الأصولية المعرفية ، والتنكر لقانون التطور مجسداً في تكفير اللحن والدخيل لغوياً . وهي قطيعة لا مناص منها ، إذا أرادت أن تتمكن من الاندماج في سياق هذا القانون ببنية مجددة ، تولد بها ولادة ثانية ، على غرار العبرية ، عملاً بالمبدأ البيولوجي التدمير الخلاق Destruction-creation . وفي هذا المنظور ينبغي

التفكير العميق وبثبوت عال في تثوير اللغة العربية ، الذي هو الثمن الذي لا بُدَّ من دفعه لانتشالها من وهدة الانحطاط التي تردت فيها ، منذ نفاها الاحتلال العثماني من الحياة العلمية ، والإدارية ، والثقافية بالتتريك ، لسجنها في أداء الشعائر الدينية . وهو ما تريد الأصولية الإسلامية ، المصابة برُهاب الحداثة ، والتي أعادت اللغة العربية إلى سجنها في أداء الشعائر الدينية .[1]

(١) العفيف الأخضر ، «الأصولية تعيق تطور اللغة العربية» .

الأصولية عائق اجتماعي

-١-

يرى العفيف الأخضر، أن وظيفة المثقف هي الدفاع عن الحقيقة ضد الغوغاء (الجماهير)، وعن العقل ضد النقل، وعن التفكير ضد التكفير، وعن التجديد ضد التقليد، وعن الحداثة ضد القُدامة، وعن الصيرورة ضد الاستمرارية، وعن المتغيرات التاريخية ضد الثوابت العابرة للتاريخ؛ أي الصالحة - زعماً - لكل زمان ومكان، وعن التقدم المعرفي والاجتماعي ضد التمسك السقيم العقيم، بما قبل العلم، وقبل التاريخ، وعن ضرورة نقد الذات لجعلها معاصرة لعصرها ضد تمجيد الذات النرجسي المتخلف والمُخلّف للوعي، وعن الأممية ضد المركزية الإثنية، وعن الانتماء فكراً ووجداناً للقرية الكونية ضد الانطواء الفصامي على الهوية. وأخيراً الدفاع عن الحضارة ضد السقوط في الهمجية.[١]

(١) العفيف الأخضر، «النكوص الأصولي إلى العقوبات البدنية: الجمهورية الإسلامية الإيرانية انموذجاً»، مجلة «أدب ونقد»، القاهرة، مارس، ١٩٩٤.

-٢-

في التشريع الاجتماعي ، يحاول التنويريون من أمثال العفيف الأخضر ، إنزال الشريعة الإسلامية في التاريخ ، مثل أي ظاهرة اجتماعية - ثقافية ، لها بداية ولها نهاية . بدايتها تعود إلى الشرائع الوثنية المندثرة ، التي قامت على مبدأ الانتقام من الجاني (العين بالعين والسن بالسن . . الخ .) كما صاغها حمورابي في القرن الثامن عشر ق . م .

ومن هذا المنطلق ، يتعرض الأخضر لموضوع العقوبات الاجتماعية ، التي جاءت بها الأديان ، ومن ضمنها الإسلام كعقوبة الزنا مثلاً . فهو يرى أن عقوبة الزنا الدينية من بقايا عصر الحضارات الزراعية البطريركية ، وهي عقوبة همجية . ولهذه العقوبة تحليل اقتصادي وتحليل نفسي .

أما الاقتصاد الذي جاء به إنجلز ، فيقول إن انتقال البشرية من المشاعية البدائية إلى الحضارة الزراعية القائمة على الملكية الخاصة أفضى إلى امتلاك الرجل للمرأة . وفي سفر التثنية ، تعدّ الزوجة مملوكة والزوج مالكاً . وقتل الزوج لزوجته إن زنت ، هو الدفاع عن الملكية الخاصة ، وجريمة من جرائم الشرف .

أما التفسير النفسي الذي جاء به فرويد ، فهو يتلخص في أن الطفل بين الثالثة والخامسة ، يستأثر بأمه ويقصي أباه عنها ، باعتبارها زانية ، لأنها تخونه مع أبيه . وهذا الانفعال الكظيم ، يرافق الرجل طوال حياته ، ومسقطاً على كل امرأة الزنى ، حتى وإن

لم تزنِ . فقد اعتبر الشيخ عبد العزيز بن باز مفتي السعودية الراحل ، أن خروج المرأة من بيتها هو الزنى بعينه .

-٣-

ومنذ ظهور فلسفة الأنوار في القرن الثامن عشر ، التي جعلت من نقد الوهم الديني أحد أهدافها ، شرع بعض الفلاسفة في التشكيك في جدوى عقوبة الزنا . فقامت فرنسا في ١٧٩١ بإلغاء عقوبة الزنا الهمجية ، وقامت الثورة الروسية في ١٩١٧ كذلك .

ومن الملاحظ ، أن حدَّ الرجم الشنيع ، لم يأتِ ذكره في القرآن ، حيث جاءت آية الرجم لأيام ثم نُسخت . ومن المعروف أن الفراعنة هم الذين أقروا قتل الزانية . وأن العبرانيين أخذوا عن الفراعنة ، والبابليين أخذوا عن العبرانيين ، ثم خففوه إلى جدع الأنف ، وخفف الإسلام الجدع بمائة جلدة ، ولكن بشروط تعجيزية .

-٤-

في هذا العصر ، أصبحت المرأة بالنسبة للأصوليين الكارهين لها حتى القتل - كما سبق وذكرنا - مثالاً على ذلك ، فتوى الشيخ ابن باز ، باعتبار المرأة التي تخرج من بيتها زانية . وهذه المرأة أصبحت الأم المفترسة ، التي حرمت رضيعها من الثدي الحنون ، يُطفئ ظمأه ، أو يسكّن جوعه ، فعاش ذلك كمحاولة منها ، لقتله عطشاً وجوعاً . وهذا ما يدفعه راشداً لقتلها ، أو الانتقام منها ، باسم

الحماية من نفسها ، وحماية الناس من شرها .[١]

-٥-

ويرى العفيف الأخضر ، بأن الأصولية ، تعدّ عائقاً للتقدم الاجتماعي من حيث هي شمولية في التفكير والممارسة ، لأنها أرثوذكسية . وهذا يعني في السياق الإسلامي ، أن دينها هو وحده الدين الحق ، وأنها هي الفرقة الناجية الوحيدة . وككل أرثوذكسية تقوم الأصولية على حقيقة مطلقة عابرة للتاريخ ؛ أي صالحة لكل زمان ومكان ، لا يحق لبشر مساءلتها أو التشكيك فيها . فالأرثوذكسية دائماً تفتيشية ، لأنها تُخضع البشر إلى قوالب لاهوتية ، أو أيديولوجية جامدة ، تعدّها المقياس الأسمى للحقيقة ، وكل خروج عليها يُقاس كخروج على قانون مقدس . وكأي أرثوذكسية تفرض على الناس أدواراً حديدية مرسومة بدقة ، لا ينبغي للناس الخروج عليها ، وإلا فالعصا لمن عصى .[٢]

(١) العفيف الأخضر ، ، النكوص الأصولي إلى العقوبات البدنية : الجمهورية الإسلامية الإيرانية نموذجاً ، مصدر سابق .

(٢) لقاء شاكر نوري مع العفيف الأخضر .

الأصولية عائق سياسي

-١-

هل هناك معنىً واحدٌ للديمقراطية سواء في خطاب اليمين أو اليسار الإسلامي؟

من المتفق عليه ، أن الديمقراطية منذ عهد الإغريق إلى اليوم ، كانت مُنتجاً اجتماعياً وثقافياً ، وأنها تتشكّل وتتهيأ وفقاً للمجتمعات التي تعيش فيها ، والتي تطبقها . «فهي لا تقوم من فراغ ، بل تُمارَس ضمن واقع اجتماعي محدد ، وفي إطار مرحلة تاريخية معينة»(١) .

فالديمقراطية الأوروبية مثلاً ، تختلف في معناها ومبناها عن الديمقراطية الأمريكية . والديمقراطية الإنجليزية ، تختلف عن الديمقراطية الفرنسية . والشورى في العهد الراشدي ، والتي يحلو لبعض المفكرين الإسلاميين المستنيرين ،(٢) من أهل اليسار أن

---

(١) خالد الناصر ، «الديمقراطية وحقوق الإنسان في الوطن العربي» ، ص١٠٢ .

(٢) منهم : علي عبد الرازق ، وخالد محمد خالد ، وأمين الخولي ، ومحمد خلف الله ، أحمد صبحي منصور ، وغيرهم .

يطلقوا عليها «ديمقراطية» ، تختلف عن الشورى التي مارسها الأمويون ، والعباسيون ، ومن جاء بعدهم .

-٢-

في العام ١٩٥٠ وجهت هيئة اليونسكو التابعة للأمم المتحدة ، أسئلة إلى أكثر من مائة عالم ومفكر سياسي واجتماعي واقتصادي ، حول تعريف للديمقراطية ، وكانت الإجابة بأن لا تحديد واحداً ، ولا مفهوم شاملاً لمعنى الديمقراطية . بل إن مفاهيم الديمقراطية على مر التاريخ وبين الحضارات ، تتناقض فيما بينها ، تبعاً للوضع الاجتماعي السائد في كل شعب ، وفي كل فترة . فلا نفزعن من عدم اتفاق الفكر العربي بيساره ويمينه ، بتقليدييه وليبرالييه على مفهوم محدد للديمقراطية ، وعلى معنى واحد للديمقراطية . فلكل مجتمع من المجتمعات البشرية خاصيته ، ولكل مجتمع تبعاً لذلك ، آلياته الديمقراطية المختلفة ، شرط أن تصبَّ هذه الآليات في النهاية ضمن الإطار العام للديمقراطية ، وهو «حكم الشعب لنفسه ولصالحه» .

إلا أن بعض المفكرين يردُّ هذا التنوّع ، وهذا الاختلاف إلى التطبيقات الديمقراطية المختلفة ، وليس إلى المفهوم الديمقراطي . فجوهر المفهوم الديمقراطي واحد .(١)

---

(١) نيفين مسعد وآخرون ، «التيارات الإسلامية وقضية الديمقراطية» ، ص ١٠٨ .

-٣-

من الواضح في النصف الثاني من هذا القرن - والذي يُطلق عليه «عصر هيمنة العسكر والدولة التسلطية» في رأي خلدون النقيب - أن الأحزاب والجماعات الإسلامية ، كانت تخفض جناح المعارضة للأنظمة الملكية ، أكثر مما تخفضها للأنظمة الجمهورية . فلم تكن الأحزاب والمنظمات الإسلامية في الخليج العربي على عداء كبير مع الأنظمة ، كما هي في الجزائر مثلاً . ولم تكن هذه الأحزاب والمنظمات في الأردن ، والعراق الملكي ، والمغرب ، على عداء مع الهاشميين والعلويين ، كما هي على عداء مع أنظمة في مصر ، وسوريا مثلاً . ولهذا كله جذوره ومرجعياته في التاريخ العربي والإسلامي .

فالسُنَّة التي تُشكِّل الغالبية العظمى من الأحزاب والمنظمات السياسية ، كانت طوال عمرها إلى جانب الشرعية المتمثلة بالخلفاء والملوك . وفي القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ، تعززت هذه العلاقة بين المفكرين السياسيين من السُنَّة ، وكان على رأس هؤلاء جمال الدين الأفغاني ، الذي توَّج الملكية ، ونصَّبها كنظام سياسي وحيد يصلح لهذا الشرق ، وذلك مداراةً للخديوي توفيق (١٨٥٢-١٨٩٢) رغم أن هذا الخديوي كان عدواً لدوداً للديمقراطية .(١)

(١) كان الخديوي توفيق قد اختلف مع محمد شريف رئيس الوزراء آنذاك ، حول النظام الدستوري ، فألغى مجلس الوزراء ، ورئس هو الوزارة .
وكان خصماً للثورة العرابية التي حاربته ، وفرضت عليه إعادة محمد شريف .
والخديوي توفيق ، هو الذي استعان بالإنجليز لينصروه على الثورة العرابية .

فلنقرأ ، كيف كان يخاطب أشهر مصلح سياسي وديني في القرن التاسع عشر الخديوي توفيق ، وكيف كان يُخفض له جناح الذل من المعارضة والإصلاح ، ويدلّه على درب الملكية الشوريّة ،[1] كأفضل طريق للحكم :

«ولكم رأينا : مِنْ عقلاء الملوك مَنْ حكّم عقله ، فأرشده إلى استبدال مُطلق المُلك بالمُلك الشوري ، فاستراح وأراح . وهذا الشكل من الحكم ، هو الذي يصلح لمصر ولدول وإمارات الإسلام في الشرق . وهذا الشرق بحاجة إلى مستبد عادل .[2] أما الحكم الجمهوري فلا يصلح لا للشرق ، ولا لأهله اليوم .»[3]

وكأن الأفغاني ، كان يردد الحديث النبوي المُختلق الذي وضعه الأمويون لتثبيت عرشهم وإعطائه الصبغة الشرعية ، والقائل :

«الخلافة بعدي ثلاثون سنة ، وبعد ذلك مُلْك» .

وبالفعل ، فإن الخلفاء الراشدين حكموا قرابة ثلاثين سنة (٦٣٢-٦٦١م) وجاء من بعدهم المُلك العضوض ، واستمر حتى الآن .

---

(١) الملكية الشورية ، هي الملكية التي يُخيّر فيها الملك بين أن يأخذ بالشورى أو لا يأخذ بها . وإذا أخذ بها فهي لا تتعدى أن تكون نصيحة رقيقة هامسة ، في جلسة سمر ، تتبعها دُعابة ، لكي تشرح صدر السلطان ، بعد أن تكون النصيحة قد غمّته!

(٢) لا نعلم كيف يمكن للعدل أن يستقيم مع الاستبداد ، أو يستقيم الاستبداد مع العدل؟ أم أن المسألة هي عدالة الاستبداد ، بمعنى أن الاستبداد موزع بالعدل والقسطاط بين الناس؟

(٣) جمال الدين الأفغاني ، الأعمال الكاملة ، ج٢ ، ص٣٣٣ .

كذلك ، كان الموقف نفسه لـ «جماعة الإخوان المسلمين» من الملكية المصرية قبل اغتيال المرشد العام حسن البنا . وكذلك ، كان موقفهم من أنظمة السلطة في الخليج والعراق الملكي وليبيا الملكية والأردن والمغرب .

-٤-

ومن هنا ، يتبين لنا أن الخطاب الإسلامي ، لا يخرج في مسألة الديمقراطية عن تجربة الشورى الراشدية العُمرية ، كورقة وحيدة رابحة ، طوال خمسة عشر قرناً . فكل حديث عن الشورى الإسلامية ، يدور حول هذه التجربة اليتيمة ، التي تمَّ نقضها في عهد عثمان ، وما تبع بعد ذلك . وفيما يقول أحد كبار رجال المؤسسة الدينية وشيخ من شيوخ الأزهر ، من أن «عمر بن الخطاب أخذ جادة الرسول في الشورى شبراً بشبر وذراعاً بذراع وهو القائل في الولاية : «من قام بهذا الأمر فإنه تبعٌ لذوي الرأي ، فيما رأوا ورضوا به» . وكذلك ، فعمر بن الخطاب يشدد على أنه «حق على المسلمين أن يكونوا وأمرهم شورى بينهم ، وبين ذوي الرأي منهم .»(١)

-٥-

ومن الملاحظ هنا ، أنه لا يوجد في التراث الإسلامي أو

---

(٥٥) محمد الخضر حسين ، «الحرية في الإسلام» ، ص٢٢ .

التراث العربي طيلة خمسة عشر قرناً مضت ، من تحدث عن الشورى وضرورتها كعمر بن الخطاب . وكأن هذا الزعيم الديني والسياسي ، كان نسيجاً وحده ، ومن بعده تقطّعت أوصال الديمقراطية أو الشورى ، وغدت صدىً ، وذكرى موجعة وحزينة .

والإسلاميون السلفيون يرفضون الديمقراطية بمعناها الغربي ، لا عن كراهية ، ولا عن أنها تعارض الشورى العُمرية الإسلامية ، ولكنهم يرفضونها لأن آلياتها المُعقدة الحديثة مُتعسِّرة الفهم على الأحزاب الإسلامية ، كما أن تنفيذها يستدعي استعداداً ثقافياً واجتماعياً وحضارياً ، غير متوفر في الأحزاب السياسية الإسلامية ، وكذلك في الشعوب العربية والإسلامية .

-٦-

ويرى العفيف الأخضر ، أن الأصولية الدينية السياسية ، ترتكز على مرتكزات ثلاثة ، كما يحددها راشد الغنوشي ، الزعيم الأصولي الديني السياسي التونسي ، وهي :

- فكر سيّد قطب .
- فكر الثورة الإيرانية .
- فكر حسن الترابي .

أما دور الأصولية الدينية في المسألة السياسية ، فهو على النحو التالي :

١- من المعروف ، أن الفصل بين السلطات ، هو أساس الديمقراطية النيابية . لكن في دولة راشد الغنوشي (الداعية الأصولي

التونسي) الدينية «يمارس الإمام وحده السلطة التشريعية والتنفيذية .» لماذا؟ : لأن نظام الفصل بين السلطات ، يحوِّل الرئيس مرؤوساً بسيطاً ، ومجرد أداة تنفيذ ، وليس هذا من العدل في شيء ، فضلاً أن ما يقصده هذا الفصل بين السلطات من تساوٍ هو وهمي بحد ذاته ؛ لأن رئيس الدولة في التصوّر الإسلامي ، هو صاحب الولاية العامة على المسلمين ؛ أي صاحب الرئاسة العليا عليهم .

فكيف يتفق ذلك ، مع وجود سلطة أخرى غير سلطة الشريعة والأمة ، تعلوه ، أو تزاحمه؟

وكيف يجوز للأمة ، أن تفرز سلطتين متزاحمتين متساويتين؟

فمن إذن ، يُعبِّر عن إرادة الأمة ، ويتحمل المسؤولية تجاهها؟»[1] وهذا الكلام يؤيده حسن الترابي زعيم الإخوان المسلمين في السودان ، والأمين العام لـ «المؤتمر الشعبي السوداني» ، الذي يعتبر أن خروج الديمقراطية من الإطار الديني ، إلى إطار سياسي بحت ، يعدّ رِدة وضرباً من الشرك ، لأنه يُشرك إرادة الشعب مع خالقه ، كما أشرك الذين شاركوا قيصر مع الله ، أو الأحبار والرهبان مع الله . وأن الذي يمرق في السياسة من الدين ، مشرك وكافر .[2] في حين أن

(١) العفيف الأخضر ، لقاء أجراه الصالح بوليد . مصدر سابق . وانظر : راشد الغنوشي «الحريات العامة في الدولة الإسلامية» ، ١٩٩٣ ، ص٢٢٧ .

(٢) حسن الترابي ، «الشورى والديمقراطية : إشكالات المصطلح والمفهوم» ، ص١٤ .

الغنوشي يقول، في مكان آخر كلاماً مناقضاً لهذا تماماً. فيقول: «إن المسار الديمقراطي خيار أصيل. والديمقراطية ليست بضاعة غربية رُدت إلينا. إن أهم فشل عاناه تاريخنا، هو أن الشورى ظلت قيمة أخلاقية عليا، ولم تتحول إلى مؤسسة سياسية.[(١)] والغرب هو الذي حوّل الشورى إلى نظام دولة، وليست مجرد قيمة سياسية.[(٢)]

٢- يعدّ الأصوليون الاعتراض معارضة. والمعارضة خيانة. فالغنوشي في كتابه (الحريات العامة في الدولة الإسلامية) يكفّر تعدد الأحزاب، إلا حزباً واحداً، هو حزب الله؛ أي الفرقة الناجية الوحيدة. أما الأحزاب المتعددة فهي «أحزاب مذمومة يقابلها حزب واحد، هو حزب الله. وهو لا يحتاج إلى ترخيص من الحاكم، لأن ذلك استجابة لأمر الله، في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»[(٣)].

٣- إن المفهوم الأصولي السياسي، يعدّ الحكم واجباً شرعياً، لا يقبل التداول، وليس كما هو في الواقع دوراً اجتماعياً، يجوز

---

(١) يحذرنا عزيز العظمة من أن نأخذ مثل هذه الأقوال وغيرها من أقوال الأحزاب الإسلامية، مأخذ الثقة والصدق. ويقول: «إن هؤلاء الإسلامويون يتكلمون بلسانين. فالإسلام السياسي كالشيوعية التقليدية منجذب دائماً إلى المكيافيلية الموضوعية التي تقيس القول السياسي الآني على مقياس الحتمي الأخروي».

أنظر: عزيز العظمة، «دنيا الدين في حاضر العرب»، ص ٩١.

(٢) راشد الغنوشي، من حديث لجريدة «الشعب» القاهرية، ١٩٩٠/٧/١٧.

(٣) العفيف الأخضر، لقاء أجراه الصالح بوليد. مصدر سابق.

للفاعلين السياسيين أن يتداولوا عليه بكل بساطة .[١]

٤- إن الأصولية الدينية السياسية الإسلامية ، هي في واقع الأمر متحالفة مع الأصولية السياسية الدينية اليهودية والمسيحية . والقاسم المشترك لهذا التحالف رفض قيام الدولة الفلسطينية جنباً إلى جنب مع الدولة الإسرائيلية ، لأن الأصوليين السياسيين الإسلاميين الذين يحركهم مبدأ اللذة الصبياني الهاذي ، لا مبدأ الواقع الراشد والرشيد ، يرفضون قيام دولة فلسطينية على جزء من فلسطين ، لأنها بذلك تعترف بشرعية «دولة الاغتصاب الصهيوني» . إذ لا بديل لتحرير فلسطين من النهر إلى البحر .

من ناحية أخرى ، فإن الأصولية الدينية السياسية اليهودية المتمثلة بأقصى اليمين الإسرائيلي الواعي باستحالة تحقيق هدف أقصى اليمين الإسلامي ، يعتقد بدوره أن قيام دولة فلسطين في الضفة والقطاع سيكون بداية النهاية لدولة إسرائيل في المدى البعيد .

لقد اقترح حسن الترابي (بابا الأصولية الإسلامية الإرهابية) على بابا الفاتيكان قيام جبهة إسلامية - مسيحية مشتركة . كما اقترح على اليهود كذلك . وقال ، ينبغي على الديانات التوحيدية الثلاث أن تتجند لترد إلى الله سلطانه ، وتعيد

(١) العفيف الأخضر ، إيران عند مفترق صراع جيلين : إلى الديمقراطية أم إلى الحرب الأهلية؟ ، جريدة «الحياة» ، ٢٠٠٠/٢/١٢ .

البشر إلى الله (لوفيغارو ، ١٦/٤/١٩٩٥) .[١]

٥- الأصولية كأي أرثوذكسية ، تعدّ القاعدة التي تقوم عليها التوتاليتارية ، التي تعني حكم الحزب الواحد ، الذي هو في حالة الأصولية الإسلامية «الذي لا يحتاج إلى ترخيص من أحد» كما يقول أحد قادة الأصولية ؛ أي إنه فوق القانون ، وكل حزب عداه هو حزب الشيطان ، لا حق له في الوجود أصلاً . وكان الشعار في روسيا «يمكن أن يوجد أكثر من حزب واحد ، شرط أن يكون الأول في السلطة والباقي في السجن» . وهو ما نراه الآن في السودان ، وإيران ، وأفغانستان (قبل انهيار طالبان) .[٢]

٦- الأصولية متطرفة تعريفاً ، مثل تنظيمات أقصى اليمين في أوروبا الديمقراطية وفي أمريكا واليابان . ولهذا التطرف أسباب عدة نفسية ، وأيديولوجية ، وسوسيولوجية أقتصر منها على واحد : هو أن العنف المبرمج في برنامجها النكوصي إلى ما قبل الحداثة . ونظراً لتطبيق هذا البرنامج عملياً ، فإنها تلجأ إلى العنف والإرهاب الدموي لفرضه إرادوياً على مختلف الفئات المعنية به .[٣]

---

(١) العفيف الأخضر ، «مجرد فرضية للبحث : جبهة أصولية إسلامية - مسيحية - يهودية» ، جريدة «الحياة» ، ٨/١٠/١٩٩٧ .

(٢) لقاء شاكر نوري مع العفيف الأخضر ، مصدر سابق .

(٣) لقاء صالح بوليد مع العفيف الأخضر ، مصدر سابق .

٧- الشعبوية[٢] والأصولية ، حركات سياسية مناهضة للحداثة ، تستخدم مفردات المعجم الديني لتكسب بها شرعية دينية لدى الجمهور ، تعفي بها نفسها من التبرير السياسي لمطامعها الدنيوية التي تقدمها للعامة ، كما لو كانت بديهيات دينية لا تحتمل النقاش . بل تعدّ التشكيك فيها شكاً فيما هو معلوم من الدين بالضرورة ، مثل فتوى حاكم إيران الديني علي خامئني ، بأن «معارضة الحكومة الإسلامية كفر بالله» .[٢]

٨- إن ينابيع الإرهاب يغذيها نبع واحد ، هو عجز المجتمعات

---

(١) الشعبوية popularism مصطلح ظهر في اللغات الأوروبية ويشير إلى تيار سياسي ، ظهر لأول مرة في روسيا عام ١٨٧٠ ، كرد فعل انفعالي على دخول الرأسمالية الصناعية التي رأى فيها المثقفون التقليديون الروس خطراً مميتاً على «روسيا الخالدة» : روسيا القروية ، وروسيا الفلاحين المتمسكين بالأرض المشاع (الميري) ، التي كانت تغطي ثلاثة أرباع المساحات الزراعية للتصدي لزحف الحداثة الأوروبية على روسيا نصف الهمجية . فقرر المثقفون الشعبويون الذهاب إلى الفلاحين لتعبئتهم ضد التغريب والتصنيع . ونقل روسيا من العصور الوسطى إلى العصر الحديث . وكما كان منتظراً ، فقد خاب مسعاهم ، لأن تيار الحداثة لا يُصد ولا يُرد . والشعبوية ، تطلق اليوم على الحركات السياسية الديماغوجية التي تبيع الأوهام للجمهور ، وتتملق انفعالاته وغرائزه السادية المازوشية ، وتحولها إلى شعارات سياسية ومشروع حضاري مضاد للحضارة الحديثة وقيمها الكونية والإنسانية ، كالعَلْمانية والعقلانية والديمقراطية والمساواة بين الجنسين وبين جميع الأجناس وحقوق الإنسان . والشعبوية تتمثل اليوم في الغرب في حركات أقصى اليمين العنصري ، وفي الشرق في الحركات السلفية/الأصولية الإسلامية المتطرفة .

(٢) العفيف الأخضر ، «الشعبوية الأصولية عنف أعمى» ، جريدة «الشرق الأوسط» ، لندن ، ١٩٩٨/٩/٢٤ .

الإسلامية عن تبني الحداثة الكفيلة وحدها بقطع الطريق على النمو الإرهابي المتستر بالإسلام .[1]

٩- تُعدّ العَلْمانية الرد الوافي على الأصولية الدينية ، وعلى الكنيسة الأصولية ومحاكم التفتيش . فالعَلْمانية تعني أن لا يبقى الفضاء العربي - الإسلامي استثناءً فضائحياً من العالم بما فيه أفريقيا ، التي اعتمدت العَلْمانية . والعَلْمانية تعني ثانياً أن لا دين في السياسة ، ولا سياسة في الدين . وتعني ثالثاً ، فصل الدين عن البحث العلمي والإبداع الأدبي والفني . وكذلك الفصل بين الدين والمواطنة ؛ أي بين المؤمن والمواطن ، وذلك لكي ينتقل غير المسلم من مرتبة الذمي إلى منزلة المواطن ، المتمتع بجميع حقوق المواطنة .[2]

---

(١) العفيف الأخضر ، كيف نجفف ينابيع الإرهاب الأصولي؟ مجلة «الملاحظ» ، تونس ، ٢٠٠١/١٢/٢٦ .

(٢) العفيف الأخضر ، لقاء أجراه الصالح بوليد . مصدر سابق .

الأصولية والإسلام السياسي

-١-

هاشم صالح ، المفكر والباحث السوري ، المقيم في باريس ، منذ سنوات طويلة ، من أبرز المفكرين العرب التنويريين اليوم على الساحة العربية . وهو إلى جانب مؤلفاته وكتاباته المتفرقة ، في الصحافة العربية ، يقوم بدور تنويري مهم ، ومؤثر . لقد سبق وقلت ، إن هاشم صالح يُعدّ ابن رشد العصر الحديث ، من حيث توليه ترجمة وشرح كُتب الفيلسوف الجزائري محمد أركون . فإذا كان ابن رشد هو شارح أرسطو ، فإن هاشم صالح هو شارح محمد أركون ، الذي قام بثورة علمية كبيرة ، فيما يتعلق بالدراسات الإسلامية والتراثية . ولولا جهود ومثابرة هاشم صالح ، في تتبع خطى أركون ، وتقديمه للقارئ العربي ، لكان من الصعب على القارئ العربي ، أن يَقرأ أركون ، سواء بالعربية ، أو بالفرنسية ، أو بأي لغة أخرى من اللغات التي يجيدها ، ويكتب ، ويحاضر بها أركون .

-٢-

كتاب هاشم صالح «معضلة الأصولية الإسلامية» ، كتاب

تنويري مهم، لم يكتبه هاشم صالح للخاصة - وهو أجمل ما فعل - كما يفعل معظم المفكرين، خاصة في المغرب العربي، الذين يفكرون بالفرنسية ويكتبون بالعربية، فتخرج لنا كتاباتهم عويصة غير مختمرة، وملتوية غير مستقيمة، وأعجمية بأحرف عربية، وهي كما سبق، وقال طه حسين، يصف الأدب الجديد، بأنه «يوناني لا يُقرأ».

وأهمية كتاب هاشم صالح هذا، تأتي - كما قلنا - أنه كُتب للعامة وليس للخاصة فقط. وتلك مهمة شاقة وعسيرة على هاشم صالح، وعلى كل من يحاول أن يخطو خطوات هاشم صالح. فمشكلة التنويريين اليوم، هي أنهم لا يصلون لسواد الناس، ولا للحكام الذين هم - ثقافياً - من سواد الناس، وهم الهدف الرئيسي للتنوير. فكتاباتهم موجهة للنخب فقط. وهذه النخب لا مشكلة لنا معها. فهي لا تُعيق تقدم الحداثة، وبناء المجتمع المدني، كما تعيقها العامة، والأكثرية من الناس. وعندما يكتب هاشم صالح كتاباً كهذا، ويبثّ فيه أفكاره التنويرية، وبأسلوب بسيط وسهل وسلس، فهو بذلك يقوم بعمل عظيم وشاق وقاسٍ في الوقت نفسه، لأنه يوجهه إلى أكبر عدد من القراء، وليس للنخب فقط، التي تعرف وتدرك مضامين كتاب كهذا. ولعل تصدي هاشم صالح لترجمة وشرح فكر محمد أركون بالأسلوب نفسه من البساطة والسلاسة، لكي تتسع دائرة قراء أركون، وتخترق عقول سواد الناس، أصحاب الدين الشعبي، هو الذي دفع هاشم صالح، إلى القيام بترجمة وشرح فكر أركون.

-٣-

هاشم صالح في كتابه «معضلة الأصولية الإسلامية» ، يقدم لنا مجموعة من قراءاته لكُتب مفكرين عرب وفرنسيين في الأصولية الإسلامية ، وإشكالياتها المختلفة .

ففي كتاب «الدين والسياسة في الساحة الإسلامية» للباحث التونسي ، والأستاذ في جامعة ليون بفرنسا ، محمد شريف فرجاني ، يتطرق هاشم ، إلى أهم ما في كتاب فرجاني ، وهو ظاهرة العنف الديني . فيقول ، إن القرآن الكريم ، مثله مثل سائر النصوص الدينية والتأسيسية الكبرى ، ذو موقف مزدوج من قضية العنف ؛ بمعنى أنه يحتوي على آيات تُحلّل العنف (وهو عنف مشروط باستمرار) وآيات توصي بالسلم والابتعاد عن العنف . وسبب هذا - وهو المهم جداً ، والذي علينا أن نفهمه جيداً - الظروف والوقائع التاريخية ، التي جاءت فيها هذه الآيات . ومن هنا ، ننادي دائماً بأن ندرس الأديان من داخل التاريخ ، وليس من فوق التاريخ ، كما يفعل معظم الفقهاء القدامى والمعاصرين كذلك ، وهو السبب الرئيسي لزيادة العنف الديني . ورغم ذلك فآيات السلام في القرآن الكريم (٤٩ آية) أكثر من آيات العنف . وكما أن هناك آيات للعنف في القرآن الكريم ، فهناك آيات عنف في الإنجيل أيضاً ، ومنها ما يقال على لسان السيّد المسيح عليه السلام : «لا تظنوا أني جئت لأحمل السلام إلى الأرض ، ما جئت لأحمل سلاماً بل سيفاً . جئت لأفرق بين المرء وأبيه ، والبنت وأمها ، فيكون أعداء الإنسان أهل بيته» (متي ، ١٠ : ٣٤-٣٦) . والتاريخ المسيحي مليء بأعمال

العنف الفظيعة بين المسيحيين أنفسهم ، وبين المسيحيين وأعدائهم من الديانات الأخرى .

-٤-

يرى فرجاني أن الإسلام السياسي جاء - كما سبق للمسيحية ذلك - كرد فعل على الحداثة العلمية والفلسفية . وبالتالي ، فلا خصوصية للإسلام بهذا . بل إنني - أنا شخصياً - أعتقد بأن الإسلام ، كان سياسة قبل أن يكون ديناً وقد قلت هذا بوضوح ، في عرضي لكتاب المفكر التونسي الراحل محمد الشرفي «الإسلام والحرية : الالتباس التاريخي» . والدليل التاريخي على ذلك ، أنه قبل اكتمال الرسالة الإسلامية بسنوات طويلة ، كان الرسول عليه السلام ، قد أقام «دولة المدينة» بعد هجرته إليها مباشرة . وقد اشترك في هذه الدولة عدد من اليهود ، وعدد من المشركين ، إضافة للمسلمين المهاجرين والأنصار . وبذا ، فإن أول دولة عَلْمانية ، ولا دينية ، هي دولة الرسول في المدينة . وتشكيل هذه الدولة ، يكاد يكون عصرياً مكتملاً ، وجاء على الوجه التالي :

١- وزارة التربية والتعليم ، وتشمل إدارات : تعليم القرآن ، تعليم الكتابة والقراءة ، الإفتاء ، تعليم الفقه ، والإمامة .
٢- وزارة الحج ، وتشمل إدارات : السقاية ، وإمارة الحج .
٣- وزارة الخارجية ، وتشمل إدارات : السفراء ، والتراجمة .
٤- وزارة الإعلام ، وتشمل إدارات : الشعراء ، والخطباء .
٥- وزارة الدفاع ، وتشمل إدارات : أمراء القتال وجنده (ما يعرف

اليوم برئاسة الأركان) ، كتّاب الجيش ، فارضو العطاء (ما يعرف اليوم بالإدارة المالية) ، العُرفاء من رؤساء الجند . الحرس النبوي ، المستخلفون على المدينة (ما يعرف اليوم بالحرس الوطني) ، مستنفرو الناس للقتال (ما يعرف اليوم بدائرة التعبئة العامة) ، صاحب السلاح (ما يعرف اليوم بالمستودعات العامة للجيش) ، القائمون على متاع السفر (ما يعرف اليوم بدائرة النقل العسكري) ، خاذلو الأعداء (ما يعرف اليوم بدائرة الاستخبارات العسكرية) ، ومبشرو النصر (ما يعرف اليوم بدائرة التوجيه المعنوي والإعلام والمصدر المسئول أو الناطق الرسمي) .

٦- وزارة المالية ، وتشمل إدارات : عمّال الجباية والخراج ، عمّال الزكاة والصدقات ، والخارصون (المقدرون لإنتاج الشجر من الثمر بالظن أو التقدير) للثمار (ما يعرف اليوم بدائرة ضريبة الدخل) .

٧- وزارة الداخلية ، وتشمل إدارات : صاحب العسس (ما يعرف اليوم بمدير الأمن العام) ، العين (ما يعرف اليوم بدائرة المباحث والاستخبارات) ، السجّان (ما يعرف اليوم بمصلحة السجون) ، المنادي (ما يعرف اليوم بدائرة الإعلام أو المصدر المسئول بوزارة الداخلية) ، ومُقيم الحدود (ما يعرف اليوم بالجلاد أو السيّاف) .

٨- وزارة الصحة ، وتشمل إدارة متولي التطبيب والعلاج .

٩- وزارة الأوقاف ، وتشمل إدارات : فارضو المواريث ، فارضو

النفقات ، إمامة الصلاة ، والآذان .

١٠- وأخيراً ، الديوان النبوي ، ويشمل إدارات : الكتابة ، الترجمة ، الخاتم ، والحجابة (تعني بلغة اليوم التشريفات في الديوان الملكي أو الجمهوري أو الأميري . والحاجب هو رئيس التشريفات . والتشريفات كلمة تركية تعني الاستقبال والتوديع) .

-٥-

ولمزيد من المعلومات عن «دولة الرسول» عليه السلام في المدينة المنورة ، يمكن الاطلاع على «تخريج الدلالات السمعية» ، لأبي الحسن الخزاعي (١٠٢٦-١١٠٣) . والاطلاع على «نظام الحكومة النبوية» لعبد الحي الكتاني . وكذلك الاطلاع على «العَلْمانية ونهضتنا الحديثة» ، لمحمد عمارة ص٤٥ ، وما بعدها .

وهذا التنظيم السياسي والإداري والعسكري ، لم يكن موجوداً كله ، وبهذا التفصيل عند العرب قبل الإسلام . ولا بُدَّ أن النبي عليه السلام ، قد استعان بخبراء غير عرب ، وغير مسلمين ، من البيزنطيين في الشام ، والساسانيين في العراق وغيرهم ، لإقامة هذا الكيان السياسي والإداري في دولته الجديدة .

-٦-

وما فعله النبي عليه السلام ، في أواخر حياته ، من نشاط وإجراءات سياسية وإدارية ومالية ، كانت إجراءات وقرارات ، لم يقم بها أي نبي أو رسول آخر ، في تاريخ الأديان البشرية كلها ،

حيث اقتصرت مهمة الأنبياء والرسل من قبل ، على الدعوة الدينية فقط ، دون ممارسة أي سلطان سياسي أو إداري ، كما فعل النبي محمد عليه السلام . وكان النبي عليه السلام بذلك ، أول وآخر الأنبياء الذين جمعوا بين الدالين : دال الدين ، ودال الدنيا . ويُستثنى من ذلك النبي داوود ١٠٠٠-٩٦٢ ق.م ، الذي كان نبياً وملكاً ، وكذلك ولده سليمان من بعده . وقد كان داوود ملكاً بأمر السماء ، لقول القرآن ﴿يا داوود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق﴾ (صاد : ٣٨) .

وكان الإسلام بذلك ، جامعاً أيضاً لهاتين الدالين : دال الدنيا ، ودال الدين . وتلك حجة قوية في أيدي الجماعات الإسلامية والتيار الفكري الإسلامي ، الداعي إلى إقامة الدولة الدينية ، من خلال هذا التلاحم التراثي القوي بين الدين والدولة . وهذه الحجة نفسها ، هي التي دحضت بقوة دعوات فصل الدين عن الدولة ، كدعوة علي عبد الرازق ، وخالد محمد خالد - في بداية حياته ، فصل بين الدين والدولة في كتابه «من هنا نبدأ» ١٩٥٠ ، ولكنه عاد في عام ١٩٨١ ، وربط بين الدين والدولة ، في كتابه «الدولة في الإسلام» - ومحمد خلف الله ، وغيرهم . وجعلت بعض من قالوا بفصل الدين عن الدولة ، يتراجعون عن مقولاتهم . وأصبحت دعوة العَلْمانية (فصل الدين عن الدولة وليس عن المجتمع) دعوة شاقة وعسيرة في العالم العربي . كما أصبحت مهمة العَلْمانيين في الفضاء العربي- الإسلامي ، أكثر صعوبة من مهمة العَلْمانيين في الفضاء الغربي- المسيحي .

جناية الأصولية على الإسلام

-١-

علينا أن لا نخلط بين الدين ، وبين الأصولية الدينية .

فالدين «إيمان» ، والأصولية الدينية «عقيدة» ، كما يقول مراد وهبة .

والأصولية الدينية جعلت من الإيمان معتقداً ، تستعمله لخدمة أغراضها السياسية والدينية والإيديولوجية .

الدين بيان وقيم وإخبار ، والأصولية الدينية اجتهادات ، وتراكم أحكام ، ومراقبة ، وعقاب .

جمهور الدين هم الخاصة ، وجمهور الأصوليات الدينية هم العامة ، من أتباع التديّن الشعبي الذي يختلط فيه الدين بالخرافات ، والأساطير ، والشعوذات ، وتقديس الأئمة .

الدين يهدف إلى تكوين صالحين ، ودعاة خير ومحبة . والأصولية الدينية تهدف إلى تكوين إرهابيين ، بدعوى الدفاع المسلح عن الحقيقة المطلقة ، التي لا جدال فيها . فإما معنا وإما الموت . وهذا ما حصل منذ فجر التاريخ حتى الآن . فسقراط كان ضحية الأصولية اليونانية صاحبة الحقيقة المطلقة ، عندما تعرّض

لها ، وسخر منها . وغاندي كان ضحية الأصولية الهندوسية . والأصولية اليهودية هي التي قتلت إسحق رابين ، كما قتلت الأصولية الإسلامية أنور السادات . وما إرهاب «القاعدة» وباقي الجماعات الأصولية المسلحة ، إلا حماية الحقيقة المطلقة ، التي يعتقدون أنهم يملكونها وحدهم ، والدفاع عنها .

-٢-

الدين هدفه الناس كافة ، دون استثناء . والأصوليات الدينية هدفها فئة معينة قابلة للتسييس والموت .

الدين ليس من صنع البشر ، في حين أن الأصولية الدينية من صنع البشر المستغلين للدين ، على مدار التاريخ ، وحتى الآن .

وهذا ينطبق على الأصوليات الدينية كافة ، مع بعض الفروقات الخاصة القليلة .

الخلاف الحاد بين الليبرالية العربية والأصولية الإسلامية ، يتمركز حول دعوة الفكر الليبرالي إلى قراءة النصوص الدينية المقدسة ، قراءة تاريخية ومجازية - كما نادى ابن رشد ، بوجود معنى ظاهر ، وآخر باطن (المجاز) للنص ، ومعنى للخاصة ومعنى للعامة - وليست قراءة حرفية تواكلية تسليميّة مسبقة .

ومعنى هذا ، أن الليبراليين يقفون إلى صف المعتزلة القدامى في قولهم بخلق القرآن ؛ أي إن القرآن تكوّن متدرجاً ، حسب الأحداث التاريخية ، التي واجهها الإسلام والنبي عليه السلام . ولم يكن مكتوباً مسبقاً ، ومحفوظاً منذ الأزل في اللوح المحفوظ ،

كما تقول السُنَّة ، والأشاعرة ، وغيرهم من الأصوليين الدينيين .

-٣-

فالأشاعرة - على سبيل المثال - أنكروا وجود القوانين الطبيعية ، التي تتحكم بهذا الكون . وهذا يعني بكل بساطة إلغاء «نظرية السببية» في التاريخ والطبيعة ، وبالتالي إلغاء العقل والتفكير . علماً بأن القرآن أقرَّ قانون السببية ، ولكن ليس بصراحة ووضوح العلم الحديث . فالقرآن كتاب هداية وقيم أخلاقية ، وليس كتاب علم وقوانين طبيعية . وذكر القرآن كلمة «سبب» و«أسباب» تسع مرات . فقال عن ذي القرنين : ﴿إنا مكنّا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سبباً﴾ ﴿فأتبع سبباً﴾ (الكهف : ٨٤ ، ٨٥) ، ﴿ثم أتبع سبباً﴾ (الكهف : ٩٢) ، ﴿إذ تبرأ الذين اتُّبعوا من الذين اتَّبعوا ورأوا العذاب وتقطّعت بهم الأسباب﴾ (البقرة : ١٦٦) ، ﴿فليرتقوا في الأسباب﴾ (ص : ١٠) ، ﴿وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحاً لعلي أبلغ الأسباب﴾ (غافر : ٣٦) ، ﴿أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذباً﴾ (غافر : ٣٧) .

وتأتي الأسباب ، بمعنى الطُرق والأساليب ، كما في الآيات : (البقرة : ١٦٦) ، و (غافر : ٣٦) . وتأتي الأسباب بمعنى العلل ، كما في الآيات (غافر : ٣٧) ، و (ص : ١٠) . وبعض العامة والباحثين يظنون أن نصً «وجعلنا لكل شيء سبباً» من القرآن . والصحيح أن لا نص في القرآن أتى بهذه الصيغة . ولكن الأشاعرة القدامى والجُدد ، ينكرون أن القرآن قال بالسببية .

-٤-

ونرى أن الأصولية الدينية ،ليست قاصرة على الإسلام وحده ، أو على منطقة معينة من العالم كمنطقة الشرق الأوسط مثلاً ، ولكنها موجودة في الأديان السماوية الأخرى ، وفي مناطق مختلفة من العالم ، حتى المتقدم منها .

فهناك أصولية مسيحية متشددة في أمريكا ، تمنع تدريس نظرية دارون في المدارس والجامعات في بعض الولايات الأمريكية حتى الآن . والأصوليات جميعها تشترك معاً في قواسم مشتركة واحدة ، وهي التطرف ، والغلو ، والتشدد ، والتفسير الحرفي للنصوص ، ومعاداة النظريات العلمية ، ومنع إعمال العقل في النص الديني ، ولكن بدرجات متفاوتة .

ولو كان لدينا ما اقترحه هاشم صالح في كتابه «معضلة الأصولية الإسلامية» من إقامة «علم الأصوليات المقارنة» ، لاستطعنا أن نكتشف بوضوح من أن الأصولية الإسلامية ، هي أقل الأصوليات الدينية السماوية الثلاث تطرفاً ، وغلواً ، وتشدداً ، وكذلك مساحةً وفضاءً . ولكن جامعة شيكاغو استطاعت أن تقوم بجزء كبير من هذه المهمة (علم الأصوليات المقارنة) عندما رصدت خمسة ملايين دولار ، من أجل كتابة بحوث عن الأصوليات المقارنة ، والتي انتهت في خمسة مجلدات ، درست سائر الأصوليات في العالم ، دراسة علمية مقارنة .

-٥-

إن ارتفاع وتيرة رمي الإسلام بالعنف، ظهرت بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١، عندما أصبح الإسلام في عين هذه العاصفة الكارثة، وما خلّفته الحملة العسكرية على العراق ٢٠٠٣ من آثار، وظهور العداء المسلح بين السُنَّة العرب والشيعة. وهذه الأحداث كلها، ليست غريبة، أو مستهجنة، في تاريخ الصراعات الدينية.

فهل ننسى المجازر الطائفية العنيفة، والحروب المذهبية الرهيبة، التي حصلت بين الكاثوليك والبروتستنت، في القرون الوسطى؟

وهل ننسى مجازر الكاثوليك والبروتستنت، في ايرلندا الشمالية حديثاً؟

وهل ننسى الصراع والمجازر، التي قامت بين البوذية والهندوسية؟

ومن هنا، يؤكد هاشم صالح، أن هناك فرقاً بين الدين كتنزيه، وتعالٍ، وروحانيات سامية، ومبادئ أخلاقية رائعة، وبين الدين كإيديولوجيا سلطوية، أو سياسية، هدفها قهر الآخرين وإخضاعهم.

فكل الأديان، تحوّلت في لحظة ما، إلى إيديولوجيا سلطوية وقمعية. وهذا ما نعنيه بدراسة الدين داخل التاريخ، وليس من فوق التاريخ.

-٦-

لقد ألبست الأصولية الدين الإسلامي لباساً غير اللباس

الإلهي ، كما قال عبد الرحمن الكواكبي ، في كتابه (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) . فمصطلحات دينية كـ «دار الحرب» ، و«دار السلام» ، و « الولاء والبُراء» و «الحل هو الإسلام» ، وغيرها من شعارات الأصولية الدينية/السياسية ، ليست من القرآن ، وليست من السُنَّة النبوية ، وإنما هي من اختراع فقهاء السلفية/الأصولية الدينية . وقد شهدنا في نهاية القرن العشرين طوفاناً مريعاً ، ومقالات غزيرة من فقهاء السلفية/الأصولية الدينية ، يدافعون فيها عن هذه الشعارات ، ويداورونها ، ويحرِّفونها ، ويسلقونها ، ويطبخونها بالبهارات الإسلامية المختلفة ، لكي تبدو طعاماً إسلاموياً طيب الطعم ، وشهي المذاق ، للفتية والصبيان في المدارس ، والمساجد ، وحلقات الذكر . فلا ذكر لهذه الشعارات الدينية/السياسية السلفية/الأصولية في القرآن . وقبل الستينات من القرن العشرين ، لم تكن هذه الشعارات في الأدبيات السلفية/الأصولية . ولكنها بعد هذا التاريخ ، ومطاردة عبد الناصر للإخوان المسلمين ، وهروبهم إلى دول الخليج ، وسيطرتهم على مناهج التعليم الديني في معظم دول الخليج ، أدخلوا هذه الشعارات في مناهج التعليم الديني (وخاصة في منهاج التوحيد كما نقرأ في مقولة «الولاء والبُراء») ودرَّسوها ، وأصبحت جزءاً لا يتجزأ من الإسلام . ولكنها في واقع الأمر ، جزء لا يتجزأ من الأيديولوجية الأصولية الدينية/السياسية ، التي نسمعها في خطابات رُعاة «القاعدة» في جبال وشعاب أفغانستان وباكستان ، وخطابات الإخوان المسلمين ، وغيرها من الجماعات الإسلاموية المتطرفة .

وكانت مقولة «الولاء والبُراء» تُلقَّن للمصلين يوم الجمعة . وكان خطيب الجمعة رياض المسيميري ، قد قال مرة على منبر صلاة الجمعة :

«من أبرز تلك المفاهيم العقدية التي غابت عن حياة كثير من المسلمين : مفهوم الولاء والبُراء ، والذي يحسب بعض البسطاء أنه يندرج تحت جملة القضايا الجزئية أو الثانوية ، وهو وهمٌ كبير وخطأ فادح ، نتج عنه حالة مفزعة ، من ظلم الناس بعضهم بعضاً من جهة ، وتعظيمهم وحبهم للكفار من جهة أخرى . وذلك انتكاس خطير في المفاهيم ، وقلب مشين للأصول والقواعد ، لذا وجب إيضاح هذا المفهوم الخطير - مفهوم الولاء والبُراء - حتى يعلم المسلم من يوالي ، ومن يعادي ، ومن يحب ، ومن يبغض؟!

فأما الولاء : فمعناه أن يوالي المسلم إخوانه المسلمين ، ويحبهم ، ويرحمهم ، وينصرهم ، وينضم إلى جماعتهم ، ظاهراً وباطناً .

وأما البُراء فمعناه : أن يتبرأ المسلم من الكفار ، ويبغضهم ، ويعاديهم ، ويجاهدهم بلسانه ، ونفسه ، وماله .

الأصولية فاشية دينية

-١-

إن شعارات «الولاء والبُراء» ، و«الإسلام هو الحل» ، و «دار الحرب والسلام» وغيرها من الشعارات الدينية العاطفية ، ظهرت حديثاً في الشارع العربي الديني ، من قِبل جماعة الإخوان المسلمين بالدرجة الأولى ، وهي موجهة للغرب خاصة ، الذي يحول بين جماعة الإخوان المسلمين والجماعات الإسلاموية المنشقة عنهم وبين الحكم والوصول إلى السلطة ، حيث أصبح صُنّاع القرار في الغرب ، يفضلون الأنظمة الدكتاتورية الحاكمة في العالم العربي على حكم الجماعات الإسلاموية . ولذا ، فهم يَغضّون البصر ، ويسكتون عن مخالفات الأنظمة الدكتاتورية ، ورزاياها .

-٢-

أصبح لا نية لصناع القرار في الغرب ، خاصة بعد مجيء إدارة أوباما ، بتغيير هذه الأنظمة الدكتاتورية ، بعد الذي شاهدوه في العراق ، بعد ٢٠٠٣ ، وسيطرة المليشيات الدينية المختلفة على الشارع والدولة العراقية ، أو أن يقوموا بالإطاحة بهذه الأنظمة . لأنه

ثبُت بالتجربة العراقية (٢٠٠٣-٢٠٠٨) ، أن لا بديلاً علمانياً ليبرالياً قوياً لهذه الأنظمة ، والبديل الوحيد هو حكم الأصولية الدينية المتمثل الآن بشكل واضح بجماعة الإخوان المسلمين والأحزاب الدينية/السياسية المتفرعة عنها ، حيث لا نخب سياسية علمانية قوية تستطيع تسلُّم الحكم وإدارته . وأن الحل الوحيد للإطاحة بهذه الأنظمة الدكتاتورية حلٌ سلميٌ وثقافيٌ وسياسيٌ ، يتمثل في تربية ودعم جيل عريض وكبير من الليبراليين العَلْمانيين في بلد ما من بلدان الدكتاتوريات المتسلطة ، يكون بمثابة البديل في المستقبل . ولكن رغم كل هذه الصيحات والشعارات الأصولية ، لم تلقَ دعوة مثل «الولاء والبُراء» أية استجابة من سائر الأنظمة العربية التي والت الغرب «الكافر» ، وتبادلت معه العلاقات الدبلوماسية ، والمصالح والمنافع . كذلك فإن دولة إيران ، ودولة طالبان ، في أفغانستان ، ودولة «حماسوان» في غزة ، لم تجد لنا الحل في «الدولة الإسلامية» ، التي أقاموها في هذه البلدان .

-٣-

والجدير بالذكر ، أن هذه الفاشية الدينية ، التي تمثلها الأصولية الدينية ، لم تكن غير فاشية سُنيّة بالدرجة الأولى . ولم يكن المسلمون الشيعة ، قبل ثورة الخميني عام ١٩٧٩ يشاركون السُنَّة في هذه المقولات . مع ملاحظة أن الشيعة الرسمية الحاكمة في إيران ، هي التي تبنّت مثل هذه المقولات ، بينما بقيت الأصولية الشيعية المتمثلة بالعلماء والحوزات العلمية والمفتين الفقهاء ، بعيدة عن هذه

المقولات الفاشية المتطرفة ، التي اعتادت أن تُفسِّر النصوص المقدسة تفسيراً حرفياً ضيقاً ومتجنياً .

-٤-

هل يُعدّ الإخوان المسلمون هم صانعي الدكتاتورية العربية وداعميها؟

هكذا اعتبر الكسندر آدلر المحلل والمؤرخ السياسي والكاتب في صحيفة «الفيغارو» الإخوان المسلمين . وقال :

«رغم كل شيء ، فإنني أفضّل أن يُرشِّح العسكريون من أن أرى هؤلاء (الإخوان المسلمون) يفوزون في انتخابات حرة . أنا أؤيد إبقاء الدكتاتوريات المستنيرة بقدر الإمكان ، أو حتى غير المستنيرة البتة ، بدلاً من تطبيق مبادئ الديمقراطية ، في هذه البقعة من العالم ، الأمر الذي لن يجلب في الوقت الحالي سوى الفوضى والعنف» .

ولنعلم أن هذا الكلام ، قد قاله آدلر ، عام ٢٠٠٤ بعد الحملة على العراق ٢٠٠٣ ، وبعد أن تبين له الخيط الأبيض من الخيط الأسود ، وهو الرائي السياسي والمفكر الإستراتيجي ومؤلف الكتاب المثير «الأوديسة الأمريكية» ، الذي قال فيه «إن أمريكا آخذة في فقدان قوتها ، وإنها تعيش بداية نهاية عصر القوة الأميركية الطاغية» . فلا غرابة في ذلك ، فهذا هو مجمل الكلام ، الذي قيل في معظم أنحاء فرنسا ، وعلى رأس كل هؤلاء جاك شيراك ، وموقفه الواضح من الحملة على العراق .

-٥-

وآدلر هنا ، يهمنا كثيراً ، لأنه من بين أبرز ثلاثة باحثين فرنسيين معاصرين ، من المهتمين بالإسلام السياسي في العالم العربي وهم : فرانسوا بورغا مؤلف كتاب «الإسلام السياسي في زمن القاعدة» ، وأوليفيه روا مؤلف كتاب «تجربة الإسلام السياسي» ، والكسندر آدلر مؤلف كتاب «موعد مع الإسلام» .

وأهمية آدلر تنبع من كونه الباحث الفرنسي اليهودي ، الذي تناول بتشدد فكري منهجي ، مسألة الحركات الإسلامية السُنيّة ، التي يعدّها الكاتب من أهم القضايا المعاصرة ، التي تستدعي الدراسة والتحليل . ففي أشكالها - كما يقول زهير الكسّاب - الأكثر راديكالية ، تجد الحركات الإسلامية السُنيّة تعبيرها في أصولية سلفية ، تنهل من نظريات فقهية متشددة ، منتشرة في العديد من البلدان ، سواء كانت عربية أم إسلامية . وهو ينظر إلى التاريخ العربي الحديث نظرة موضوعية إلى حد كبير . فمثلاً يفسر صعود الإسلام السياسي في العالم العربي في الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الأولى وإلى الآن ، ويرد أسباب هذا الصعود على هذا النحو من العلو والاتساع ، وطغيان السلفية / الأصولية الدينية على الإعلام العربي ، والشارع العربي على هذا النحو إلى التالي :

١- بعد نيل الاستقلال من الاستعمار العثماني ، الذي دام أربعة قرون (١٥١٧-١٩١٨م) للعالم العربي ، انتظرت الأصولية السُنيَّة الوحدة العربية الإسلامية الجامعة ، التي تعوّضها عن

الخلافة الإسلامية فلم تأتِ . فقد كانت الخلافة العثمانية ، تُعدّ في ذلك التاريخ ساقطة ومنهارة فعلياً ، منذ أن انتهى عهد السلطان الأحمر (سُمّي بالأحمر لكثرة ما سفك من دماء معارضيه ، عرباً وأتراكاً) عبد الحميد الثاني (١٨٤٢-١٩١٨) . وجاء من بعدة ثلاثة سلاطين ضعاف جداً هم : محمد الخامس رشاد ، ومحمد السادس وحيد الدين ، وعبد المجيد الثاني . وسقطت الخلافة رسمياً على يد كمال أتاتورك عام ١٩٢٤ .

بعد سقوط الخلافة العثمانية عام ١٩٢٤ ، قامت حركة الإخوان المسلمين عام ١٩٢٨ ، لتعيد حكم الخلافة الإسلامية . وساهم شيوخ الأزهر ، وعلى رأسهم الشيخ المراغي في عهد فؤاد الأول مع الإخوان المسلمين في الدعوة ، لخلافة الملك فؤاد الأول ، لكن كتاب على عبد الرازق (الإسلام ونظام الحكم ، ١٩٢٥) أجهض المحاولة . فعاد الأزهر مع الإخوان المسلمين (كانوا يطلقون على الديوان الملكي المليء بالعاهرات الإيطاليات في ذلك الوقت «الديوان الإسلامي» ، وكانوا يهتفون في المظاهرات للملك فاروق : «الله مع الملك» ، مقابل هتاف حزب الوفد : «الشعب مع سعد») وكرروا المحاولة مع الملك فاروق ، إلا أنهم فشلوا .

وغاب عن آدلر أن تجارب الوحدة العربية قد تكررت بعد ذلك ، وحتى قبل الاستقلال منذ ١٩٢٣ . ويُعدد يوسف خوري المشاريع الوحدوية العربية التي قامت ، ولم تستمر منذ

١٩١٣-١٩٨٩ ، بنحو مائة مشروع وحدوي ، قام وفشل .[1]
وهذا الفشل ، جعل الجماهير العربية توقن بأن الأحزاب والنخب والأنظمة العربية غير جادة وغير قادرة على تحقيق حلم الوحدة العربية ، وأن الأحزاب الدينية ربما تكون أقدر على تحقيق ذلك ، فآمنت برسالتها ، واصطفت وراءها ، وتشيعت لها .

٢- تراجُع الأيديولوجيات الرئيسة في العالم كالماركسية والوجودية والبنيوية واختفاء المراجع المعتادة ، وسقوط منظومة الاتحاد السوفيتي ، وما ترك من آثار على الفكر السياسي العربي ، وعلى الساحة السياسية العربية كذلك . فوجدت الأحزاب والجماعات الإسلاموية فرصتها الذهبية ، في أن تملأ الفراغ الذي تركته الأحزاب الشيوعية والقومية في الشارع العربي . كما أن سقوط منظومة الاتحاد السوفيتي ، ذكّر الأحزاب والجماعات الإسلاموية بسقوط الإمبراطورية الفارسية في معركة القادسية عام ٦٣٧م ، مما جعل هذه الأحزاب ، وهذه الجماعات ، تتخيل بأن قيام الإمبراطورية العربية الإسلامية تحت قبة الخلافة الإسلامية ، أمرٌ محتمل الوقوع ، وقريب المنال .

٣- ومما زاد في دسم الخيال الديني لدى الأحزاب والجماعات الإسلاموية ، وقوع كارثة ١١ سبتمبر ٢٠٠١ ، التي اعتبرتها

---

(١) يوسف خوري ، «المشاريع الوحدوية العربية ١٩١٣-١٩٨٩» .

الأحزاب والجماعات الإسلاموية «بمثابة استعادة لغزوة مؤتة عام ٦٢٩م ، التي كانت فاتحة الصراع بين الإسلام والإمبراطورية البيزنطية المسيحية . وبما أن ثمانية قرون قد فصلت في الماضي هذه المواجهة الأولى غير المتكافئة بين المسلمين والروم عن سقوط القسطنطينية بأيدي السلطان العثماني محمد الفاتح ، فإننا ندرك كم سيكون كبيراً تفاؤل أصحاب هذا الوهم ، بأن يتحقق يوماً ما ، وأن يتحقق معه قدر التاريخ ونهايته المحتومة .»[١]

٤- لقد لعبت الدول الغربية دوراً كبيراً في دعم وتقوية الأحزاب والجماعات الدينية في الفترة الممتدة من ١٩٥٠-١٩٩٠ ، وأعدّت هذه القوى السياسية الدينية لكي تكون ستاراً ومواجهة ، في وجه المد الشيوعي في الشرق الأوسط ، وما تبعه من مدٍّ اشتراكي ناصري عربي . ولعل الدعوة إلى «حلف بغداد» في الخمسينات ، والدعم الأمريكي لقوات طالبان ، والمقاتلين معها ، من العرب والمسلمين ، في أفغانستان ، ضد الاحتلال السوفيتي ، وغيرها من مناسبات الدعم ، كانت من العوامل التي قوّت شوكة الأحزاب والجماعات الإسلاموية ، في العالم العربي .

٥- حماية واحتضان جماعة الإخوان المسلمين واحتضانها على الخصوص ، من قبل بعض الدول الخليجية في الستينات ، وما

(١) محمد الحداد ، «ديانة الضمير الفردي» ، ص٧-٨ .

بعدها . وغمرها بالدعم المالي والسياسي ، مما مكّنها من التسرب إلى المناهج الدراسية ، ووضع المناهج الدينية الدراسية المتفقة مع أيديولوجيتها ، وكذلك عَمَلُ أعداد كبيرة من المدرسين والمدرسات المنتمين إلى الإخوان المسلمين ، في سلك التعليم المدرسي والجامعي . (كان محمد قطب معلّم أسامة بن لادن في جامعة الملك عبد العزيز في جدة في السبعينات .) كذلك التسرب إلى أجهزة الإعلام المختلفة ، وبث أيديولوجية الإخوان من خلالها . . كل هذا ساعد الإخوان على نشر فكرهم ، وكسب مزيد من الأتباع ، في صفوفهم .

٦- ازدياد الطلب الاجتماعي على الدين في ظل البطالة ، وتدهور الأحوال الاقتصادية في العالم العربي ، وخسران الحروب العربية - الإسرائيلية ، وسيطرة الدكتاتوريات الحزبية والعسكرية والعشائرية على أنظمة الحكم في العالم العربي . فتحجّبت المرأة العربية المسلمة من جديد ، وبُعثت شعارات ماضوية كـ «الإسلام هو الحل» ، و «الولاء والبراء» ، و«دار الحرب ودار الإسلام» وغيرها من الشعارات العاطفية الموجعة . وأُنشئت المحطات التلفزيونية الفضائية الدينية المتخصصة بالوعاظ والإرشاد وإصدار الفتاوى ، وكثر الطلب على الفتاوى الدينية في كل شؤون الحياة الكبيرة والصغيرة ، وبرزت مجموعة من الدعاة الدينيين بشكل وطراز جديدين ومعاصرين وكأنهم نجوم سينمائية ، وأخذت مجموعات من الفتيان والفتيات تلتف حولهم ، خاصة عندما أفتوا عدة فتاوى

متسامحة في العلاقات الاجتماعية بين الفتيان والفتيات ، تبيح ما كان يُعتقد أنه محرم وغير مباح . وبلغ دخل واحد منهم (عمرو خالد ، وهو مصري ، وخرّيج كلية التجارة ، ولم يدرس العلوم الدينية قط) السنوي - حسب مجلة «فوربس» - لعام ٢٠٠٧ حوالي ٥٢ مليون دولار ، إلى جانب عدة نجوم دينيين ، بلغ دخلهم السنوي أقل من هذا . وهكذا أصبح الدين - وخاصة في مصر ودول الخليج - بضاعة رابحة ، يصل حجم تجارتها سنوياً إلى عشرات الملايين من الدولارات .

الأصولية والإرادوية

-١-

الإرادوية ، مصطلح سياسي يعني الاستعلائية ، وفرض إرادة الحاكم ونزعته الدكتاتورية ، على التاريخ ، والتي يحاول بها - عبثاً - أن تغلب إرادة التاريخ . وبذا ، فالإرادوية هي بكل بساطة ، إرادة ما لا يريده التاريخ . والإرادوية ، هي التي تضع الرغبات فوق التاريخ ؛ أي إنها تحيد عن مسارات التاريخ الحتمية . يقول المفكر المغربي عبد الله العروي «إن المجتمع الذي يتمشى على ضوء النظرة التاريخانية يسود العالم . ولم يستطع أي مجتمع كان ، المحافظة على مقامه وحقوقه إلا بالخضوع للمنطق الجديد . أما الوفاء لرؤية خصوصية ، دون أدنى أمل في تعميمها وفرضها على الغير ، فإنه لا يؤدي إلا إلى كلام غير مسموع ؛ أي إلى اللغو في ميدان العلاقات الدولية . فالوعي التاريخي هو منطق العمل والإنجاز .»(١)

وترتهن الأصولية لـ «الإرادوية» ، التي تريد ما لا يريده التاريخ ، حيث إن الأصولية تسير دائماً عكس مسار التاريخ .

---

(١) «العرب والفكر التاريخي» ، ص ٦١ .

-٢-

تنتشر الإرادوية الآن في العالم العربي انتشاراً واسعاً ، وتتمثل أكثر ما تتمثل بالأنظمة الدكتاتورية العسكرية ، والحزبية ، والقبلية الحالية ، وهي ادعاء هاذٍ بمعرفة المستقبل ، والسيطرة عليه ، والقدرة على تحقيقه طوعاً ، أو كرهاً .

والأصولية المرتهنة للإرادوية ، تحاول من جانبها ، أن تفرض على التاريخ ولادة غير طبيعية ؛ أي ولادة قيصرية وقسرية .

فإذا كان التاريخ الحديث يسير تجاه الحوار ، والمفاوضات ، والتفاهم ، وحلٍّ النزاعات سلمياً بين الأفراد والشعوب ، فالأصولية المرتهنة ، تُصرُّ على جعل العنف الطريق الوحيد والمعتمد لسير التاريخ . وهذه كانت من النتائج القائمة الآن على أرض الواقع العربي ، والمتمثلة بعدم التفريق بين القرآن والسلطان ، والخلط بينهما ذلك الخلط الخطير والمدمر ، على الساحة العربية الآن ، وذلك من أجل أن يظل حلم الاستيلاء على السلطة قائماً لدى الأصوليين ، باعتبار أن الأصولية حركة سياسية بالدرجة الأولى ، وليست دينية كالسلفية .

-٣-

فمن الواضح والمعلوم ، أنه تمَّ التفريق بين القرآن والسلطان منذ ١٤ قرناً ؛ أي إعلان فصل الدين عن الدولة (وما نُطلق عليه اليوم بالعَلْمانية) منذ اعتلاء معاوية بن أبي سفيان عرش الدولة الأموية ، وتوقفه عن إمامة الصلاة . وأكد هذه العَلْمانية صراحة الخليفة عبد

الملك بن مروان . فحين سمع بنبأ توليه الخلافة ، وهو يقرأ القرآن ، أطبق عندها القرآن ، وقال : «هذا آخر عهدي بك» . وفي أول خطبة صلاة جمعة له ، وقف على المنبر ، وقال مهدداً المصلين : «والله لو سمعت أحدكم يقول لي اتقِ الله لقطعت لسانه» . ومنذ ١٤٦٦ عاماً ، والقرآن بعيد عن السلطان ، بُعد الأرض عن السماء . والخلفاء خلال هذه المدة ، كانوا يمارسون ما أُطلقُ عليه «عَلْمانية الغانيات» . فحيناً يُقرّبون منهم رجال الدين لحاجةٍ لهم بهم ، وحيناً آخر يبعدونهم لعدم حاجتهم لهم . والمهم كما قال لهم مؤسس «عَلْمانية الغانيات» ، معاوية بن أبي سفيان :

«أنظروا . . نحن لا نُفرّق بين الناس وألسنتهم ، ما لم يُفرّقوا بيننا وبين سلطاننا» ؛ أي إن الدين لكم ، تكلموا فيه كما تشاءون ، والدولة لنا ، فإياكم والمساس بها .

وهكذا أصبح الفراق بين القرآن والسلطان ، حتماً وقدراً مقدوراً ، وواقعاً معاشاً ، واكتسب بحكم تاريخه الطويل (أكثر من ١٤٦٦ سنة) شرعية تاريخية ، سيما وأن الخلفاء العباسيين في نهاية عصرهم الثاني (٨٤٧-١٢٥٨م) (عصر الانحطاط) في القرنين الحادي عشر والثاني عشر للميلاد ، منحوا شؤون الدولة للسلاطين البويهيين ثم السلاجقة ، واحتفظوا هم بالخلافة الدينية فقط . وتحققت العَلْمانية بالقلم العريض هذه المرّة دون جدل ، وقبل أن تتحقق العَلْمانية في أوروبا بالإصلاح الديني بعدة قرون ، وتنتهي إلى ما انتهت إليه الآن .

-٤-

ورغم هذا ، فما زال زعماء الأصولية الدينية اليوم ، الذين يحلمون بالرئاسة وزعامة السياسة كأنور الجندي ، ويوسف القرضاوي ، وراشد الغنوشي ، وحسن الترابي ، ومهدي عاكف وكثير غيرهم في الخليج العربي ، يرمون العَلْمانية بالكفر والإلحاد ، ونكران رب العباد ، لا لشيء ، إلا لأنها تنكرُ عليهم العمل في السياسة ، وترفض إعطاءهم مُلكية الدالين معاً : دال الدين ، ودال الدنيا .

الأصولية والحقيقة المطلقة

-١-

تعتقد الأصولية بأنها تملك الحقيقة المطلقة ، ولذا تبدو أمام الآخرين متعصبة . وكان برونو إيتيين أحد الباحثين المتخصصين في الشؤون الإسلامية ، قد قال مرة : «إن المتعصب هو من يمتلك الحقيقة المطلقة ، بل إنه الحقيقة ذاتها . وهو لا يعرف معنى الشك ، ولا البحث المتدرج ، أو الصعب البطيء ، من أجل الوصول إلى الحقيقة . ولا يعرف إلا اليقين المطلق» .

ويضيف إيتيين في كتابه (هواة نهاية العالم : لكي نفهم أحداث ١١ سبتمبر) فيقول : عندما يجد الأصولي ، أن العالم يبتعد عن الحياة الدينية ، كما يتصورها هو ، أو يعيش حياة الجاهلية ، كما يقول سيّد قطب ، فإنه يحاول تقويمه . وإذ لم ينجح في ذلك ، يسعى إلى تدميره عن طريق العنف . فالعالم الملوّث غير الطاهر ، لا ينبغي أن يستمر على وجه الأرض ، لذا ، فإن أكثر الغلاة تعصباً ، يهجرون مجتمعاتهم ، ويذهبون إلى الصحراء ، أو الكهوف في الجبال ، هرباً من الفساد العام الشامل . وهذا ما فعله زعماء وأنصار «القاعدة» ، رغم أنهم يُصنّفون بأنهم «سلفيون

جهاديون» ، وليسوا بأصوليين .

-٢-

من ناحية أخرى ، فإن الأصولي المتزمت - كما يقول هاشم صالح - لا يعترف بالمجتمع المدني كقيمة بحد ذاتها ، لأن الحياة الدنيا لا تساوي شيئاً في نظره ، وإنما هي مجرد ممر إلى الحياة الأخرى . وهو يقرأ القرآن قراءة حرفية متزمتة ، ويستشهد بالآية ﴿وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو﴾ (الأنعام : ٣٢) . وتكررت هذه الآية في خمس سور . كما أن الأصولي لا يعترف بالقانون ، ولا بحرية التفكير ، ولا بالتسامح ، ولا بحقوق الإنسان ، ولا بأي قيمة من قيم العالم الحديث ، لأنها قيم برجوازية ، ومادية ومبتذله ، ومقطوعة عن التعالي الرباني ، ولهذا السبب يدين الأصولي الحضارة الحديثة كلها جملة وتفصيلاً .[١] ويرميها بالجهالة ، ويطلق عليها «جاهلية القرن العشرين» كما أطلق عليها سيّد قطب عام ١٩٦٤ [٢] ، وشقيقه محمد قطب من بعده عام ١٩٩٢ .[٣]

-٣-

وموقف الأصولية من كل هذه القضايا ليس قاصراً على الأصولية الإسلامية . فالأصولية المسيحية والأصولية اليهودية ،

---

(١) هاشم صالح ، مصدر سابق ، ص ٨٧ .

(٢) أنظر كتاب سيد قطب ، «معالم في الطريق» .

(٣) أنظر كتاب محمد قطب ، «جاهلية القرن العشرين» .

تتخذان المواقف نفسها التي أخذتها الأصولية الإسلامية تجاه القضايا السابقة ، وتجاه قضايا الحجاب ، وحرية المرأة ، وتحديد النسل ، والإجهاض ، وحرية الاعتقاد ، وتَعدّان العَلْمانية والليبرالية والحداثة كفراً وإلحاداً . وأن قانون الله هو القانون الوحيد المطلق ، الذي يجب اتباعه والأخذ به . وهو يتفوق على قانون البشر الوضعي . وكل أصولية تعتبر دينها هو أكمل الأديان ، وأكثرها شمولاً ، وأبرزها في خدمة الإنسان ، وحمايته ، في الدنيا والآخرة . ولم تكن الأصولية الإسلامية وحدها هي التي دخلت في حرب لا هوادة فيها ضد العَلْمانية ، والليبرالية ، والحداثة . ولكن الأصوليتين المسيحية واليهودية ، قامتا بالحرب نفسها ، وربما بضراوة أشد . وما زالت آثار هذه الحرب قائمة ، وإن كانت نارها قد خفتت بفعل الزمن ، وبفعل التقدم العلمي المذهل في العصر الحديث ، وإنجازاته المبدعة ، في كل مجال من مجالات الحياة .

-٤-

من ناحية أخرى تتفق كل الأصوليات الدينية بلا استثناء ، على أن كل القوانين الأرضية قوانين باطلة ، وأن قانون الله وحده هو الذي يجب أن يسود . وإضافة لما ذكرناه من معارضة الأصوليات لكل قيم المجتمع المدني الحديث ، تعارض هذه الأصوليات الديمقراطية ، كما تعارض التعددية الحزبية ، وتعتبر أن الحزب الوحيد الذي يجب أن يحكم البلاد ، هو حزب الله .

الأصولية والشعبوية

-١-

يقول لنا المفكر التونسي العفيف الأخضر :

«الشخصية الشعبوية[1] الأصولية ، لا تفعل في الواقع غير إسقاط المشاعر الشريرة الكظيمة داخلها على الآخر» . ولذلك يُعيّر الأصوليون الليبراليين دائماً ، بأنهم عبارة عن مجموعات من المرتزقة ، الخوارج ، العملاء لأمريكا وإسرائيل والشيطان . وأنهم ملاحدة ، كفرة ، فجرة ، يسعون إلى تقويض الدين ، والقومية ، وضياع الهوية . وكل هذه التهم ليست جديدة على فكر الليبراليين الجديد . فليس لدى الأصوليين ردٌ على خطاب الليبراليين ، غير رميهم بهذه التهم .

فمنذ مطلع التاريخ والفكر الجديد المعارض والرافض للثبات المطلق ، يُرمى بهذه التهم ، أو بما هو أقبح منها ، وأكثرها بذاءة . واقرأوا ماذا فعلت الكنيسة بالتنويريين الأوروبيين في القرنين السابع عشر والثامن عشر .

---

(١) الشعبوية popularism سبق أن شرحنا معنى هذا المصطلح ، في فصل سابق ، من هذا الكتاب .

-٢-

كثير من القراء ، اعتبروا أن انتصار الثورة الأصولية الإيرانية عام ١٩٧٩ ، وإنشاء «حزب الله» الأصولي في لبنان عام ١٩٨٧ ، وفوز حركة «حماس» الأصولية بالحكم عام ٢٠٠٦ ، وفوز «جماعة الإخوان المسلمين» الأصولية بمصر بـ ٨٨ مقعداً في انتخابات مجلس الشعب ٢٠٠٧ ، انتصارات كبيرة وساحقة ومختلفة في مواقع متعددة للأصولية . ولكن الواقع والحقيقة والتاريخ يقولون لنا ، إن هذه «النجاحات» ما هي إلا بداية نهاية الأصولية في العالم العربي . وهي خطوات ضرورية وواجبة لتجاوز الأصولية والقُدامة في العالم العربي ، تطبيقاً لمبدأ فلسفة التاريخ الهيجلية :

«التجاوز شرط التحقيق» .

والأصولية لن تنتهي من العالم العربي مطلقاً ، كما أنها لن تنتهي كليةً من العالم كله ، ولكن غلبة التيار الليبرالي لن تتحقق - وتلك هي المفارقة العجيبة وكيد التاريخ - إلا إذا مارست الأصولية دورها في الحكم ، وأثبتت فشلها أمام الجميع ، كما تم مع «حماس» في غزة ، وحكم الملالي في إيران منذ ١٩٧٩ .

-٣-

الأصولية تعني العنف دائماً .

ومن هنا تأتي كراهية الأصولية الشديدة للديمقراطية ، وتعدّها قيمة سياسية غربية مستوردة . وهي بدعة من بدع الغرب . فالديمقراطية تعني إلغاء علاقات العنف بين الحاكم والمحكومين ،

وإحلال علاقة الحوار محلها . ولهذا ، فهي مكروهة لأنها تلغي من الأصولية أساساً من أركانها ، وهو العنف ، الذي نشهده هذه الأيام ، في كل مكان .

فكراهية الأصولية للآخر ، وحرصها على الانفراد بالفكر ، والواقع ، والإنجازات يولّد لديها العنف دائماً . فالأصولية ترفض رفضاً قاطعاً الحضارة الغربية وقيمها . وتفضّل الاستمتاع بإبداع هذه الحضارة ، دون الأخذ بقيمها ، علماً بأن أكثر من ثلثي العالم العربي يتمسك ويمارس القيم الغربية الآن ، وخاصة فيما يتعلق بالمرأة وشجونها ، الذي أصبح الشغل الشاغل ، والهم الماثل للأصولية .

الأصولية والدكتاتورية

-١-

كانت الأصوليات صانعة للدكتاتوريات .

وكانت الشعوب على مر العصور والأزمان ، تقبل بحكم الدكتاتوريات ، وتفضله على حكم الأصوليات الدينية . وكان ساعد الدكتاتوريات يشتد وشوكتها تقوى ، في أزمنة الخوف من الأصوليات القوية . ولو نظرنا إلى مصر - مثلاً - منذ عام ١٩٥٢ إلى الآن ، لوجدنا أن الشعب المصري والشارع المصري ، يفضلان الحكم الدكتاتوري بكل مساوئه ورزاياه على حكم الأصولية الدينية المتمثل بالإخوان المسلمين . كذلك الحال في سوريا . وكان كذلك الحال في العراق ، في عهد صدام حسين . وهذا كله دفع باحثاً فرنسياً - كما سبق وقلنا - كإسكندر آدلر إلى أن يقول : «إنني أؤيد إبقاء الدكتاتوريات المستنيرة بقدر الإمكان ، أو حتى غير المستنيرة البتة ، من أن أرى الإخوان المسلمين في الحكم» .

-٢-

وبهذا حمت الأصولية الدينية في العالم العربي - من حيث

لا تشعر ، ولا تريد - الدكتاتوريات العربية ، سواء منها الحزبية ، أو العسكرية ، أو القبلية من السقوط وخاصة الأنظمة الملكية ، التي كانت تخشى المدّ القومي الاشتراكي الناصري ، الذي كان يستهدفها بالدرجة الأولى . فقد رغبت - كما يقول فرانسوا بورغا - «أنظمة الحكم في الخليج ، والأردن ، والمغرب العربي ، في حماية نفسها من الأنظمة البعثية والناصرية بالاعتماد على خصوم هذه الإيديولوجيات ، ومنهم الإخوان المسلمون .»(١) وكان من الصعب على هذه الأنظمة ، الانقطاع عن الأصوليين ، رغم معرفتها بخطرها المحدق . ولكن حاكماً نادراً كبورقيبة ، استطاع أن ينقطع عن هذه الأصوليات ، «بخطاب علماني صريح ، أو حتى لا ديني . وهو من دفع إلى أبعد مدى الحدّ الفاصل للخطاب السياسي ، تجاه الفئات الرمزية للإرث الإسلامي .»(٢) وأصبح الغرب الحريص على دعم الديمقراطية في العالم العربي ، لا يتردد في دعم هذه الدكتاتوريات خوفاً من سقوطها فعلاً ، ومجيء الأصولية كالإخوان المسلمين والأصوليات الدينية الأخرى إلى الحكم . وقام الشرق (الاتحاد السوفيتي) بدعم الدكتاتوريات العسكرية والحزبية في مصر ، وسوريا ، والعراق ، والجزائر ، وجنوبي اليمن ، خوفاً أيضاً من سيطرة الحكم الأصولي عليها .

(١) فرانسوا بورغا ، مصدر سابق ، ص ٨٤ .

(٢) فرانسوا بورغا ، مصدر سابق ، ص ٨٤ .

-٣-

وهكذا حمت الأصولية الأنظمة العربية كافة ، التي قامت في النصف الثاني من القرن العشرين ومطلع القرن الحادي والعشرين ، من الانهيار . وكلما حاولت المعارضة العربية إقناع الغرب بضرورة الضغط والمساعدة على إسقاط الدكتاتوريات ، كان جواب الغـــرب :

وما هو البديل؟

فلا بديل للدكتاتوريات في العالم العربي ، غير حكم الأصوليات . والغرب يفضل حكم الدكتاتوريات المستبدة في العالم العربي ، على حكم الأصوليات ، كما أعرب عن ذلك الكسندر آدلر . ولهذا يُبقي الغرب على الدكتاتوريات العربية القائمة ، خاصة بعد المأزق الأمريكي في العراق ، وانتقال العراق من تحت مزراب دكتاتورية صدام حسين إلى دلف الأصوليات الدينية الحاكمة الآن في العراق . وبعد أن أصبح طيف الأصولية الإسلامية العدو العالمي رقم واحد .[١] ولكن هذا الطيف قد أفاد مسيرة الديمقراطية في أوروبا ، وليس العالم العربي - الذي لم يذق طعم الديمقراطية بعد - من حيث لم تشعر الأصولية ولم تحتسب . وهذا ما يؤكده بورغا نفسه في كتابه ، حين يقول : «لو أن ابن تيمية أو سيّد قطب لم

---

(١) فرانسوا بورغا ، مصدر سابق ، ص ١٢ . ومن الجدير بالذكر أن فرانسوا بورغا ، كان مديراً للمركز الفرنسي لعلم الآثار والعلوم الاجتماعية في صنعاء . وقد قضى ست سنوات في اليمن والجزيرة العربية ، وهو أيضاً مؤلف كتاب «الإسلام السياسي وجهاً لوجه» .

يخترعا الإسلام السياسي ، ما كان العالم بأكمله ، ليتذوق أخيراً طعم هناء الديمقراطية العَلْمانية .»

-٤-

ومن مكر التاريخ - كما يقول هيجل - أن الأصولية التي حمت الدكتاتوريات العسكرية والحزبية من السقوط ، هي نفسها الأصولية التي نبتت كالطحالب على جروح وانكسارات وخيبة هذه الدكتاتوريات .

فهزيمة عبد الناصر في ١٩٦٧ ، واتفاقية كامب ديفيد ١٩٧٩ ، والغزو الإسرائيلي للبنان ١٩٨٢ ، واتفاقية أوسلو ١٩٩٣ ، وقمة شرم الشيخ ١٩٩٦ ، وفشل كل محاولات السلام العربي - الإسرائيلي ، وغير ذلك من الخيبات العربية ، هي التي ضبطت إيقاع التعبئات الإسلامية الوطنية ، على حد تعبير فرانسوا بورغا .

-٥-

اشتد الخلاف بين الأصوليين وبين الليبراليين ، بعد غزو قوات التحالف للعراق . وكانت نقطة الخلاف ، أن الأصوليين اعتبروا هذا الغزو بمثابة عودة الاستعمار إلى العالم العربي من جديد ، بعد أن خرج آخر جندي من العالم العربي عام ١٩٧٠ عندما استقلت الإمارات العربية المتحدة . كما اعتبر الأصوليون ، أن هذا الغزو ليس من أجل القضاء على أية شبهة لامتلاك صدام حسين أسلحة الدمار الشامل ، وليس من أجل القضاء على أعتى نظام دكتاتوري

في العالم العربي ، ولكن من أجل السيطرة على حقول النفط العراقية الغنية ، باعتبار أن العراق يملك أكبر مخزون للبترول في العالم بعد السعودية . وبذا ، فإن هذا الاحتلال ، هو استعمار عسكري واستثماري . فيما لو علمنا أن أنواع الاستعمار ستة :

١- الاستعمار الاستيطاني ، كما إسرائيل في فلسطين ، وفرنسا في الجزائر ، وبريطانيا في جنوبي إفريقيا .
٢- الاستعمار العسكري ، كما فرنسا في سوريا ولبنان ، وبريطانيا في مصر والأردن وفلسطين .
٣- الاستعمار الثقافي ، كما فرنسا في بعض الدول الأفريقية ، وخاصة دول المغرب العربي ، ومعظم الدول الفرانكفونية .
٤- الاستعمار الديني ، كما العرب في الأندلس ، ونواحٍ أخرى من الإمبراطورية البيزنطية والفارسية .
٥- الاستعمار الاستثماري ، كما أمريكا في العراق .
٦- الاستعمار النفطي ، كما سيطرة الشركات الأمريكية والبريطانية على حقول النفط وإنتاجه في الخليج .

-٦-

وجدت الأصولية فرصتها في مقارعة الغرب ، متمثلاً بأمريكا (الشيطان الأكبر) على أرض العراق . وكانت أمريكا لديها الرغبة ذاتها في أن يتجمع كل الأصوليين الإرهابيين على أرض العراق لضربهم مرة واحدة ، بدل أن تكون هذه المعركة على الأرض الأمريكية . فالتقت الرغبتان معاً ، وكان الذي (أكل العصي) هو

العراق الذي أصبح أرضاً للمواجهة ليس بين أمريكا والإرهاب فقط، ولكن بين الأصولية والليبرالية، وبين الحداثة والقُدامة، وبين الاتباع والإبداع، وبين الثابت والمتحول.. الخ. فيما لو علمنا أن الأصوليين، الذين سيطروا على بعض المناطق العراقية إلى حين، كالفلوجة، وبعقوبة، ومحافظة ديالى، وغيرها، حوّلوا هذه المناطق إلى مناطق من طرَاز مجتمعات القرون الوسطى، وعلى طراز أفغانستان في عهد طالبان. ففرضوا الحجاب على النساء، وفرضوا تربية الذقون، وحفَّ الشوارب على الرجال، وأغلقوا دور السينما، ومحلات الأزياء، ومحلات تصفيف الشعر للنساء، ومحلات بيع أشرطة الكاسيت، والأقراص المدمجة CD، والأفلام السينمائية، ومنعوا النساء من الخروج من بيوتهن إلا للحاجة الماسة، واعتقلوا وقتلوا المثقفين الليبراليين. فكان من واجب جزء من الليبراليين العرب الشجعان، أن يؤيدوا غزو العراق - رغم قسوته، ومرارته، وتكلفته العالية من الضحايا والبنية الأساسية - ليس حباً في أمريكا وفي الاحتلال عموماً، فمن يحب الاحتلال؟ ولكن خلاصاً من أعتى الدكتاتوريات في العالم العربي، التي قررت البقاء في الحكم مدة ٥٠٠ سنة. وبدون تدخل عسكري خارجي، ما كان لنظام صدام حسين أن يسقط.[1] فاشتد الخلاف بين الليبراليين وبين الأصوليين المؤيدين لأعمال النحر والانتحار

(١) محمد المشّاط، السفير العراقي السابق في واشنطن، في عهد صدام حسين، جريدة «الحياة»، لندن، ١٨/٤/٢٠٠٨.

والإرهاب في العراق ، تحت مُسمى «المقاومة» و «الجهاد» ، الذي كان موجهاً للشعب العراقي ، ولنخبه الليبرالية ، بالدرجة الأولى . فكانت معظم العمليات الانتحارية تتم بالسيارات المفخخة والأحزمة الناسفة ، في الأسواق التجارية المكتظة بالمواطنين العراقيين ، وفي الأفراح ، وأماكن العزاء العراقية ، وفي مواقف السيارات ، وفي المدارس والمستشفيات ، وفي كل تجمع للمواطنين . وقال الليبراليون عن هذه العمليات الإجرامية إنها الإرهاب بعينه ، بينما قال الأصوليون وإعلامهم الضخم والمؤثر والفعّال في العالم العربي ، والمتمثل بالفضائيات الشعبوية ، بأن هذه العمليات الإجرامية «جهاد» و «مقاومة» . وراحوا يسلّطون الأضواء الساطعة عليها ، ويأتوا لها بالمحللين والمعلقين ، لكي يمدحوا ويمجدوا هذه العلميات الإرهابية ، متمسكين بمقولة ، إنه «لولا الوجود العسكري الأمريكي في العراق لما جرى ما جرى .»

في حين كان موقف الليبراليين من أن ما جرى كان يجب أن يجري ، ولولا الوجود العسكري في العراق ، لظل العراق محكوماً بالطغيان والاستبداد لمدة تزيد على خمسة قرون ، كما قال السفير العراقي السابق في واشنطن محمد المشاط ، قبل قليل .

-٧-

لم تكن الأصولية غاضبة من صدام حسين ، عندما غزا الكويت ، رغم أنها كانت تعلم علم اليقين ، بأنه دكتاتور عاتٍ ، ومسلم رديء ، وسيء السمعة . وكانت رافضة رفضاً باتاً ، نزول

القوات الأجنبية ، في السعودية . كما كانت رافضة رفضاً باتاً ، قيام أمريكا وحلفائها بمحاربة صدام حسين ، وطرده من الكويت . كما لم تكن الأصولية راضية عن عزل صدام حسين ، وانهيار حكمه . وكانت الأصولية في أنحاء العالم العربي كافة ، هي الداعمة الرئيسية لعمليات الإرهاب في العراق ، قولاً ، وفعلاً ، ومالاً ، وتحريضاً . كما أنها كانت غاضبة جداً من شنق صدام حسين ، في فجر أول يوم من أيام عيد الأضحى ٢٠٠٦ .

-٨-

وكانت الأصولية تدعم الأنظمة العربية الدكتاتورية القائمة ، حتى من تطبِّق هوامش من العَلْمانية . وكانت تتمسك بالأحاديث النبوية ، التي تحضُّ على عدم الخروج على الحاكم (الإمام) ، وهي أحاديث مُلفَّقة وموضوعة . لفَّقها ووضعها فقهاء الدولة الأموية ، في بدء نشوئها في عهد معاوية بن أبي سفيان ، ومنها الحديث النبوي ، الذي يقول :

«اسمع لحاكمك وأطعه ، وإن ضرب ظهرك ، وأخذ مالك» .

وكذلك هذا الحديث ، الذي يُنسب في روايته إلى الحسن البصري :

«لا تعصوا أولي الأمر منكم . فإن عدلوا فلهم الأجر ، وعليكم الشكر . وإن بغوا فعليهم الوزر ، وعليكم الصبر . فهو امتحان من الله ، يبتلي به من يشاء من عباده . فعليكم أن تتقبلوا امتحان الله بالصبر والأناة ، لا بالثورة والغيظ» .

ولهذا قال عبد الرحمن الكواكبي في كتابه (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) :

«اللهم إن المستبدين وشركاءهم ، قد جعلوا دينك غير الدين الذي أنزلت ، فلا حول ولا قوة إلا بك» .

أنظمة عربية تتحدى الأصولية

-١-

لقد كان آخر خلاص ، أو مخالفة للشرع ، من قبل كثير من البلدان العربية ، هو إعطاء المزيد من حقوق المساواة للمرأة في العمل والزواج ، وتعيين المرأة في مصر ، وكثير من البلدان العربية قاضية . وعند تعيين ٣١ قاضية في مصر عام ٢٠٠٨ ، احتج رئيس نادي القضاة المصري راغب دكروري على هذا القرار قائلاً : « كيف نترك إجماع الفقهاء بعدم جواز تولي المرأة القضاء ، ونأخذ برأي الحنيفية ، الذين أجازوا لها ذلك ، في غير الحدود والقصاص .» وكان من الواضح ، أن دكروري يريد أن تُعطى هذه الفرص للذكور ، ونسي أن المرأة العربية الآن ، يفصلها عن الفقهاء الأربعة مئات السنين ، تطورت فيها المرأة تطوراً حتى كادت أن لا تكون كنساء ذلك الزمان بتاتاً .

-٢-

واحتجَّ رجالُ الدين على هذه القرارات ، معتبرين أن القضاء ولاية ، وليست وظيفة . وولاية المرأة مكروهة وملعونة ، مستندين

بذلك إلى حديث نبوي : «لعن الله قوماً ولّوا أمرهم امرأة» ، علماً أنه تبعدنا عن السياق التاريخي لهذا الحديث حوالي ١٥ قرناً . إلا أنه إضافة لذلك ، قد قيل في مناسبة خاصة ، وهي تولّي بوران ابنة إمبراطور الفرس كسرى أنو شروان (أشهر ملوك الفرس ، وأعدلهم ، وأحسنهم سيرة) المُلك بعد أبيها . وكان الفرس في ذلك الوقت عبدة للنار غير موحدين ، وكان بينهم وبين المسلمين خصومة دينية وسياسية كبيرة . وكان الحديث النبوي ذاك ، من باب التشفّي في الفرس .

-٣-

وأنا أرى أن المُحاججات التي تقوم بين رجال الدين وباقي مكونات المجتمع العربية حول ما هو شرعي وغير شرعي ، هو من نوع الجدل البيزنطي ، الذي لا يفيد .

فواقع الحياة القوي الآن ، يفرض ذاته ويفرض قوانينه معه . وأصبح القرار فيما هو شرعي وفيما هو غير شرعي قراراً سياسياً . والدليل على ذلك ، أننا وجدنا كيف استطاع كمال أتاتورك بقوته السياسية ، فرض العَلْمانية على تركيا فرضاً ، وإلغاء الخلافة الإسلامية عام ١٩٢٤ . ووجدنا كيف انتصر الرئيس بورقيبة عام ١٩٥٦ في تونس على المؤسسة الدينية التقليدية ، وأقرَّ «مجلة الأحوال المدنية» ، وتبعتها المغرب بعد ذلك ، عام ٢٠٠٣ . ووجدنا كيف أن الأردن ، عيّن في السابق ٣٩ قاضية . وعيّن الملك عبد الله الثاني أول قاضية استئناف في تاريخ الأردن ، وأول رئيسة

محكمة . وأن خليفة بن زايد ، عيّن أول قاضية في الإمارات العربية المتحدة . وأن حسني مبارك عيّن لأول مرة في تاريخ مصر ، ٣١ قاضية ورئيسة محكمة دفعة واحدة ، دون الالتفات إلى الآراء الدينية الأخرى المعارضة . وقال شيخ الأزهر سيّد طنطاوي «إن الشريعة الإسلامية لا تُفرِّق بين الرجل والمرأة في تولي المناصب بما فيها القضاء ، لأنه لا توجد نصوص قطعية تمنعها من العمل قاضية» . وعيّن الملك عبد الله بن عبد العزيز أول امرأة سعودية في مجلس أمناء جامعة «الملك عبد الله للعلوم والتقنية» . كما عيّن الملك عبد الله بن عبد العزيز في عام ٢٠٠٩ أول امرأة سعودية كنائبة لوزير التربية والتعليم ، متحدياً كل التيار الديني المتشدد والمتطرف ، المتمثل بالأصولية الدينية في السعودية .

-٤-

والحياة العربية ، بحاجة إلى قرارات سياسية شجاعة من هذا النوع ، ورجل حُكم قوي ، يستطيع أن يُنفِّذ أحكام الحياة الجديدة المعاصرة ، وسوف يساير رجال الدين ذلك ، ويخضعون لفرضية الحياة الجديدة ، التي تقول لنا :

«إما أن تكونوا بحياتكم ، أو لا تكونوا بحياة أسلافكم .»

الأصولية والحِراك الشعبي

-١-

من بديهيات الليبرالية ، قيام التعددية في المجتمع ، ووجود معارضة دائمة . ومن دون وجود معارضة تنتفي الديمقراطية ، ويتحوّل نظام الحكم إلى نظام دكتاتوري . فلا بُدَّ من وجود معارضة ، تكون قوّامة على الحكومة ؛ أي تراقب أفعالها وقراراتها وخطوتها ، وتنقد هذه الأفعال وهذه القرارات ، نقداً علمياً موضوعياً ، لصالح المجتمع كله .

أما الأصولية فهي تعدّ الاعتراض معارضة . والمعارضة خيانة . فالأمين العام لحركة النهضة التونسية راشد الغنوشي - مثالاً لا حصراً - يكفّرُ في كتابه (الحريات العامة في الدولة الإسلامية) تعدد الأحزاب ويستثني حزباً واحداً هو «حزب الله» ؛ أي الفرقة الناجية الوحيدة . أما الأحزاب المتعددة ، فهي أحزاب مذمومة ، يقابلها حزب واحد ، هو حزب الله . وهو لا يحتاج إلى ترخيص من الحاكم ، لأن ذلك استجابة لأمر الله في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . ولكن مثل هذه الفتاوى لا تلقى صدىً عند الشارع العربي ، في معظم الأحيان .

-٢-

فقد سبق للشيخ صالح بن فوزان الفوزان ، عضو هيئة كبار العلْماء في السعودية ، أن أصدر فتوى دينية في يوليو ٢٠٠٢ ، تُحرِّم الانتخابات والمظاهرات كآلية من آليات الديمقراطية . قال فيها :

«أولاً : إذا احتاج المسلمون إلى انتخاب الإمام الأعظم ، فإن ذلك مشروع ، بشرط أن يقوم بذلك أهل الحل والعقد في الأمة ، والبقية يكونون تبعاً لهم ، كما حصل من الصحابة رضي الله عنهم ، حينما انتخب أهل الحل والعقد منهم ، أبا بكر الصديق رضي الله عنه وبايعوه ، فلزمت بيعته جميع الأمة ، وكما وكَّل عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، اختيار الإمام من بعده ، إلى الستة الباقين من العشرة المبشرين بالجنة ، فاختاروا عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وبايعوه ، فلزمت بيعته جميع الأمة .

ثانياً : الولايات التي هي دون الولاية العامة ، فإن التعيين فيها من صلاحيات ولي الأمر ، بأن يختار لها الأكْفَاء الأمناء ، ويعينهم فيها ، قال تعالى : ﴿إن اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أن تُؤَدُّوا الأمَانَاتِ إلى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتم بَيْنَ النَّاسِ أن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ ، وهذا خطاب لولاة الأمور . والأمانات هي الولايات والمناصب في الدولة ، جعلها الله أمانة في حق ولي الأمر ، وأداؤها اختيار الكفء الأمين لها ، وكما كان النبي صلى الله عليه وسلم ، وخلفاؤه ، فولاة أمور المسلمين من بعدهم ، يَختارون للمناصب من يصلح لها ، ويقوم بها على الوجه المشروع .

وأما الانتخابات المعروفة اليوم عند الدول ، فليست من نظام الإسلام ، وتدخلها الفوضى ، والرغبات الشخصية ، وتدخلها المحاباة والأطماع ، ويحصل فيها فتن ، وسفك دماء ، ولا يتمُّ بها المقصود ، بل تصبح مجالاً للمزايدات ، والبيع ، والشراء ، والدعايات الكاذبة .

ثالثاً : وأما المظاهرات ، فإن الإسلام لا يُقرها ، لما فيها من الفوضى ، واختلال الأمن ، وإتلاف الأنفس ، والأموال ، والاستخفاف بالولاية الإسلامية . وديننا دين النظام ، والانضباط ، ودرء المفاسد . وإذا استُخدمت المساجد منطلقاً للمظاهرات والاعتصامات ، فهذا زيادة شر ، وامتهان للمساجد ، وإسقاط لحرمتها ، وترويع لمرتاديها من المصلين ، والذاكرين الله فيها . فهي إنما بُنيت لذكر الله والصلاة ، والعبادة ، والطمأنينة .

فالواجب على المسلمين ، أن يعرفوا هذه الأمور ، ولا ينحرفوا مع العوائد الوافدة ، والدعايات المضللة ، والتقليد للكفار ، والفوضويين .»

ورغم هذه الفتوى الدينية ، قامت السعودية لأول مرة في تاريخها ، بإجراء انتخابات للبلديات عام ٢٠٠٤ ، كما أن انتخابات أعضاء إدارة الغرف التجارية السعودية تجري ، منذ أن تمّ إنشاء أول غرفة تجارية سعودية ، في جدة عام ١٩٤٦ .

-٣-

من ناحية أخرى ، أفتت الأصولية بعدم جواز قيام الإضرابات العامة ، احتجاجاً على سياسة الدولة .

ففي مصر قامت إضرابات واسعة ، في شهر ابريل ٢٠٠٨ ، احتجاجاً على رفع الأسعار ، وعدم توفر بعض الأغذية . فعارض شيخ الأزهر ، والشيخ يوسف البدري هذه الإضرابات ، وأفتيا بعدم جواز هذه الإضرابات شرعاً . وقال الشيخ سيّد طنطاوي شيخ الأزهر : «إن الإضراب لا يجوز من الناحية الشرعية ، لأنه يعمل على تعطيل المصالح العامة للمسلمين ، وهو ما ترفضه الشريعة الإسلامية ، والأديان السماوية» .

وأضاف : «أنا شخصياً ذهبت إلى عملي ، وذهب كل العاملين ، في مشيخة الأزهر إلى العمل . وإنني أدعو الناس إلى الذهاب إلى عملهم ، وعدم الاستجابة لمثل هذه الأشياء ، التي تضر أكثر مما تنفع .»

وأوضح طنطاوي : «إن الإضراب ، يجب أن يكون بإذن من السلطات المختصة ، لأنها الأكثر حرصاً على المصالح العامة ، حتى لا يقع الضرر على المؤسسات والهيئات ، التي تعمل على تسيير مصالح الناس» .

واتفق الداعية الشيخ يوسف البدري مع شيخ الأزهر وقال : «عدم وجود شيء اسمه إضراب عن العمل ، أو مظاهرات في الإسلام ، لأن كل هذه الأعمال ، ليس لها سند في الأثر ، وعلى الناس أن تذهب إلى العمل ، ولا تتوقف عن تسيير مصالحها» .

وأضاف : «لم يحدث على مدار التاريخ الإسلامي ، أن حدثت إضرابات ، أو مظاهرات ، لا في عهد الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، ولا في عهد الصحابة . ولم نسمع عن أناس أضربوا عن

العمل ، بسبب ارتفاع الأسعار ، وإنما كانوا يصلّون لله ويرفعون أيديهم بالدعاء إلى الله ، لرفع البلاء ، بدلاً من تعطيل العمل» .

وأشار البدري إلى أن ظاهرة الإضرابات مستحدثة ، ومستوردة من الخارج ، ولا يجب أن نأخذ المساوئ المناوئة للشريعة ، ونترك المزايا .

وقد اختلف عميد كلية أصول الدين السابق ، الدكتور منيع عبد الحليم محمود مع الآراء السابقة ، وقال «إن الإضراب جائزٌ شرعاً ، لأنه يعني حالة احتجاج على وضع يجد فيه الإنسان نفسه مظلوماً ، فمن حقه التعبير في هذه الحالة عن هذا الرأي ، بكل وسيلة ممكنة ، ومنها الإضراب» .

وعن الدليل الشرعي على الاحتجاج والإضراب ، قال محمود : إن الرسول ﷺ ، جاءه شخص يشكو من جاره الظالم ، فأمره الرسول بأن يخرج أثاث منزله إلى الشارع ، ويجلس في الشارع ، وكان عندما حدث ، أن سأله الناس عن هذا الفعل ، فأخبرهم بظلم جاره له . وهي رواية صحيحة ، تدلُّ على أن كل وسائل التعبير عن الظلم مباحة ، بشرط ألا يسيء الإنسان أو المُضرب إلى الغير ، أو يهدد مصالح بقية المسلمين .

واتفقت مع الشيخ محمود العميدة السابقة لكلية الدراسات الإسلامية والعربية الدكتورة سعاد صالح ، في أن الإضراب الهادف ، الذي لا يترتب عليه ضرر بالنسبة للإنتاج أو مؤسسات الدولة ، حق للتعبير عن الرفض لوضع ما ، أما إذا كان مقترناً بالخروج عن المألوف ، والاتجاه للتخريب ، والاعتداء على الملكيات

العامة ، فهو حرام .

كذلك فقد أباح العميد السابق لكلية الشريعة بجامعة الأزهر وعضو مجمع فقهاء الشريعة بأمريكا ، الدكتور محمد رأفت عثمان التعبير عن الرأي ، سواء كان فردياً أو جماعياً شريطة الحرص على عدة ضوابط ، أهمها عدم الإضرار بالآخرين . وقال عثمان : «إن التظاهر وإبداء الرأي ، سواء كان فردياً أو جماعياً يجوز شرعاً ، ولكن شريطة ألا يؤدي إلى الإضرار بمصالح الدولة أو الأفراد» .

ورغم هذه الفتاوى وفتاوى دينية أخرى كثيرة ، فإن جماعة الإخوان المسلمين في مصر ، تسعى بكل جهدها ، لأن تنال ترخيصاً لحزب سياسي . كما أن جماعات الإخوان المسلمين في كل أنحاء العالم العربي ، تشارك في الانتخابات التشريعية والبلدية ، وتنظّم المظاهرات الدينية الصاخبة المنطلقة من المساجد أيام الجمعة رافعة المصاحف ، هاتفة بشعارها التقليدي : «الإسلام هو الحل» .

وتدلل هذه الحوادث ، وهذه الفتاوى المتضاربة والمتغايرة ، تدليلاً واضحاً وصريحاً ، على مدى الضرر والسوء الناجم عن تدخل رجال الدين بالسياسة ، وأن دعوة العَلْمانية إلى عزل رجال الدين عن السياسة ، هي دعوة مصيبة في الماضي والحاضر .

أوهام الأصولية

-١-

كثيرة هي أوهام الأصولية .

فمن وهم جواب التراث على كل أسئلة الحاضر والمستقبل ، إلى وهم أن التراث هو كل ما نملك ، ولا بديل عنه كلياً ، أو جزئياً .

ومن وهم عدم نفع الإصلاح الديني ، لأن الدين ليس خَرِباً لكي نُصلحه ، إلى وهم أن الغرب الذي يحلو لنا أن نقلده ، قد خرج بعَلْمانيته الحالية من عصر الدين .

ومن وهم أن الدين من دون رجال الدين ، لا يقوم ولا يستقيم ، إلى وهم أن الفقهاء هم الواسطة بين العبد وربه ، وبغير ذلك لن يتم الاتصال بين المؤمنين والإله ، وأن الأديان كافة فيها طبقات رجال الدين ، الذين هم الحمام الزاجل ، أو الانترنت بلغة العصر الحديث بين الرب وعباده .

ومن وهم أن الإسلام كان خاتم الأديان ، وبذا اكتملت المعارف ، ولم يعد بعد هذا من بيان أو معرفة ، إلى وهم أن لا سيادة بعد ذلك للعقل ، وإنما كل السيادة للنقل .

ومن وهم أن لا حوار مع الأديان الأخرى ، رغم تخصيص

عشرات الآيات من القرآن للحديث عن هذه الأديان ، إلى وهم أن الإسلام لا يُحاوَر ، وهم يُحاوَرون ، لأن الإسلام هو الاكتمال ، وهو النهاية ، وهو الخلاصة ، وهو الخاتمة .

-٢-

ولهذه الأوهام الأصولية مضار كثيرة ، منها :

١- عدم السماح بقيام الإصلاح الديني ، وعدم نقد الجانب التاريخي والاجتماعي للدين .
٢- عدم السماح بقيام علاقة تواصل بين الإسلام ، وبين باقي الأديان السماوية الأخرى .
٣- عدم السماح لإقامة علاقة بين الدين وبين العلم والفلسفة .
٤- عدم السماح للحداثة بالفصل بين الإيمان والعقل .
٥- إخضاع كل الأنشطة الثقافية والسياسية لسلطة رجال الدين .
٦- عدم السماح بإجراء حفريات معرفية لمرحلة النشأة الأولى في الإسلام .
٧- تضييق باب الاجتهاد إلى أقصى الحدود ، لأن لا مسألة دينية إلا تم الاجتهاد فيها طيلة ١٤ قرناً مضت .
٨- عدم السماح بقيام أنظمة عَلْمانية في العالم العربي ، على غرار ما جرى في تركيا بعد عام ١٩٢٤ ، وما جرى في تونس بعد عام ١٩٥٦ . ذلك أن العَلْمانية هي الضمانة الوحيدة والأكيدة لمنع قيام الحروب الدينية الشرسة . والأصولية التي تشعر بالاستعلاء الديني دائماً ، لا تريد سلاماً دائماً وراسخاً مع

الأديان الأخرى ، وهي التي تشعل الحروب والاقتتال بين طوائف الدين الواحد كما رأينا في العراق ، ومنذ ٢٠٠٣ . كما أنها هي التي تُدرّب وتُرسل الإرهابيين لقتل الأبرياء من الديانات الأخرى ، والاعتداء على رجال الأديان الأخرى وقتلهم .

٩- عدم التقدم إلى الحداثة ، ربما ليس لعداء أيديولوجي واع مع الحداثة ، ولكن لعدم استطاعة الأصولية فهم الحداثة ، وهضمها ، واستيعابها . ومَثَلُ الأصولية في هذه الحالة ، مَثَلُ دول العالم الثالث والرابع التي تقف عاجزة عن الدخول في العصر الصناعي لعدم استطاعتها ، ولقصرها المادي والعلمي والثقافي ، في الوقت الذي يسير فيه الغرب إلى عصر ما بعد الصناعة .

١٠- اعتماد الأصولية على الأساطير لتعبئة الجماهير وكسب التأييد . ويقوم بهذا دعاة حتى من خارج شبكة رجال الدين ، وهو ما يُطلق عليهم اليوم «الدعاة المودرن» الذي يشبهون نجوم السينما والتلفزيون . وجاء اعتماد الأصولية على الأسطورة ، لأن الأسطورة - كما يقول جورج طرابيشي - هي وحدها التي تمكن من الإجابة عن سؤال لا جواب له وهو : كيف نتغير في عالم متغير ونبقى نحن نحن؟ أو : كيف يمكن أن نتغير دون أن نتغير؟(١)

---

(١) جورج طرابيشي ، « في ثقافة الديمقراطية » ، ص ١٤٧ .

١١- اعتماد الخطاب الأصولي الديني على انتفاخ خطابه ، وخلوه من القول الأيديولوجي ، لذا ، تغيب أسئلة التأصيل الفلسفي منه - كما يقول كمال عبد اللطيف - وتحضُر بدلاً منها حماسة الدعوة ، التي تكتفي بالنقل والانتقاء ، وينتج عن ذلك هشاشة النص[١] .

١٢- وأخيراً ، بما أن الأصولية ترفض الحداثة ، فهي ترفض الاعتراف بحرية البحث العلمي والإبداع الأدبي والفني . وتصف الأصولية هذا الإبداع بالردة عن الدين وقيمه . وهذا دليل على أنها تُرجّح النقل على العقل ، ولو كذّب النقل جميع الحقائق العلمية .

-٣-

رغم كل هذا الغبار ، الذي تثيره الأصولية في العالم العربي ، من خلال أحزابها ، وسياسييها ، وصحافييها ، ومثقفيها ، ورجال الدين ، ورغم الوسائل الإعلامية القوية والمؤثّرة التي تمتلكها ، ورغم المال الوفير الذي في خزائنها ، ورغم وجود دولة كبرى كإيران تُعزز مواقعها ، إلا أن الأصولية ، لم تستطع حتى الآن ، أن تُغيّر شيئاً في عمق الساحة السياسية في العالم العربي . والسبب في ذلك ، أن هذا الضجيج الصاخب الذي تثيره الأصولية الدينية السياسية ، لم يتأتَ من قوة الخطاب السياسي الذاتي للأصولية الدينية

---

(١) كمال عبد اللطيف ، «التأويل والمفارقة» ، ص ٩٢ .

السياسية ، وإنما تأتى من هشاشة الأنظمة العربية وعدم شرعيتها ، ومن سقوط الأنظمة التي كان مؤملاً منها النهوض بالمجتمع العربي (الناصرية مثالاً لا حصراً) ، ومن فشل الأنظمة العربية القائمة في بناء المجتمع المدني العربي ، وانتشار البطالة والمحسوبية والفساد ، واشتداد بروز النعرات الطائفية والدينية والعرقية والقبلية ، وتقلُّص دور الطبقة الوسطى ، وسقوط النماذج التي كانت سائدة كالماركسية (اليمن الجنوبي مثالاً لا حصراً) ، والاشتراكية (مصر ، والجزائر ، وسوريا ، والعراق) والقومية (مصر ، وسوريا ، وليبيا ، والعراق) .

-٤-

يلاحظ الباحث الفرنسي أوليفيه روا ، المتخصص في شؤون الجماعات الإسلامية ، في كتابه المهم (تجربة الإسلام السياسي) أن «الإسلام السياسي لا يصمد أمام إغواء السلطة» ، ويضيف أن «أنظمة الحكم التي كانت قائمة عام ١٩٩١ ، هي نفسها التي كانت قائمة عام ١٩٨٠ . وأن الأضرار الإرهابية التي ألحقتها الأصولية الدينية في العالم العربي ، أقل من تلك التي ألحقتها مجموعة بادر - ماينهوف الألمانية ، أو الألوية الحمراء الإيطالية ، أو جيش التحرير الإيرلندي ، أو منظمة الباسك الإسبانية ، التي شكّلت أعمالها جزءاً من المشهد السياسي الأوروبي لفترة أطول مما شغلته أحزاب الله ، ومنظمات الجهاد الأخرى .»[١] وهذا لا يعني

(١) أوليفيه روا ، «تجربة الإسلام السياسي» ، ص ٧ .

أن الأصولية السياسية بدأت تتوارى عن الأنظار . فهي دون شك تقوى وتتعاظم في الشرق كله سياسياً ، وليس في الشرق الأوسط فقط ، ولكنها لا تقدم لنا نموذجاً لمجتمع إسلامي جديد ، وكل ما تطالب به هو تطبيق الشريعة الإسلامية في مجال الحدود فقط ، وهي بذلك قد استحالت إلى «سلفية جديدة» ، وإلى بلاغة وبيان ، بدل أن تستحيل إلى واقع وعرفان ، وهو ما يمثل إخفاقاً فكرياً وتاريخياً كما يرى أوليفيه روا . حيث لم تستطع الأصولية الدينية السياسية إقامة مجتمع جديد في إيران وغزة ، ولا في أفغانستان في عهد طالبان . فهم قد يصلون إلى السلطة في مكان ، أو في أمكنة ما ، من العالم العربي ، ولكنهم لن يستطيعوا بناء مجتمع جديد ، وأقصى ما يستطيعون عمله هو إقامة مجتمع (الريع زائد الشريعة) في الدول الإسلامية الغنية بموارد النفط ، أو (البطالة زائد الشريعة) في الدول الفقيرة كالباكستان ، والسودان ، والصومال وغيرها . ولنا من إيران ، وغزة وأفغانستان (أثناء حكم طالبان) خير شاهد على ذلك .

-٥-

ونضيف هنا ، على ما قاله أوليفيه روا ، من أن جماعة الإخوان المسلمين منذ قيامها عام ١٩٢٨ إلى الآن ، وبعد مضي ثمانين عاماً على قيامها وانتشارها في شتى الأقطار العربية ، تحت أسماء مختلفة حيناً ، وغير مختلفة أحياناً أخرى ، لم تستطع أن تصمد أمام «إغواء السلطة» ، ومثالنا الواضح هو حكم «حماس» في غزة ،

وتكالب جماعة الإخوان المسلمين في مصر ، والأردن ، وسوريا ، وغيرها على السلطة . ويصل أوليفيه روا إلى نتيجة أخيرة وحاسمة ، وهي أن «الحقبة الأصولية الإسلامية أغلقت باب الثورة والدولة الإسلاميتين ، وبقيت بلاغة خطابها فقط .» وهذه البلاغة تتجلّى في تبنيها للغة القرآن والحديث النبوي ، دون محاولة تعبئة هذه اللغة بخطاب سياسي أو اجتماعي أو اقتصادي واضح . وبذا ، أصبح سعي الأصولية الدينية لإقامة دولة دينية سعياً عبثياً ومجانياً ، لا طائل من ورائه .

-٦-

يقول أوليفيه روا ، إن الجماهير التي تناصر الإسلامويين ليست أكثر سلفية أو تقليدية منهم . فقد جاء معظم هذه الجماهير من القرى إلى المدن الحديثة ، وأصبحت مفتونة بقيم الاستهلاك ، وعالم السينما ، والمقاهي ، ووجبات الأكل السريعة ، وارتداء الجينز والرقص على أحدث الأنغام الغربية والأمريكية خاصة ، ومتابعة مباريات كرة القدم ، لكن ما يطحنها هو البطالة وغيتوات الهجرة ، والحرمان الجنسي .

ولو نظرنا إلى نسبة الشباب التي تنضوي تحت ألوية الجهاد المختلفة ولواء «القاعدة» على وجه الخصوص ، لوجدنا أن هؤلاء الشباب لا يشكلون واحداً أو اثنين بالمائة من مجموعة الشباب العربي المنخرط والغارق بقيم الحياة الغربية . ولعل برامج المنوعات التي نشاهدها في بعض الفضائيات العربية ، وملايين الرسائل التي

تنهال على هذه الفضائيات من الشبان والشابات ، دليل واضح على أن ٩٨ بالمائة من الشباب العربي إلى جانب الحداثة ، والى جانب قيم الحياة الجديدة .

ماركسية الأصولية الدينية

-١-

هناك شرخٌ كبير ، بين دعاة الأصولية وبين جمهورها ، وتباين واضح ، وكأن هذه الجماهير غير مصدِّقة ، وغير موقنة من صحة الدعوة الأصولية ، خاصة وأن غالبية هذه الجماهير من الشباب اليانع ، الذي وُلد ، وتربى ، وعاش في العالم العربي ، وسط قيم مجتمع استهلاكي ، ذي قيم غربية في معظمها ، وكان من الصعب عليه أن يعيش في جلابيب الآباء والأجداد ، وآباء الأجداد ، وأجداد الأجداد ، ومن هم قبلهم ، قبل مئات السنين .

فلا أحد في العصر الحديث يعيش في جلباب غيره .

فبينما دعاة الأصولية ، يعيشون في الماضي بثقافته ، وطقوسه ، وقيمه ، وأسواقه ، ولباسه ، وطعامه ، وشرابه ، وسلوكه اليومي ، وكذلك بأشكالهم الغريبة ، ولحاهم الطويلة جداً ، وشواربهم المحفوفة ، وثيابهم القصيرة ، وكأنهم قادمون من كوكب آخر ، يعيش جمهورهم في عالم آخر ، مختلف كل الاختلاف ، وكأنه يرفض العيش في جلابيب الماضي الغريبة .

-٢-

جمهور الأصولية ، يعيش في ظل القيم الدينية الحديثة (الاستهلاك والترقّي الاجتماعي) . فهو جمهور يلبس الجينز ، ويرقص على أنغام موسيقى غربية ، ويأكل كما يأكل الغرب ، ويركب ما يركبه ، ويشاهد ، ويسمع ، ويقرأ ما يشاهده ، ويسمعه ، ويقرأه . ويمارس كل أنواع الرياضة البدنية ، ويرتاد المقاهي ، وخاصة «مقاهي الإنترنت» ، ودور السينما ، والنوادي الرياضية ، وله صداقات من الجنس الآخر ، في المدرسة ، والجامعة ، والعمل . . الخ .

-٣-

كذلك ، فإن دعاة الأصولية أنفسهم ، لا يحجمون عن استخدام منتجات الحضارة الحديثة .

فلا يركبون الإبل والبغال والحمير ، بدل الطائرات والسيارات والسفن .

ولا ينيرون بيوتهم بقناديل الزيت ، وسراجات الجاز ، بل يستعملون الكهرباء .

ولا يأكلون بأطباق من الفخار ، بل بأطباق من الصيني .

ولا يغتسلون في الأنهار والغدران ، بل في حمامات حديثة ، مجهزة بالبانيوهات ، والمياه الساخنة .

ولا يقرءون طوال الليل في الكتب الصفراء ، بل يشاهدون قنوات التلفزيون المختلفة ، ويستمعون إلى أجهزة الراديو .

ولا يستخدمون الحمام الزاجل لإرسال رسائلهم ، بل يستخدمون الانترنت .

ولا ينشرون خطاباتهم على الرقاع ، وورق البردى ، والعظام ، والحجارة ، بل ينشرونها في مواقع اليكترونية على الانترنت .

لذا ، نراهم يعيشون مفارقةً ، وتناقضاً عميقين .

-٤-

فهم يدعون إلى «الجهاد» ، ويدفعون الشباب الغضٍّ إلى النحر والانتحار ، ولكنهم يمنعون أولادهم من القيام بذلك .

وهم يرفضون الحضارة الغربية ، وقيمها ، وخاصة ما يتعلق منها بالجنس والمرأة بالدرجة الأولى ، وفي الوقت ذاته يستعملون وسائلها ونتاجاتها .

وشيوخهم ، يفتون بكراهية ، وتحريم المظاهرات ، والانتخابات (فتوى الشيخ فوزان الفوزان) كقيمة من قيم الحداثة السياسية ، وفي الوقت نفسه ، يلجأون إلى استعمال أسلوب المظاهرات في احتجاجهم على سلوك الحكومات العربية ، أو في ذمهم للغرب وسياساته ، ويشاركون في كل انتخابات تشريعية ، أو بلدية ، أو محلية . ولهم ممثلون في مجالس النواب ، والنقابات ، والمجالس المحلية .

وهم يتبعون في تنظيماتهم السياسية الطراز اللينيني الشيوعي . فالأمير لديهم هو بمثابة «الأمين العام» ، أو «السكرتير العام» ، ومجلس الشورى ، هو بمثابة «اللجنة المركزية» .

-٥-

وهم قد استعاروا من الماركسيين النطاق المفاهيمي ، ولا سيما فكرة الثورة ، ثم أفعموه بمصطلحات قرآنية للدعوة (الدعوة بمعنى الوعظ التبشيري والدعاية) .

فالجماهير ، التي كانت تتظاهر في القاهرة ، وعمّان ، وبيروت ، وطهران ، في الخمسينات ، تحت راية العلم الأحمر ، أو العلم الوطني ، هي نفسها التي تسير اليوم تحت الراية الخضراء ، أو الصفراء (راية «حزب الله») .

وفلان الذي كان ماركسياً ، أو بعثياً ، أو قومياً عربياً (نسبة إلى «حركة القوميين العرب») هو اليوم إسلاموي . وهكذا يكون العَلْماني - مثالاً لا حصراً - أحمد جبريل ، وميشيل عون ، وبشّار الأسد ، حلفاء لـ «حزب الله» ، و «حركة حماس» . ولنتذكر أن المفكر الإسلاموي الإيراني ، على شريعتي (١٩٣٣-١٩٧٧) (مُنظِّر التشيّع المعارض) كان قارئاً نهماً لفرانز فانون (١٩٢٥-١٩٦١) الماركسي ، وصاحب الكتاب الشهير «المعذبون في الأرض» .

-٦-

ولعل هذا الانفصام البادي في الشخصية الداخلية والخارجية ، والظاهرة والباطنة ، والليلية والنهارية ، والسمراء والسوداء ، هو الذي أنقص كثيراً من صدقية هؤلاء الأصوليين ، وخاصة عند الجمهور الشعبوي ، وجعل دعوتهم أقرب إلى الهزل منها إلى الجد .

وهو ما يذكرنا بعناصر «الألوية الحمراء» ، الذين كانت

الأصولية على شاكلتهم ، من حيث أن العناصر الأصولية ، لم يستطيعوا الاندماج اجتماعياً وثقافياً ، في المجتمع العربي والغربي الحديث ، فاختاروا العنف السياسي ، للتعبير عن أزمتهم الاجتماعية والثقافية .

-٧-

كذلك ، نجد أن الحركات الأصولية الإرهابية ، في العالم العربي ، أقرب إلى الحركات الماركسية منها إلى أية حركات أخرى ، وهو ما لاحظه وأثبته أوليفيه روا ، حين أشار إلى الرغبة نفسها عند الأصوليين والماركسيين في «التوليف بين الثورة واللاهوت ؛ أي لاهوت التحرير والنزعة الإرادوية نفسها ، والتطلّب نفسه لأصالة تكون في قطيعة مع الأنماط الغربية .»(١)

ويضرب روا أمثلة على ذلك ، بحفيظ الله أمين في أفغانستان ، وبول بوت في كمبوديا ، والدرب المنير في البيرو . ويقول روا إن سائر هذه الحركات ، سعت خلف رطانة ماركسية دوغمائية ، من أجل اختراع نموذج «قومي» جديد ، استناداً إلى «انتلجنسيا خرقاء» .

-٨-

ويخلُص روا ، إلى أن الإرهاب ليس ابتكاراً إسلامياً ، بقدر ما هو مرجعية مشتركة ، بين كل حركات التحرر اللاهوتي الماركسي .

---

(١) أوليفية روا ، مصدر سابق ، ص ١٥ .

فالترجمة الماركسية العالمثالثية المعتمدة ، التي كانت تُتيح للبعض أن يتفهم أعمال عصبة بادر- ماينهوف ، أو الأولوية الحمراء ، لا بل خاطفي الطائرات من الفلسطينيين ، لا تُتيح لهم ، فهم معنى احتجاز الرهائن ، لدى «حزب الله» ، عندما تغيب المرجعية المشتركة ، لكل هذه الحركات الإرهابية .

الأصولية وفوبيا المرأة

-١-

الأصوليون بهمجية مشاعرهم ، وطفح غرائزهم ، ووأد عقلهم ، وغابويتهم المتوحشة ، لا يستطيعون الصمود أمام امرأة كاشفة الوجه والشعر ومتزينة . ويركبهم الشيطان بمجرد النظر إلى امرأة . فمشاعرهم الغابوية المتوحشة تدفعهم دائماً إلى الاعتداء الجنسي على الجنس الآخر ، دون مقاومة من العقل الموؤود . وهم يخشون على أنفسهم – وليس على المرأة – من هذا الشيطان الرجيم الذي يُدعى المرأة ، لذا ، يوصون ويطالبون بأن تظلّ المرأة في بيتها ، لا تخرج ولا تعمل ، كالدُر المصون والسرِّ المكنون ، لا يراها غير زوجها وأولادها ، خشية أن يقعوا في حبائلها ، فلا يعرفون كيفية التخلص منها ، إلا بالاعتداء الجنسي عليها .

-٢-

يقول الكاتب السعودي صالح الطريقي :

«حين تسافر المرأة إلى الخارج ، تكشف عن وجهها في الأماكن العامة ، إن لم يكن هناك رجل أو عائلة سعودية . تقول المرأة عن

أسباب تغطيتها للوجه داخل السعودية : الأمر مرتبط بنظرة الرجل الأجنبي والرجل السعودي . فهي تعتقد أن نظرة الرجل الأجنبي عادة ما تكون عابرة ، فيما نظرة الرجل السعودي ليست عابرة ، بقدر ما هي نظرة ذئب رأى فريسة ، أو هو يعتقد أن أية امرأة سعودية تكشف وجهها ، هي امرأة سيئة السمعة . لهذا تجنباً للسمعة السيئة ، تغطي المرأة وجهها . كذلك تخاف المرأة ، أن يكون هناك شاب سعودي لم تنتبه له ، يصورها في هاتفه الجوّال ، لينشرها بين أصدقائه ، أو على الانترنت بصفتها امرأة عاهرة ، وهذا الأمر قد يسبب حرجاً لأسرتها» .

ويضيف الطريقي هذه الإنارة :

«ويُخيّل لي وأكاد أجزم ، أنك إن رددت على إنسان طوال مراحل نموه ، بأنه لا يمكن له أن يرى المرأة خارج إطار الجنس ، وأن العلاقة بينهما علاقة حيوانية فقط ، سيتحرك على هذا الأساس ، وإن ارتبطا بعقد زواج . فلن تكون هناك علاقة خارج السرير . وأكبر دليل ، رواج «زواج المسيار» ، الذي يُكرّس هذه الفكرة ، فصدّق الرجل والمرأة أن علاقتهما قائمة على الجنس ، الجنس فقط . لهذا ، من الطبيعي أن يرى الرجل السعودي المرأة في هذا الإطار ، فهم قالوا له : إن علاقته مع المرأة حيوانية فقط .»[١]

---

(١) صالح الطريقي ، «الإنسان السعودي فاسد وعلينا مراقبته» ، جريدة «شمس» السعودية ، ٢٠٠٨/٤/٦ .

-٣-

ومن هنا ، انتشر في المجتمعات الأصولية المتشددة اللواط (استمع وشاهد اعتراف الأصوليين بممارسة اللواط في المساجد بالعراق بواسطة Youtube.com ، ومدرس مادة الدين يمارس اللواط مع الطلبة في موقع (Vip6600) ، والسُحاق (إلى درجة إنتاج فيلم مصري «حين ميسرة» عن هذه الظاهرة) ، وممارسة الجنس مع الحيوانات ، والزنا مع المحارم ، والذهاب إلى الجهاد بحثاً عن الجنس . إذ إنه حسب الشريعة الإسلامية ، تعدّ نساء الفئة المهزومة رقيقات للفئة الهازمة ، وهو ما فعله في الماضي خالد بن الوليد بزوجة مالك بن نويره الجميلة جداً ، فعاشرها في الليلة نفسها التي قتل فيها خالدٌ مالكاً . وهو ما يفعله مناضلو الجماعات الإسلامية المسلحة في الجزائر ، حيث يقتلون السكان باعتبارهم مرتدين أو كفاراً ، ويأسرون نساءهم ، ويعاشروهن بصورة جماعية باعتبارهن غنائم حرب .[1] وهذا ما يحصل في كثير من المدن العراقية . كذلك معاشرة الأطفال ، والمفاخذة (أفتى الخميني بمفاخذة الرضيع) ، وزواج المسيار ، وزواج الفرند ، وزواج البيزنس . . الخ .

-٤-

وخرجت لنا فتاوى دينية كثيرة بهذا الخصوص أصبحت مادة للتندر والسخرية من الإسلام ، نتيجة لذلك . وبلغت فتاوى الجنس

(١) محمد الشرفي ، «الإسلام والحرية» ، ص ١٧٠ .

بسائر أشكاله أكثر من فتاوى السياسة والاقتصاد . وبلغت نسبة النساء العوانس في هذه المجتمعات ، أعلى النسب في العالم ، نتيجة لأن الرجل يتزوج المرأة بالطريقة نفسها ، التي يشتري بها البطيخة ، فإما حمراء حلوة فأكلها ، وإما بيضاء لا طعم لها فرماها . ومن هنا ، ارتفعت نسبة المطلقات في المجتمعات الأصولية المتشددة إلى أعلى النسب ، وهي ٢٠ في الألف . ولو أن المجتمعات الأصولية المتشددة ، مفتوحة للبحث والدراسة والاستقصاء الحر النزيه والشفاف ، لخرجت لنا نتائج يشيب لها الولدان . إلا أن تقريراً رسمياً ، صدر عن وزارة تخطيط خليجية ، يرصد ارتفاع نسبة الطلاق خلال الأعوام السابقة إلى ٢٠٪ ، وارتفاع حالات فسخ الخطوبة إلى ٦٥٪ . وهناك ٣٣ حالة طلاق تقع يومياً . وبلغ عدد الفتيات العوانس في ثلاث مدن خليجية رئيسية ما بين ٢٥٠-٣٥٠ ألف عانس في المدينة الواحدة .[1] (موقع منتدى العرب) . وهذا تقرير سياسي رسمي .

فما بالك لو كُشفت لنا الحقيقة بواسطة مراكز مستقلة للبحوث والدراسات والاستقصاء؟

---

(١) حسب موقع «منتدى العرب» على الانترنت .

الأصولية وفوبيا الرواية النسوية

-١-

تخلط الأصولية الدينية بين الدين كعقيدة توحيدية شخصية، وبين الدين كظاهرة تاريخية اجتماعية. فالأصوليون ينفون أن يكون الدين ظاهرة تاريخية اجتماعية، يُطبّق عليه ما يُطبّق على باقي الأحداث التاريخية والاجتماعية من نقد ذاتي، وفكري، وتاريخي. وهذا ما يحاول مفكرون ليبراليون كبار كمحمد أركون وكالمفكرين التونسيين: محمد الحداد، وهشام جعيط، والعفيف الأخضر، ومحمد الشرفي، وعبد المجيد الشرفي، وغيرهم.

لقد كان الدين في الماضي يُمثل «طفولة البشرية»، كما وصفه أوجست كونت، وإرنست رينان. وكان الوسيلة المُثلى التي يستخدمها الإنسان، من أجل الإجابة وإعطاء الحلول على كثير من أسئلته ومشاكله، في مراحل مختلفة. وكان الدين يعجز في بعض الأحيان عن إعطاء أجوبة وحلول شافية ومفيدة، فيلجأ إلى الغموض حيناً، وإلى سحر البيان حيناً آخر، للالتفاف حول الأسئلة الصعبة.

وكنا نلاحظ، أنه كلما تقدم الزمن أكثر فأكثر، تعقّدت

مشاكل الإنسان على الأرض وكثرت أسئلته ، وبدأت العلوم المختلفة ؛ أي عقل الإنسان ، يجيب عن الأسئلة التي عجزت الأديان عن الإجابة عنها ، باعتبارها عقائد توحيدية شخصية ، وليست كتب علوم مختلفة ، أو كتب سياسة وفلسفة ومنطق . . الخ . فكان لا بُدَّ من إعادة النظر في الأجوبة والحلول التي طرحتها الأديان للمشاكل الاجتماعية والسياسية على وجه الخصوص ، وهذا ما يُطلق عليه المفكرون الليبراليون «نقد التراث» ، أو «الإصلاح الديني» . وهذا النقد والإصلاح استلزم لسبب بسيط جداً ، وهو أن المشاكل الاجتماعية التي أجابت عنها الأديان قبل عدة قرون خلت ، ليست هي مشاكل اليوم ، وإن كانت شبيهة بمشاكل اليوم ، فهي ليست كمثلها تماماً في التفاصيل ، والدليل أن عقل الإنسان ، وحواسه ، ومشاعره ، وسلوكياته ، وثقافته ، التي تُشكِّل حياته الاجتماعية ليست هي كما كانت قبل قرون خلت .

-٢-

في هذا العصر ، أصبحت المرأة بالنسبة للأصوليين الكارهين لها حتى الموت ، كما سبق وذكرنا مثالاً على ذلك ، فتوى الشيخ ابن باز ، باعتبار المرأة التي تخرج من بيتها زانية . هذه المرأة أصبحت الأم المفترسة ، التي حرمت رضيعها من الثدي الحنون ، يُطفئ ظمأه ، أو يسكّن جوعه ، فعاش ذلك كمحاولة منها ، لقتله عطشاً وجوعاً . وهذا ما يدفعه راشداً لقتلها أو الانتقام منها ، باسم

الحماية من نفسها ، وحماية الناس من شرها .[1]

ويرى العفيف الأخضر ، بأن الأصولية ، تعدّ عائقاً للتقدم الاجتماعي من حيث هي شمولية في التفكير والممارسة لأنها أرثوذكسية . وهذا يعني في السياق الإسلامي ، أن دينها هو وحده الدين الحق ، وأنها هي الفرقة الناجية الوحيدة . وككل أرثوذكسية تقوم الأصولية على حقيقة مطلقة عابرة للتاريخ ؛ أي صالحة لكل زمان ومكان ، لا يحق لبشر مساءلتها أو التشكيك فيها . فالأرثوذكسية دائما تفتيشية ، لأنها تخضع البشر إلى قوالب لاهوتية أو أيديولوجية جامدة ، تعدها المقياس الأسمى للحقيقة ، وكل خروج عليها يقاس كخروج على قانون مقدس . وكأي أرثوذكسية تفرض على الناس أدواراً حديدية مرسومة بدقة ، لا ينبغي للناس الخروج عليها .

-٣-

كنتُ قبل أيام أقرأ في كتاب «حريم محمد علي باشا» لصوفيا لين بول (١٨٠٤-١٨٩١) شقيقة المؤرخ والمستشرق الإنجليزي إدوارد لين (١٨٠١-١٨٧٦) الذي عاش في مصر فترة طويلة ، وكتب كتابه المشهور «أخلاق وعادات المصريين» . ولفتت نظري فقرة كتبتها صوفيا لين بول ، في مقدمة كتابها تقول :

---

(١) العفيف الأخضر ، «النكوص الأصولي إلى العقوبات البدنية : الجمهورية الإسلامية الإيرانية نموذجاً» ، مجلة «أدب ونقد» ، ١٩٩٤ .

«كـانت المرأة الإنجليـزية العـادية في النصف الأول من القـرن التـاسع عـشر ، لا تـكـتب كـتـباً تُطبع وتُنشـر للقـراءة العـامـة . فـالمرأة الإنجليزية لا تجرؤ أن تتحدى أصول اللياقة ، التي يفرضهـا المجتمع على المرأة المهذبة الصالحة . فالكتابة معناها خروج المرأة من مكمنها إلى الصدارة ، وظهورها وسط السـاحة ، أمام الجميع . وهذا لا يجوز في مجتمع محافظ كالمجتمع الإنجليزي ، الذي يرى في المرأة - ولو نظرياً - رمزاً للبراءة والعفّة . فهي ربة البيت ، والزوجة المخلصة ، والأم العطوف الحنون ، فمـا لهـا وللظهور أمـام الجمـهور . أمـا هؤلاء النســاء الجـريئـات ، اللائي يرغبن في الإفـصـاح عن آرائهنّ في الكتابة ، فعليهنّ أن يواجهن العاصفة ، ويتحمّلن المشاكل التي لا نهـاية لهـا . أمـا إذا خـانتـهن الشـجـاعـة اللازمة فـبـاسـتطاعـتـهنّ أن يتـوارين خلف اسـم رجل ، كـمـا فـعلت جـورج إليـوت ، والأخـوات برونتي في بريطانيا ، وجورج صاند في فرنسا» .

فهل حال الكاتبات السعوديات هو حال المرأة الإنجليزية ، في القرن التاسع عشر؟

-٤-

يبدو أن القرن الحادي والعشرين ، سيكون قرن الرواية السعودية والنسائية على وجه الخصوص في فضاء الأدب العربي الحديث . وهذا المؤشر المهم ، سيكون من ضمن مؤشرات ولادة «السعودية الجديدة» . وقد بدأ الدفق الروائي النسوي السعودي بالدفع إلى الأمام ، منذ نهايات القرن العشرين . وافتتحت هذا الدفق ، الروائية

السعودية المتميزة رجاء عالم من مكة المكرمة ، بروايتها الجريئة ٤/صفر عام ١٩٨٧ ، وأتبعتها برواية «نهر الحيوان» ١٩٩٤ ، و«طريق الحرير» ١٩٩٥ ، و«مسرى يا رقيب» ١٩٩٧ ، و«سيّدي وحدانة» ١٩٩٨ . وفي مطلع القرن الحادي والعشرين كتبت رجاء عالم رواية «حبي» ٢٠٠٠ ، و «خاتم» ٢٠٠١ ، و «موقد الطير» ٢٠٠٢ ، و«ثقوب في الظهر» ، و «الرقص على سن الشوكة» ٢٠٠٦ . وفي عام ٢٠٠٧ أصدرت رجاء عالم روايتها «ستر» ، وما زال عطاؤها مستمراً . وبهذا تعدّ رجاء عالم من أغزر الروائيات العربيات الحديثات ، ولو عاشت في القاهرة أو في بيروت ، لكان نصيبها من الشهرة والتألق الشيء الكثير . ورغم هذا العطاء المستمر ، ورغم ريادة رجاء عالم للرواية النسويّة السعودية .(١) فإن رجاء عالم لم تحظَ بالشهرة والطنين الإعلامي كما حظيت رجاء الصانع من خلال روايتها «بنات الرياض» ، ورغم كون روايات رجاء عالم وثائق اجتماعية وتاريخية للمرأة السعودية في منطقة الحجاز ، وفي البيئة المكيّة المتشددة ، على وجه الخصوص .

---

(١) مصطلح الرواية النسوية ، مصطلح تثور عليه عادة الكاتبات العربيات ، لأنهن يرين فيه انتقاصاً من قدرتهن على الإتيان بإبداع يوازي ما يأتي به الرجال ، من كتاب الرواية . والرواية النسوية ليست بالضرورة هي التي تكتبها المرأة فقط ، ولكن يمكن أن تكون تلك التي تحمل الصفات الأنثوية من حيث القدرة على الإبداع الخصب . وهناك رجال كتبوا الرواية النسوية بإبداع أكثر من المرأة .

-٥-

ولا شك بأن رجاء عالم وروایاتها التي كانت مقروءة بشكل كبير في السعودية وفي خارج السعودية كانت هي التي مزّقت «الشرنقة» النسوية ، وهي النخلة التي طرحت ثماراً مختلفة في الأدب النسوي السعودي ، الذي كتبته رجاء الصانع ، ونداء أبو علي ، وفايزة سعيد ، وهيلدا إسماعيل ، وبدرية البشر ، وزينب حفني ، وهيام المفلح ، وهداية درويش ، وسارة الهاجري ، ورانية سلامة ، وسهاء النهدي ، وإيمان القويفلي ، وهناء حجازي ، وحكيمة الحربي ، ووفاء العمير ، ونادين البدير ، وثريا الشهري ، وليلى الجهني ، وخديجة الحربي ، وعائشة القصير ، وأمل شطا ، وقماشة العليان ، ونورة الغامدي ، وسلوى دمنهوري وغيرهن . وهكذا ، فكما تفوقت المرأة السعودية في مجال الاقتصاد ، والأعمال ، والطب ، والتربية والتعليم ، والإدارة ، فقد تفوقت أيضاً في الأدب ، وفي الرواية على وجه الخصوص . وبذا ، تحقق للمرأة أكبر هامش من الحرية في هذه الفترة القصيرة من الزمن . وكما قلنا في الماضي ، بأنه لا محرر للمرأة من قيودها إلا العلم . وبالعلم وحده تتحرر المرأة العربية ، كما تحررت كل نساء العالم .

-٦-

والرنين الإعلامي العربي ، والطنين الإعلامي الغربي ، الذي تلقاه الرواية النسوية السعودية على وجه الخصوص ، له عدة أسباب ، وخاصة عندما أصدرت رجاء الصانع «بنات الرياض» ،

وزينب الحفني «ملامح» ، وصبا الحرز «الآخرون» ، وأميمة خميس «بحريات» ، وسمر المقرن «نساء المنكر» ، ونداء أبو علي «مزامير من ورق» ، وغيرهنّ .

وهناك روايات نسوية تصدر بأسماء مستعارة ، مما يذكرنا بحال الروائيات والكاتبات الإنجليزيات في القرن التاسع عشر ،(١) من خلال ما قرأنا في مقدمة «حريم محمد علي باشا» ، وهو ما ينطبق كثيراً على واقع الروائيات السعوديات اللائي يُردن بالكتابة الخروج من مكمن المرأة إلى الصدارة ، وظهورها وسط الساحة أمام الجميع . وقد وصفت هذه الروايات من قبل الأصولية الدينية السعودية ، بأنها تخدم أعداء الإسلام . والمثير أن أغلب الروائيات السعوديات يجدن الاستغراق في وصف مشاهد الجنس بطريقة ذكية تثير القارىء جنسياً بحق!

ويقول الكاتب عدنان البابلي : «وربما كان متوقعا لمجتمعات أخرى أكثر انفتاحا من المجتمع السعودي أن تنتج هكذا سيل من الحكاية المدونة ، لكن المجتمع السعودي اثبت أنه حي في قدرته على إنجاب أدب التحدي في وقت تجتاح المنطقة برمتها موجة الأصولية والمحافظة ، وهي ريح ضربت أكثر المجتمعات انفتاحاً وكبلتها بقيود التحريم والتابوات .»(٢)

---

(١) كجورج إليوت والأخوات برونتي ، وحال جورج صاند في فرنسا .

(٢) « روائيات سعوديات يسردن مفاتن الجسد ، ويشددن وتر الغريزة» ، موقع على الانترنت .

-٧-

أما أسباب احتفاء الإعلام العربي ، ولا نقول النقد الأدبي - لأن النقد العربي الآن في سبات عميق ، بل يكاد يختفي من الساحة الأدبية ، بعد أن تحوّل معظم نقاد الأدب إلى نقاد للسياسة ، حيث الوهج الأكثر ، والجمهور الأكبر ، والشهرة الأوسع ، والمجال الأخصب- فنلخصها كالتالي :

١- كون الروائيات شابات سعوديات ، يكتبن أدباً جريئاً ، ويقتحمن عالم الرواية من الباب الواسع ، ويتحدين الأصولية الدينية المتشددة ، دون تحفظ أو مراعاة لتقاليد المجتمع الذي يعشن فيه . وتلك كافية لأن يشتهرن في العالم العربي والغرب عموماً . فقد سبق لروائيين سعوديين كعبد الرحمن منيف (نجيب محفوظ السعودية) (١٩٣٣-٢٠٠٤) وغازي القصيبي ، وتركي الحمد ، وعبده خال ، ويوسف المحيميد ، وغيرهم ، أن كتبوا روايات أدبية رفيعة المستوى ، ولكنهم رغم هذا لم يحظوا بردود الفعل التي حظيت بها الروائيات السعوديات المتخرجات من مدرسة «الشرنقة الممزقة» . ذلك أن هؤلاء الروائيين لم يكونوا داخل «الشرنقة الممزقة» كما كان حال الروائيات .

٢- كون الروائيات السعوديات يكتبن أدباً أكثر جرأة مما كتبه الروائيون السعوديون . ويقتحمن فضاءات جديدة لم يقتحمها الروائيون السعوديون من قبل . فرغم الجرأة الكبيرة لدى تركي الحمد ، وغازي القصيبي ، وعبده خال ، وغيرهم ، في اقتحام

الكثير من الكهوف المظلمة ، إلا أن جيل «الشرنقة الممزقة» من الروائيات السعوديات استطاع اقتحام أكبر الكهوف ظلمة ، وهو كهف الجنس عند المرأة . وهذا وحده كافٍ لأن يلقى في العالم العربي صدىً كبيراً ، فيما لو علمنا أن الروايات الجنسية في العالم العربي كروايات الجزائرية أحلام مستغانمي ، وقبلها روايات السوريتين كوليت خوري ، وغادة السمان ، وروايات المصرية نوال السعداوي ، وغيرهن ، هي الروايات الأكثر مبيعاً في العالم العربي ، في مجتمع محروم ومعزول عن الجنس الآخر ، في معظم تكويناته الشبابية ، ويلاحق خيالات النساء وأحذيتهن ، في الأسواق العامة .

٣- تحول الروايات السعودية إلى وثائق تاريخية واجتماعية ، وانكباب الدارسين والباحثين على استخراج حقائق ووقائع تاريخية واجتماعية من هذه الروايات كما فعلت نورة القحطاني في رسالة الماجستير بجامعة الملك عبد العزيز بجدة في بحثها «صورة الرجل في الرواية النسائية السعودية» من خلال ٢٢ رواية سعودية . وصورة الرجل السلبية التي ظهرت في معظم هذه الروايات ، وهي صورة معقدة من الناحية النفسية والاجتماعية ، خاصة تلك الصورة المتخيلة في اللاوعي الشعبي ، مما تسبب في صعوبة الرواية السعودية .(١)

٤- كانت المملكة العربية السعودية فيما مضى مجتمعاً مغلقاً ،

---

(١) أحمد الزين ، جريدة «الحياة» ، لندن ، ٢٠٠٨/١/١ .

والمعلومات السياسية والاجتماعية والثقافية عن هذا المجتمع كانت قليلة، وصعبة المنال. وعندما حاولت الرواية السعودية من الذكور والإناث تصوير جوانب من هذا المجتمع الذي كان منغلقاً، تراكض القراء لشراء هذه الروايات، لمعرفة ما يدور داخل هذا المجتمع المتنوّع التركيب من حضر، وبدو، وفلاحين، وتجار، وموظفين، ومثقفين.

٥- تتميز المملكة العربية السعودية، بموقع جغرافي وديني نادر، بل يكاد يكون وحيداً في منطقة الشرق الأوسط والعالم. ولهذا الموقع شروطه واعتباراته، التي يراها البعض غير مهمة، ولا يجب أن يُحسب حسابها بهذه الدقة وهذه الحساسية، رغم أن هناك أكثر من مليار مسلم في العالم، يحسبون هذه الحسابات، ويعتبرون هذه الاعتبارات. وعندما جاءت الرواية النسوية السعودية الجديدة، منذ الثمانينات، على يد الروائية المكيّة رجاء عالم، كان الإقبال عليها كبيراً لنبش ما كان مفقوداً، ومعرفة ما كان مجهولاً، والكشف عمّا كان مستوراً.[١]

٦- من المعروف عربياً وعالمياً، أن أكثر الفنون رواجاً في العالم هي الفنون المتعلقة بالجنس، سواء كانت شعراً، أم نثراً. فعالم الجنس رغم أن ما كُتب عنه كثير، ما زال عالماً غامضاً، يحتاج إلى كثير من الرحلات الاستكشافية.

وعندما بدأت الرواية النسوية السعودية تكشف عن كهوف هذا

---

(١) راجع دراستنا النقدية عن أدب عبد الرحمن منيف في كتابنا «مدار الصحراء»، ١٩٩١.

العالم ، وتضيئها ، وتعرِّضها للشمس ، تدافع القراء إلى شرائها لمعرفة ما يجري في عالم السعودية الغامض . وقد شهدتُ في عمّان منظراً لن أنساه ، قبل سنوات من رحيل عبد الرحمن منيف ، عندما أقام الناشر حفل توقيع على رواية عبد الرحمن منيف الخماسية (مدن الملح) . فكان الطابور يمتد من وسط قاعة التوقيع إلى نهاية الشارع . وكان من يرى مثل هذا الطابور يظن أنه أمام فرن لبيع الخبز ، أو أمام شباك دار سينما تعرض فيلماً مثيراً . كذلك ، فإن هذا التهافت الآن على روايات رجاء الصانع ، وصبا الحرز ، ونداء أبو علي ، وليلى الجهني ، ونورة الغامدي ، وزينب حنفي وغيرهنَّ من روائيات «الشرنقة الممزقة» - والتي كانت في معظمها سيراً ذاتية لكاتباتها مما زاد الإقبال عليها- مرده حبُ معرفة القراء لما يدور في هذا العالم النسوي السعودي ، بحيث تحولت هذه الروايات من شأن ثقافي إلى شأن مجتمعي عام ، سيما وأن كثيراً من الغموض يلفُّ المرأة السعودية وحياتها الشخصية ، وذلك بغضِّ النظر عن القيمة الفنية للروايات ، التي كُتبت من قبل هؤلاء الروائيات ، والتي رُميت في بعض الأحيان بتدني المستوى الأدبي ، وبالتفاهة ، وبكثرة الأخطاء اللغوية والنحوية ، وتعمدها الواقعية الحرفية في النصوص ، مما أدّى إلى فقدان الروايات ألقها الفنّي في كثير من المواقف . . الخ .

وقد لاحظنا أن الإقبال على قراءة روايات رجاء عالم ، وليلى الجهني كاتبتي روايتي «جاهلية» ، و «الفردوس اليباب» وهما

روائيتان ارتفعتا برواياتهما إلى المستوى الأدبي المرموق ، كان أقل من الإقبال على روايات البقية الباقية من الروائيات السعوديات الأخريات ، مما يرجح قول البعض بأن سبب الإقبال الشديد على بعض هذه الروايات هو الكشف عن أكبر مساحة ممكنة من الحيوات الخاصة الخفية للمرأة السعودية ، وكسر التابوهات .

٧- انتقال الاهتمام بهذه الروايات من كونها شأناً ثقافياً إلى كونها شأناً اجتماعياً ، حيث أصبحت هذه الروايات حديث الصباح والمساء ، والمجالس والمدارس . وزاد من الاهتمام بها سفر الكثير من القراء إلى الخارج للحصول عليها وقراءتها . وهذا كله يعني أن أثر هذه الروايات الاجتماعي أكبر بكثير من أثره الأدبي والثقافي . وهذا ليس حال الرواية النسوية السعودية فقط ، بقدر ما هو حال الكثير من الروايات العربية والغربية . وهذا ما قيل بالضبط - كأقرب مثال - عن روايات جوستاف فلوبير الروائي الفرنسي ، وعلى روايته المشهورة «مدام بوفاري ، ١٨٥٦» التي أضحت وثيقة اجتماعية في القرن التاسع عشر ، وشاهداً على سقوط قيم الطبقة الوسطى الفرنسية . وقد حوكم فلوبير على هذه الرواية عام ١٨٥٧ بتهمة ترويج قيم اجتماعية منحطة . وهي التهمة نفسها التي يطلقها البعض الآن على الرواية النسوية السعودية الحديثة ، التي تعدّ واحداً من الردود الصارمة والموجعة من الشباب العربي الجديد للأصولية الدينية في السعودية وفي العالم العربي ككل .

الأصولية والفن الجديد وجهاً لوجه

-١-

كما أن «الإناء ينضح بما فيه» ، فإن أغلب الفنون ، وخاصة فن الغناء ، يتماهى مع الحالة الاجتماعية والدينية السائدة في المجتمع . وفي هذه الأيام تسود في العالم العربي موجات الأصولية السياسية المتشددة ، وينتشر الدعاة المتاجرون بالدين في العالم العربي شرقاً وغرباً . ومعظمهم لم يرَ عتبة الجامع الأزهر ، ولم يدرس الدين وتاريخه وشرائعه ، ولكنه وجد في الدين ، والاشتغال بالدعوة الدينية أقصر الطرق إلى الشهرة والمال ، كما رأى بعض الشباب والشابات ، أن أقصر الطرق إلى المال والشهرة ، هو الغناء والطرب .

فظهر في التسعينات من القرن الماضي وقبلها وبعدها ، دعاة من الشباب ، الذين هم أقرب إلى نجوم السينما منهم إلى رجال الدين – وذلك على الطريقة الأمريكية الحالية التي يوجد فيها دعاة دينيون نجوم ، من غير رجال الدين التقليديين- مهمتهم تخدير الشباب والشابات من الأجيال الطالعة ، بقصص وأحداث دينية ، واستنباط منها ما يشجع الشباب والشابات على المضي في حياتهم العصرية . فوجد الشباب والشابات عند هؤلاء الدعاة ما لم يجدوه

عند شيوخ الدين التقليديين، من مباركة للحياة العصرية التي يحيونها الآن، ولسلوكياتهم في المأكل والملبس والمغنى، مما أراح الشباب والشابات راحة عظيمة، وكفَّر لهم ولهن عن ذنوب كانوا قد هُددوا من قِبل الشيوخ التقليديين، بأنهم سيذهبون بسببها إلى جهنم.

-٢-

من ناحية أخرى، فإن انتشار الأصولية الدينية على النحو الذي رأيناه، ونراه الآن من خلال الأشرطة والكتيبات، وانتشار القنوات الفضائية الدينية، وسيطرة الأصولية الدينية على الرأي السياسي العربي، وانتشار ميليشيات الأصولية المسلحة في العالم العربي، وقيام إيران الدولة الدينية الأصولية بمحاولة سيطرتها على العراق، وأفغانستان، ولبنان، وغزة، وعقدها حلفاً استراتيجياً مع سوريا المدهونة بقشرة رقيقة من العَلْمانية، ووجود حزب أصولي - «حزب الله» - مسلح وقوي لها في لبنان، ودعمها لكل المليشيات الأصولية في العالم العربي، وتشجيعها على إثارة الفتن ونشر الفوضى.. كل هذا أدى إلى تعطيل دعوى الحداثة والحدِّ من سرعة دمقرطة العالم العربي. وكان لا بُدَّ للشباب العربي من مواجهة مثل هذه التحديات، كما واجهها ويواجهها الآن الشباب الإيراني، وذلك بالاستعانة بوجه الشبيبة الغربية، وخاصة الأمريكية، وتقليدها في سلوكها اليومي، وفي مأكلها، وملبسها، وطريقة غنائها.

-٣-

وفي ظل التموضع الجديد للأصولية الدينية المتحدية والشرسة ، ظهر فن الشباب الغنائي الجديد ، أو ما يعرف بعصر «الفيديو كليب» ، الذي يوصف بأنه فن غناء الصوت والجسد معاً . والذي يوصف بأنه فن الاستعمال لمرة واحدة Disposable Art ، كأي مستهلَك سريع في هذا العصر الاستهلاكي . فكما كان أبو نواس وبشار بن برد وغيرهما ، هم مرآة ولسان عصرهم ، فإن هؤلاء المغنين والمغنيات ، هم مرآة عصرهم ولسان حاله كذلك . وهذه الحرية المفروضة علينا فرضاً ، والتي رحبنا بها ، وسعدنا بها ، من قِبَل ثورة الاتصالات ، والمتمثلة خير تمثيل بالانترنت ، أتاحت دون شك هامشاً أكبر للحرية ، وإبداء الرأي والرأي الآخر ، لليمين واليسار والوسط ، لكي يتكلموا كما يشاؤون ، من خلال المواقع ، والمدونات على الانترنت ، وكذلك على بعض الفضائيات ، التي لا تتبع نظاماً عربياً ، أو حزباً ، أو منظمة سياسية .

-٤-

وهذا الواقع الآن ، يذكرنا بواقع منتصف القرن الثامن الميلادي ، ومنتصف القرن الثاني للهجرة ، وهو العصر الذي عاش فيه أبو نواس وبشّار بن برد . وهو العصر الذي قال فيه طه حسين إنه يتصف بخلال خمسة : الشك ، والمجون ، وإيثار اللذة ، وحرية العواطف ، وسهولة اللفظ .[١] بل إن مطربي ، ومنشدي ، وقائلي

(١) طه حسين ، «حديث الأربعاء» ، ج٢ ، ص٤٠ .

الفيديو كليب الآن ، هم أشد الناس له تمثيلاً ، وأصدق لحياته تصويراً ، من الفقهاء وأصحاب الكلام والأصوليين ، الذين لا ينتسبون إلى هذا العصر في مظهرهم ، ومخبرهم . بل هم يفرضون أنفسهم فرضاً على هذا العصر بالقوة ، والإكراه . ولا نريد أن نقول إن هذا الفن ، كان رداً على طغيان الأصولية الدينية ، وتحدياً لها ، ولكنه مساوقة لها . والتفاهة والسطحية ، التي نجدها في الأصولية الدينية المتعصبة ودعواها ، نجدها كذلك في غناء الفيديو كليب . فهذه الحقبة - تسعينات القرن العشرين وبدايات القرن الواحد والعشرين - كانت حقبة ازدهار الأصولية الدينية/السياسية في العالم العربي ، وهي كذلك حقبة ظهور التفاهة والسطحية في فن الغناء . وفي هذا يقول أبو الفرج الأصبهاني (٨٩٧-٩٦٧ م) في سِفْره «الأغاني» : « إذا أردت أن تعرف حضارة أمة ، فانظر إلى موسيقاها ، والى مطربيها ، فإن رأيت منهم عزوفاً عن اللحن ، وخلطاً في الصوت ، فتأكد أن الأمة سائرة نحو الهاوية .»

-٥-

وهذا لا يعني ، أن ملامح مثل هذه الحقبة ، لم تظهر في الماضي في التاريخ العربي . فقراءة سريعة لأجزاء «الأغاني» لأبي فرج الأصبهاني الواحد والعشرين ، وما فيها من قصائد وأغانٍ تافهة ، مثل تلك الأغاني التي نسمعها هذه الأيام ، تدلنا على أن القرن العاشر للميلاد ، كان قرن لهو وعبث ، ورغم هذا فقد تعرّض أبي الفرج الأصبهاني لكثير من النقود السلبية ، كما يتعرض اليوم

أصحاب الفيديو كليب . فقال فيه ابن الجوزي : « ومثله لا يوثق بروايته ، يُصرِّح في كتبه بما يوجب عليه الفسق ، ويهوِّن شرب الخمر ، وربما حكى ذلك عن نفسه ، ومن تأمل كتاب الأغاني ، رأى كل قبيح ومنكر .»(١)

-٦-

وقد تنكَّر وجحد كثير من الباحثين الأصوليين المعاصرين كتاب «الأغاني» ، وتلاموا على من أشاد به ، واستعمله كمرجع أساسي لأبحاثه ، ومنهم طه حسين الذي أشاد بكتاب «الأغاني» في الكثير من كتبه ، وجعله من المصادر الهامة لدراسة المجتمع الإسلامي . وقال عنه : «لم يعرف العرب عصراً أكثر فيه أصحابه من المجون ، وأتقن الشعراء التصرف في فنونه وألوانه ، كهذا العصر .»(٢)

-٧-

من ناحية أخرى ، لو نظرنا إلى عصرنا الحاضر ، لرأينا أن العرب أصبحوا أكثر قرباً والتصاقاً بالغرب ، أكثر من أي وقت مضى ، على خلاف ما يدّعون ويكتبون ويخطبون . بل هم أكثر قرباً وأشد التصاقاً بالمدينة الغربية ، وبالقيم الغربية ، والفنون والآداب

(١) ابن الجوزي ، «المنتظم» ، ج ٧ ، ص ٤٠

(٢) طه حسين ، «حديث الأربعاء» ، ج٣ ، ص ٥٣ .

الغربية . وكل هذا مرده إلى عاملين :

ثورة المواصلات والاتصالات ، وثورة المعلومات .

فما أن يُنتج الغرب فناً جديداً ، أو منتجاً جديداً ، إلا ويكون في الأسواق العربية ، بعد أسابيع معدودة . وهذا الوضع ، يذكرنا بما كان عليه وضع العرب ، في القرن الثامن الميلادي والثاني الهجري . فقد كان هذا العصر كما وصفه طه حسين عصر «لهو ولعب ، وعصر شك ومجون . وكان عصر انتقال العرب من البداوة إلى الحضارة ، ومن السذاجة إلى التعقيد ، ومن الفطرة الخالصة إلى العلم والفلسفة . وكان فوق هذا كله ، عصر امتزاج بأمم أخرى ، وشعوب متباينة .»[1] (حديث الأربعاء ، ج٢ ، ص ٦٩) .

-٨-

ويتساءل طه حسين قائلاً :

«أتريد أن تختلط هذه الأمم وتمتزج هذه الشعوب ، دون أن تضطرب لهذا الاختلاط والامتزاج ، أخلاق وعادات ونظم؟

ودون أن ينهار بناء قديم ، ويقوم بناء جديد؟

إنك لا تستطيع أن تمزج طائفة من عناصر الكيمياء المختلفة ، دون أن يحدث لهذا الامتزاج اضطراب ، وانقلاب جديدان .»[2]

---

(١) طه حسين ، «حديث الأربعاء» ، ج٢ ، ص ٦٩ .

(٢) أيضاً .

-٩-

منذ أن بدأت موجات أغاني الفيديو كليب ، التي جاءت إلى العالم العربي من أمريكا خاصة في التسعينات ، ورجال الدين الأصوليين يهاجمون هذا الفن الجديد ، ويرمون المغنين والمغنيات والراقصين والراقصات ، بالفجور ، والفسوق ، والانحلال الخلقي . علماً بأن معظم هؤلاء الفنانين والفنانات ، يؤدون غناءهم بملابس ، وحركات أكثر احتشاماً ، مما كان يؤدى في الأربعينات والخمسينات وما بعدها ، من المغنين المشهورين في السينما المصرية ، يوم كانت ما زالت أفلامها غير ملونة ، وفي عصر (الأسود والأبيض) . فكنا نشاهد لقطات من الأفلام الاستعراضية الغنائية الكثيرة لفريد الأطرش ومحمد فوزي وهدى سلطان وغيرهم ، التي راجت في تلك المرحلة ، والمغني أو المغنية تصاحبها راقصة ، وكانت ثلاثة أرباع جسدها مكشوفة ، بطريقة مغرية جداً ، خاصة من الراقصات المشهورات في تلك المرحلة كتحية كاريوكا ، وسامية جمال ، ونعيمة عاكف ، ونجوى فؤاد ، وغيرهن . وكانت هؤلاء الراقصات يشاركن ، في كل فيلم استعراضي غنائي . وما أكثر الأفلام الاستعراضية الغنائية في تلك المرحلة . ورغم النقود الفنية السطحية ، والنقود الدينية المتشددة ، في تلك الفترة ، إلا أننا لم نقرأ ، أو نسمع ، هجوماً على هذا الفن ، في تلك المرحلة . فالمرحلة كانت مرحلة انفتاح حضاري ، ومرحلة الاستقلال السياسي ، والخروج من الشرنقة العثمانية ، والاستعمار الغربي .

ففي العام ٢٠٠٣ ، على سبيل المثال ، طالب بعض أعضاء مجلس الشعب المصري - وأظنهم من جماعة الإخوان المسلمين - بالحجر على رقص بعض الراقصات الشرقيات . في حين لم يحصل أن طالب أعضاء في مجلس الشعب المصري ، أيام الملكية ، أو أيام الجمهورية ، بالحجر على رقص تحية كاريوكا ، أو سامية جمال ، أو نعيمه عاكف ، أو غيرهن من الرقصات . فالمطرب محمد عبد الوهاب ، عندما قال عن تحية كاريوكا : «كان ظهور تحية ونجاحها ظاهرة وطنية ، فقد حررت الرقص من استعمار الأجنبيات . فرح المصريون كما فرحوا بإنشاء بنك مصر ، كظاهرة من ظواهر الاستقلال الاقتصادي .» مضيفاً أنها «جعلت للرقص وللراقصة احتراماً اجتماعياً لم يكن موجودا قبل ظهورها .»[١] ولم يكن ذلك مستهجناً أو كريهاً . في حين أنه في عام ٢٠٠٣ ، قامت مجموعة من نواب الإخوان المسلمين ، يشاركهم عدد من نواب مدن صعيد مصر المعروف عنهم التعصب والتمسك الشديد بالتقاليد ، وعدد من نائبات البرلمان ، بشن حملة على ثلاث مطربات مصريات ، أولهن المغنية المصرية روبي ، مقدمين طلب إحاطة للحكومة المصرية ، بزعم «إهدار القيم والأخلاق الإسلامية» ، ومطالبين بمنع إذاعة أية أغنية ، تتضمن مشاهدها صوراً خليعة ، وأغاني روبي

(١) محمد عبد الوهاب ، في مقابلة صحافية مع ميدل إيست أون لاين .

على وجه الخصوص . كما طالب النواب ، ضرورة التوصل إلى ميثاق شرف «يحكم إذاعة مثل هذه الأغاني ، التي تُفسد أخلاق الشباب ، سواء كانوا من الإناث ، أو الذكور» .

-١١-

كذلك ، طالبت مجموعة من النائبات في البرلمان المصري ، بمنع إذاعة أغاني الفيديو كليب للفنانة اللبنانية نانسي عجرم ، ولعدد من المطربين ، الذين يستعينون في تقديم أعمالهم الفنية بفتيات شبه عاريات ، على حد قولهن ، ليساندن بذلك رغبة مجموعة من نواب البرلمان ، يتقدمهم نواب الإخوان المسلمين ، الذين تقدموا سابقاً بالمطالبة ذاتها . وأكد النواب ، أن السماح بإذاعة مثل هذه الأغاني ، وبما تضمّه من صور فاضحة ، وإيحاءات جنسية مكشوفة ، تثير الغرائز لدى الشباب ، وتحرّك الشهوات ، الأمر الذي قد يتحول إلى كارثة دينية واجتماعية ، على حد سواء . وألمح بعض النواب ، إلى أنهم قد تلقوا العشرات من الخطابات من سيّدات وفتيات ، يناشدن نواب البرلمان التدخل ، لوقف هذه «المهزلة الفنية» .

-١٢-

وفي مايو ٢٠٠٨ ، أقيم مهرجان للرقص في رام الله ، كان سبباً في زيادة شقة الخلاف بين «فتح» وبين «حماس» ، واستغلال إسرائيل لانشغال الفلسطينيين بهذا الخلاف ، لبناء المزيد من

المستعمرات بالضفة الغربية . وتفجَّر الخلاف مع إصدار وكيل وزارة الأوقاف والشؤون الدينية في الحكومة المقالة ، التي تُسيِّرها حماس في قطاع غزة الدكتور صالح الرقب ، بياناً يهاجم فيه «مهرجان رام الله للرقص المعاصر» ، معتبراً ذلك «إساءة لنضالات الشعب الفلسطيني ، الذي ما زال يعاني من القتل ، والحصار الشديد ، من قبل الاحتلال الإسرائيلي» .

وقال عضو المجلس التشريعي الفلسطيني عن حركة «حماس» ، مروان أبو راس ، وهو رئيس رابطة علماء فلسطين ، مستنكراً صمت علماء الدين في الضفة الغربية ، ومتسائلاً : «أين أصحاب العمائم في رام الله من هذا الرقص ، ومن هذه الدعوات الانبطاحية الخليعة التي تجعل الشباب متسكعاً تغلب عليه الخنوثة؟ ولماذا لم يظهر هؤلاء ليصدروا الفتاوى في ذلك؟» .

وفي الكويت ، دعا نائب أصولي كويتي سلطات بلاده ، إلى منع فريق برنامج «ستار أكاديمي» التلفزيوني اللبناني ، من اختيار شبان كويتيين للبرنامج ، معتبراً أن ذلك يوازي «تجنيد الشباب للإرهاب» .

وقال النائب الأصولي المتشدد وليد الطبطبائي في بيان له : «إن تجنيد الشباب لبرنامج يدمر الأخلاق ، ويحارب قيمنا ، ليس أقل سوءاً وخطراً من تجنيد الشباب للإرهاب أو توريطهم في ترويج المخدرات» . وأضاف : إن برنامج «ستار أكاديمي» «يمثل استيراداً لقيم غربية ممجوجة ، يرفضها مجتمعنا» مشيراً إلى أن البرنامج «يقوم على الاختلاط بين الجنسين ، وتعليمهم عادات وممارسات غربية ، يراد لها أن تنتشر ، بين شباننا وبناتنا» .

هل أوشكت شمس الأصولية على المغيب؟

-١-

هل شمس الأصولية آيلة إلى زوال قريب؟

أم إن الأصولية باقية بقاء الأديان السماوية الثلاث؟

سؤال طالما تردد في أوساط المثقفين العرب والمسلمين ، وكذلك في أوساط المثقفين الغربيين ، ومنهم الكاتب الفرنسي المعروف جيل كيبيل ،[١] المتخصص في شؤون الأصولية الإسلامية ،

(٩٩) أستاذ العلوم السياسية ، ومدير الأبحاث في المركز القومي للبحوث العلمية ، وأستاذ كرسي الشرق الأوسط والبحر المتوسط في معهد الدراسات السياسية «سيانس بو» الشهير ، واحد من ألمع المستشرقين الفرنسيين العاملين على الفضاء العربي الإسلامي في أوروبا اليوم ، حيث عرف كيف يكون السباق أمام أكثر من حدث . وتميّز بروح استشرافية راقية ومعنيّة ، سمحت لقلمه أن يتوقع الظاهرة قبل حدوثها . فكان أول من كتب عن تصاعد الحركات الإسلامية الأصولية ، وأول من أشار إلى خطر الحرب على الإرهاب . وأول من رصد فشل هذه الحركات الأصولية ، ونهاية الإسلام السياسي . وهو أول من قال بتبلور الإسلام الأوروبي . وقد أصدر في هذا السياق عدداً من الكتب ذاع صيتها في أرجاء العالم ، وتُرجمت إلى أغلب لغات الأرض ، منها «النبي والفرعون» ، و«الجهاد» ، و«الفتنة» ، و«حرب في ديار الإسلام» و «بحث عن أصول الحركات الأصولية» ، و «ضواحي الإسلام» ، و«انتقام التديّن التقليدي لنفسه» .

ومؤلف عدة كتب في موضوعها . وفي كتابه الأخير «رعب وشهادة : تحدي الحضارة» في ٢٠٠٨ ، يؤكد كيبيل فشل الخطابين الجهادي المتطرف ، وخطاب الرئيس بوش . ويُفنّد أسباب ومؤشرات الفشل . ويرى أن ما حدث في العراق ، هو إثبات كافٍ لفشل خطاب الحرب على الإرهاب ، وأيضا فشل خطاب الجهاد والاستشهاد .

وجيل كيبيل ، هو الذي تنبأ بزوال الأصولية التدريجي من الثقافة العربية الإسلامية ، ولكن هذا الزوال نسبي . فلا فكر يزول نهائياً من التاريخ . ويستند كيبيل على مقولة تاريخية ، وهي أن أية حركة سياسية وفكرية تصل إلى قمتها ، تبدأ تدريجياً بالهبوط من جديد . ولقد وصلت الحركات الأصولية في العالم العربي والإسلامي إلى قمة مجدها ، في أواخر القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين .

-٢-

ولكن ما هو الدليل التاريخي على هذا التنبؤ ، أو هذا المستقبل الآتي؟

يعتمد كيبيل في مقولته هذه ، على انفصام التحالف القائم بين الفئات الاجتماعية كالبورجوازية المتدينة في المدن ، والشبيبة المسحوقة بالفقر والبؤس والبطالة ، والطبقات الشعبية ، التي تسكن في المناطق العشوائية ، في ضواحي بعض العواصم العربية ، المعروفة ببيوت الصفيح ، وطلبة الجامعات من المثقفين الأصوليين .

إذ إن هذه الفئات ، هي التي أوصلت الأصولية/السياسية (جماعة الإخوان المسلمين خاصة) ، إلى مقدمة الأحزاب المعارضة في مصر ، والأردن ، والجزائر ، والمغرب ، والكويت وغيرها . ولكن مستويات العنف العالية ، وحالات الانتحار اليومية بالسيارات المفخخة والأحزمة الناسفة ، بحيث أصبح السلم الأهلي في سائر أنحاء العالم العربي مهدداً ، مما يُشكِّلُ خطراً على مصالح الطبقة البرجوازية في العالم العربي ، أدَّت إلى تخوّف الطبقة البرجوازية مما يجري . فأعادت البورجوازية النظر في دعمها للحركات الأصولية ، وخاصة في منطقة الخليج العربي ، حيث تتدفق أموال الزكاة والتبرعات في المواسم الدينية ، وخاصة في شهر رمضان ، على صناديق الحركات الأصولية باسم «دعم الجهاد» ، و «إعادة مجد الإسلام التليد» .

-٣-

ويقول هاشم صالح ، الذي يقرأ كتاب جيل كيبيل « الجهاد : صعود الحركات الأصولية وانحدارها» ، إن الحركات الأصولية انقسمت إلى قسمين :

قسم الشباب المتحمس الفائر ، الذي لا أمل له في الحياة ، أو في المستقبل لذا ، فهو لا يتوانى أن يندفع إلى الانتحار دفعاً أهوج .

والقسم الثاني ، الطبقة البرجوازية ، التي كانت تدعم الحركات الأصولية بالمال ، والتي خشيت على مصالحها وتجارتها ، من هذا الاندفاع الدموي والانتحار المجاني ، دون أن تتمكن من الوصول إلى

السلطة ، ما عدا الحركة الأصولية في إيران ، التي كانت بفعل تضامن البازار الإيراني مع المستضعفين والمسحوقين ، إضافة إلى طبقة المثقفين العلمانيين ، الذين لم يجدوا بُداً من تأييد الثورة على الحكم الشاهنشاهي الطاغي .

-٤-

ولكن لم يعد الحلم في إيران وردياً ، بعد ثلاثين عاماً من الثورة الخمينية ١٩٧٩ .

فالتقارير الواردة من إيران تقول ، إن الشعب الإيراني يعاني من مصاعب كثيرة . وآخر هذه التقارير عن حال ومآل إيران في عهد أحمدي نجاد . ويقول تقرير ، إن الحرس الثوري الديني الإيراني (باسدران) هو الحاكم الفعلي في إيران ، وقد كان أحمدي نجاد أحد ضباطه ، ويتألف - حسب تقديرات «المعهد الدولي للدراسات الإستراتيجية» في لندن- من ٣٥٠ ألف عنصر . وهو يذيق الشعب الإيراني القهر ، إلى الحد الذي أصبح معه الشعب الإيراني أكبر مستهلك لحشيشة الكيف والأفيون في العالم ، حسب تقارير الأمم المتحدة ، وذلك نتيجة لحجم الظلم والقهر الكبير ، الذي تمارسه الدولة ، مُمثلةً بالحرس الثوري .

-٥-

داريوس صايغان ، مفكر وباحث إيراني ، والأستاذ السابق في معهد الدراسات الهندية والفلسفة المقارنة في جامعة طهران ،

والمدير السابق للمركز الإيراني لدراسة الحضارات. أصدر صايغان عدة كتب في الشأن الإيراني، منها (ما هي الثورة الدينية؟ ١٩٩٠) و (النور يأتي من الغرب، ٢٠٠١) وغيرهما. ويقول صايغان في كتابه (ما هي الثورة الدينية؟) إنّ رعب الثورة الخمينيّة، كان مرتبطاً بتردد مزدوج. فالشعب الإيراني، أو نخبته، لم يعد يعيش وفقاً للموروث. لكنه للسبب ذاته، لم يدخل الحداثة. وارتبط التزمّت - السمة الإرهابية لهذه الثورة - بهذا الفقد المزدوج للهوية.

ويضيف صايغان:

«مع قيام الثورة الإيرانية، تسلّم الدين مقاليد السلطة، وغيّر طبيعته. فلم يعد يدافع - كما كان سابقاً - عن المستضعفين، بل أصبح نظاماً سلطوياً، يقمع الآخرين. ولعب تسرّب الأفكار الماركسية- اللينينية، دوراً في ولادة هذا الإسلام الكفاحي جداً، المعادي جداً للغرب، والمعادي جداً للعَلْمانية، والذي ربط ما بين النظام السابق، وبين الغرب أو الحداثة، على حد سواء. إن هذا الإسلام الذي دخل التاريخ، والذي تحوّل إلى قوّة كفاحية، لم يعد ذلك الإسلام التقليدي. فمع تحوّله إلى نوع من أيديولوجيا عدوانية جداً، لم يمتلك الخطاب الملائم لمجابهة وقائع هذا العالم. فوصل الأمر به إلى الخلط ما بين التبشيرية والتاريخ. وانتهى به الأمر- لسخرية القدر- إلى الوقوع في فخّ العقل.

وهذا الإسلام، الذي أراد إضفاء صفة القداسة على العالم، كما أراد أن يجعل من التاريخ تبشيراً.. هذا الإسلام فقد قداسته، وسقط في فخّ ثانٍ، هو فخ التاريخ.

وتساءل صايغان قائلاً :

لقد أرادوا العودة إلى المنابع ، لكن أية منابع؟

فكل الحركات الأصولية ، سواء في ذلك ، الثورة الإيرانية أم الطالبان ، أرادت وضع تاريخ الإسلام بين قوسين ، وتقليص دائرة هذه الثقافة ، من أجل العودة إلى إسلام ميثولوجي ، لم يقم في يوم ما . لقد نحّوا جانباً كل الكنوز المتراكمة : تفسير القرآن ، الفلسفة ، التصوف ، وكل ما صنع عظمة الثقافة الإسلامية ، ليعودوا إلى حرفية النص ، واستمدوا من القرآن تفسيراً جامداً وسطحياً جداً ، كما لو أن الآيات القرآنية ، يمكن تفسيرها حرفياً ، كما تفعل الطالبان حالياً!

لقد مارس كبار فقهاء الإسلام كلهم ، التأويل والتفسير ، لأن القرآن ، من دون التأويل ، يصبح كتاباً معرَّضاً لكل أنواع الزيغ . وتكمن في حركة العودة إلى الوراء ، هذه الرغبة الأكيدة ، لطمس ، وشطب ، كل هذه الثقافة .

-٦-

هذا ما فعلته الأصولية في إيران . ومن ناحية أخرى ، وطبقا لتقرير المخدرات العالمي عام ٢٠٠٥ ، الذي أصدرته الأمم المتحدة ، عن مدمني الأفيون في العالم ، توجد في إيران أعلى نسبة من المدمنين في العالم . إذ إن ٢,٨ ٪ من السكان الذين تزيد أعمارهم على ١٥ سنة مدمنون على نوع من المخدرات . وإلى جانب إيران ، توجد دولتان فقط في العالم ، تتعدى نسبة المدمنين فيهما ٢ ٪

وهما موريشيوس ، وقيرغيزستان .

وتقول تلك التقارير ، إنه إذا ما وضعنا في الاعتبار أن عدد سكان إيران يصل إلى ٧٠ مليون نسمة ، فإن عدد المدمنين يصل إلى ٤ ملايين شخص ، وذلك يضع إيران على قمة عدد السكان المدمنين في العالم على المواد المخدرة ، بما في ذلك الهيروين .

-٧-

إلى جانب ذلك ، ومن الناحية الدينية ، فإن الأرقام التي أذاعها رئيس الشؤون الثقافية في بلدية طهران ، الشيخ محمد على زم ، مؤخراً ، عن نسبة الالتزام الديني لدى الشعب الإيراني ، وخاصة الطلاب والشباب ، فيما يتعلق بأداء الصلاة والإباحية والإدمان على المخدرات ، أحدثت نوعاً من الصدمة والدهشة والذهول لدى المراقبين والإسلاميين ، خارج الجمهورية الإسلامية الإيرانية ، وأثارت قلقاً شديداً على مستقبل التجربة الإسلامية ، ودفعتهم للتفكير ، وإعادة النظر في مخططاتهم الحركية ، وبرامجهم للحكم في المستقبل .

-٨-

كان الإسلاميون في أواسط القرن الماضي ، يتجادلون فيما بينهم حول الطريقة الفُضلى لإقامة المجتمع الإسلامي ، وفيما إذا كانت التربية قبل مرحلة السلطة ، أم السلطة قبل مرحلة التربية . وجاءت الثورة الخمينية في إيران ، في نهاية السبعينات لتحسم

ذلك الجدل الطويل ، بعد انضمام قطاعات واسعة من الشعب الإيراني إلى المشروع الإسلامي ، وخضوعها لقيادة رجال الدين ، ودعمهم في إقامة حكم إسلامي .

وكان من المنتظر أن يواصل رجال الدين ، الذين استلموا السلطة في إيران أسلمة ما تبقى من المجتمع ، والقضاء على جذور الفساد والانحلال والانحراف ، إلا أن الأرقام التي أذاعها المسئول الثقافي الإيراني ، وكشف عنها خلال مؤتمر صحفي ، يُعدُّ الأول من نوعه من حيث الشفافية والصراحة والنقد الذاتي ، أشارت إلى تراجع نسبة الالتزام الديني لدى غالبية الشعب الإيراني وخاصة الشباب ، حيث تجاوزت نسبة غير المصلين الثمانين بالمائة ، وتجاوزت نسبة الإباحية الستين بالمائة ، وبلغت نسبة المدمنين على المخدرات نسبة عالية ، وهي أرقام مرعبة حقاً في مجتمع إسلامي تحكمه حكومة دينية ، وتسيطر فيه على وسائل الإعلام من صحافة وإذاعة وتلفزيون ، ويوجد فيه حوالي نصف مليون رجل دين!

-٩-

من ناحية أخرى ، يقول الكاتب والباحث العراقي جاسم الحلوائي في سلسلة مقالات تحت عنوان (سنوات بين دمشق وطهران) ، إن العواقب الاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية لسيطرة رجال الدين على السلطة في إيران كثيرة ، ومنها بعض المعطيات ذات الدلالة الهامة ، وهي مستقاة من دراسة للدكتور أمان الله قرابي ، الخبير الاجتماعي والأستاذ الجامعي ، تتناول معالجة ظاهرة

البغاء التي تشمل ٣٠٠ ألف من بنات الشوارع في طهران وحدها ، وتتراوح أعمارهن بين ١١ إلى ١٨ عاماً . وفي الوقت الذي يؤكد فيه الباحث ، بأن الظاهرة تشير إلى ضعف القيم الدينية في المجتمع ،[١] إلا أنه يؤكد بأن أسباب الظاهرة اقتصادية . فهناك أربعة ملايين عاطل عن العمل .

-١٠-

وإيران بحاجة إلى مليون فرصة عمل جديدة سنوياً ، في حين إن ما يتحقق هو من ٤٠٠ إلى ٥٠٠ ألف فرصة فقط . وتبلغ البطالة من ٢٠ ٪ إلى ٢٧٪ في أوساط الخريجين . وهناك تسعة ملايين عازب وعزباء ، بينهم ٥,٥ ملايين من العازبات . ويعيش مليونان من سكان طهران في ضواحيها حياة بائسة .[٢]

والعدالة التي ينادي بها المسئولون الإيرانيون ليلاً ونهاراً ، كانت نتيجتها - وهم في قيادة السلطة لأكثر من ربع قرن- زيادة الأغنياء غنىً ، وزيادة الفقراء فقراً في إيران ، حيث «يعيش أكثر من نصف الشعب الإيراني تحت خط الفقر ، وتفتك البطالة بأكثر من عشرين بالمائة من الشعب الإيراني» .

---

(١) في استطلاع أجرته الصحف الرسمية الإيرانية ، تبين أن ٨٥٪ ممن ولدوا بعد الثورة ، لا يمارسون الشعائر الدينية .

(٢) صحيفة «ميهن» ، عدد ٩٦ ، ٢٠٠٦ .

-١١-

تلك هي صورة إيران ، كما يراها المراقبون قبل عهد أحمدي نجاد ، وفي أثناء عهد أحمدي نجاد . فهل هذه الصورة التي يعلمها أحمدي نجاد تمام العلم ، هي التي دفعته لأن يُلقي كل هذه الأخطاء - وإن لم يُعلن صراحةً - على ظهر «المهدي المنتظر»؟

لقد استنكر رجال دين إيرانيون كُثر ، توريط أحمدي نجاد للمهدي المنتظر ، فيما تفعله إيران اليوم بقيادته . وأورد سيافوش قاضي ، مراسل وكالة الأنباء الفرنسية في طهران ، في مقاله[١] ، أن عدداً كبيراً من رجال الدين الإيرانيين انتقدوا أحمدي نجاد ، لقوله «إن يد المهدي المنتظر تُرى بوضوح في إدارة شؤون البلاد كافة .» وقال حجة الإسلام غلام رضا مصباحي المتحدث ، باسم جمعية رجال الدين المقاتلين ، المحافظة والمتشددة :

«إذا كان أحمدي نجاد ، يريد أن يقول ، إن الإمام الغائب يدعم قرارات الحكومة ، فهذا ليس صحيحاً» .

وأضاف :

«من المؤكد أن المهدي المنتظر ، لا يُقرُّ التضخم الذي بلغ ٢٠٪ وغلاء المعيشة ، والكثير من الأخطاء التي ترتكبها الحكومة .»

كما اعتبر رجل الدين المحافظ حجة الإسلام علي أصغري عضو كتلة «حزب الله» ، في البرلمان الإيراني ، أنه «من الأفضل

---

(١) بعنوان : «أحمدي نجاد : يدُ المهدي المنتظر تدير الشؤون الإيرانية» ، موقع Mid-dle East On Line» ،

لأحمدي نجاد الاهتمام بمشاكل المجتمع مثل التضخم والتركيز على الشؤون الدنيوية» . ونصحه في تصريحات نقلتها صحيفة «اعتماد مللي» بـ«عدم التدخل في الشؤون الدينية ، والإيحاء بأن إدارة البلاد يتولاها الإمام الغائب» .

-١٢-

وكان أحمدي نجاد ، منذ أن تولى الحكم ، وهو يهجس بـ «المهدي المنتظر» ، إلى حد أنه قال «إن الإمام المنتظر يزوره أسبوعياً .» وقال أمام العالم كله ، في خطابه في الأمم المتحدة في خريف ٢٠٠٥ ، إنه «شعر بهالة من النور تحيط به .» وتحدث طويلاً عن عودة «المهدي المنتظر» ، مما دعا رجل دين إيرانياً كبيراً كالإصلاحي آية الله يوسف سعاني إلى انتقاد «اللجوء المتزايد إلى الخرافات» بحدة ، وذلك في نقد مبطن لنجاد .

فهل يستمر أحمدي نجاد في الاستنجاد بالمهدي المنتظر لكي يغطي المزيد من أخطاء حكومته ، وفشلها في إنقاذ إيران من الكوارث؟

هذا هو حال إيران الآن .

-١٣-

أما المثال الآخر على فشل الحكومة الأصولية الدينية ، فهو ما يجري في غزة بقيادة «حماس» . فقد تحولت غزة من سنغافورة الشرق الأوسط الموعودة ، كما قال عنها ياسر عرفات بعد اتفاقية

أوسلو ١٩٩٣ ، إلى مزبلة الشرق الأوسط ، كما هي عليه الحال الآن ، بعد أن حكمتها «حماس» . وزاد الطين بلّة الوضع الإنساني المأساوي لأهل قطاع غزة بعد العدوان الإسرائيلي عليها ٢٠٠٨/٢٠٠٩ ، نتيجة لتحرشات «حماس» المتكررة بإسرائيل ، وإلغاء اتفاقية التهدئة من جانب «حماس» .

«فمعظم المصانع في غزة مشلولة بسبب نقص المواد الخام ، وقطع الغيار . وخدمات ضرورية مثل منشآت الماء والصرف الصحي والمستشفيات وغيرها ، تعمل منذ عام ونصف على المولدات الكهربائية المخصصة لحالات الطوارئ ، وذلك بسبب تفجير إسرائيل لمحطة توليد الكهرباء في صيف ٢٠٠٦ . وبسبب انعدام قطع الغيار ، تتآكل البنى التحتية ، ويزداد خطر حدوث كوارث كتلك التي وقعت عندما غرقت بيت لاهيا بمياه المجاري العام الماضي .»(١)

وحسب المعطيات من صيف ٢٠٠٧ ، أي قبل تكثيف الحصار ، عاش ٨٧٪ من أهالي القطاع تحت خط الفقر الذي بلغ ٢,٤ دولاراً لليوم . حينها بدأ الناس يشعرون بالنقص في المواد الأساسية ، وارتفعت أسعار المواد الغذائية في غزة بعشرات النسب المئوية . وتشير معطيات برنامج الغذاء العالمي إلى أن ٨٥٪ من أهالي القطاع ، باتوا يعتمدون على المساعدات للحصول على المؤن .

أما غزة وأهلها ، بعد الحرب على غزة ٢٠٠٨/٢٠٠٩ فحدّث

---

(١) يوسي فولفسون ، «غزة- الحرب الاقتصادية» ، مركز حقوق الفرد في القدس الشرقية .

ولا حرج . ولعل الأخبار التي ينقلها الإعلام والفضائيات العربية خاصة ، تُغنينا عن مزيد من كلام الآلام في غزة .

-١٤-

تقول الناشطة الحقوقية والكاتبة اليسارية الإسرائيلية ميخال شفارتس :

«أكّدت الأحداث خروج غزة من المعادلة الفلسطينية الوطنية ، وتحويلها إلى مشكلة ذات صفة ، إما أمنية ، أو إنسانية . لقد تحوّلت غزة إلى منطقة غير معترف بها وبقيادتها ، خارجة عن خريطة بلدان العالم ، لا عنوان سياسياً لها ، لا خبز ولا مستقبل .»

ورصد «مركز غزة للحقوق والقانون» ، خلال النصف الأول من عام ٢٠٠٧ مقتل ٣٣٢ مواطناً فلسطينياً ، وإصابة ١٩٤٨ آخرين ، جرّاء الاستخدام السيئ للسلاح ، وأخذ القانون باليد . وتمَّ أيضاً تنفيذ ٣٤١ عملية اختطاف لمواطنين فلسطينيين ، وأفراد من قوى الأمن الفلسطينية . واختطاف ٣ أجانب و٤٥٠ حالات اعتداء على مؤسسات أهلية ، و ٢١٥ من الممتلكات خاصة ، بالإضافة إلى الاعتداء على الأبراج السكنية . وفي أعقاب ما قامت به القوة التنفيذية التابعة لوزارة الداخلية في الحكومة المُقالة ، وأعضاء من كتائب الشهيد عز الدين القسّام ، فقد تمّت سيطرة كاملة على سائر مقرّات قوى الأمن الفلسطينية في قطاع غزة . وخلال الفترة الواقعة بين ٦/١٣ - ٢٠٠٧/٦/١٥ ، طالت الاعتداءات من قبل عناصر من «حماس» ، والقوة التنفيذية ، منازل المواطنين ، حيث بلغ عدد

المنازل التي تم الاعتداء عليها ٢١٥ منزلاً ، من ضمنها تدمير بشكل كاملة لبعض مواقع قوى الأمن الفلسطينية وقتل ١٠٢ فلسطيني في الأحداث الأخيرة التي دارت بين قوى الأمن الفلسطينية وكتائب الشهيد عز الدين القسّام ، وعناصر من التنفيذية التابعة لوزارة الداخلية المُقالة .

والأخبار اليومية كثيرة ومفجعة ، عن حال قطاع غزة وأهله . وتظل «حماس» متمسكة بكرسي الحكم رغم إقالتها ، ورغم عدم اعتراف العالم بها ، وبشرعيتها ، لتتزايد المآسي اليومية للسكان .

أما «حماس» فهي تحتفل بنصرها كل يوم ، ولا ندري على مَنْ هذا النصر!

كتب للمؤلف

في نقد الشعر :

١- فدوى تشتبك مع الشعر (دراسة في شعر فدوى طوقان) ١٩٦٣ .

٢- رغيف النار والحنطة (دراسة في الشعر العربي الحديث) ١٩٨٦ .

٣- الضوء واللعبة (دراسة في شعر نزار قباني) ١٩٨٦ .

٤- مجنون التراب (دراسة في شعر محمود درويش) ١٩٨٧ .

٥- نَبْتُ الصمت (دراسة في الشعر السعودي الحديث) ١٩٩٢ .

٦- قامات النخيل (دراسة في شعر سعدي يوسف) ١٩٩٢ .

٧- عاشق خُزامى (حفريات الحب والحكمة في شعر خالد الفيصل) ٢٠٠٦ .

في نقد الرواية :

٨- مذهب للسيف ومذهب للحب (دراسة في أدب نجيب محفوظ) ١٩٨٥ .

٩- فَضُّ ذاكرة امرأة (دراسة في أدب غادة السمّان) ١٩٩٠ .

١٠- مدار الصحراء (دراسة في أدب عبد الرحمن منيف) ١٩٩١ .

١١- مباهج الحرية في الرواية العربية (دراسة لعشرة روائيين عرب) ١٩٩٢ .

١٢-جماليات المكان في الرواية(دراسة في أدب غالب هلسا) ١٩٩٤ .

١٣- الرواية الأردنية وموقعها من خارطة الرواية العربية ، (مع آخرين) ١٩٩٤ .

في نقد القصة القصيرة :

١٤- النهايات المفتوحة (دراسة في أدب انطون تشيكوف) ١٩٦٣ .

١٥- المسافة بين السيف والعنق (دراسة في القصة السعودية) ١٩٨٥

في نقد الموسيقا :

١٦- الأغاني في المغاني- جزآن (السيرة الفنية للشيخ إمام عيسى) ١٩٩٨ .

في نقد الفن التشكيلي :

١٧- أكَلَهُ الذئب (السيرة الفنية للرسّام ناجي العلي) ١٩٩٩ .

في نقد الثقافة :

١٨- الزمن المالح (أوراق في جدلية السياسة والثقافة العربية) ١٩٨٦ .

١٩- الثقافة الثالثة (أوراق في التجربة الثقافية اليابانية) ١٩٨٨ .

٢٠- النهر شرقاً (دراسة في الثقافة الأردنية المعاصرة) ١٩٩٣ .

٢١- عصر التكايا والرعايا (المشهد الثقافي لبلاد الشام في العهد العثماني) ١٩٩٩ .
٢٢- هاملت عربي (مع آخرين) (أوراق في ذكرى مؤنس الرزاز) ٢٠٠٣

في نقد الفكر :

٢٣- الرجم بالكلمات (دراسة لمجموعة من المفكرين العرب المعاصرين) ١٩٨٩ .
٢٤- ثورة التراث (دراسة في فكر خالد محمد خالد) ١٩٩١ .
٢٥- الفكر العربي في القرن العشرين ١٩٥٠-٢٠٠٠ ، (ثلاثة أجزاء) ٢٠٠١ .
٢٦- الليبراليون الجدد (جدل فكري مع آخرين) ٢٠٠٥ .
٢٧- محامي الشيطان (دراسة في فكر العفيف الأخضر) ٢٠٠٥ .

في نقد السياسة :

٢٨- النار تمشي على الأرض (شهادات في الحياة العربية) ١٩٨٥ .
٢٩- قطار التسوية (دراسة لكافة مبادرات التسوية الفلسطينية) ١٩٨٦ .
٣٠- محاولة للخروج من اللون الأبيض (أوراق في السياسة العربية) ١٩٨٦ .
٣١- وسادة الثلج (العرب والسياسة الأمريكية) ١٩٨٧ .
٣٢- السلطان (دليل السياسة لحفظ الرئاسة) ٢٠٠٠ .

٣٣- الشارع العربي (دراسة سياسية تاريخية) ٢٠٠٣ .

٣٤- صعود المجتمع العسكري العربي (مصر وبلاد الشام) ٢٠٠٣ .

٣٥- زوايا حرجة في السياسة والثقافة ٢٠٠٤ .

٣٦- الزلزال (أوراق في أحوال العراق) ٢٠٠٥ .

٣٧- أسئلة الحمقى (في السياسة والإسلام السياسي) ٢٠٠٥ .

٣٨- لماذا؟ (أسئلة العرب مطلع الألفية الثالثة) ٢٠٠٦ .

٣٩- ابن لادن والعقل العربي ٢٠٠٧ .

٤٠- سجون بلا قضبان (يحدث في العالم العربي الآن) ٢٠٠٧ .

٤١- بالعربي الفصيح ، ٢٠٠٨ .

٤٢- سور العرب العظيم ٢٠٠٩ .

٤٣- تهافت الاصولية ، ٢٠٠٩ .

في نقد التاريخ :

٤٤- المال والهلال (الموانع والدوافع الاقتصادية لظهور الإسلام) ٢٠٠٢ .

٤٥- لو لم يظهر الإسلام ما حال العرب الآن ؟ ٢٠٠٢ .

في نقد التربية :

٤٦- الطائر الخشبي (شهادات في سقوط التربية العربية) ١٩٨٨ .

في نقد التنمية :

٤٧ - لكي لا ينبت الشوك في أيدينا (شهادات في الحياة السعودية) ١٩٨٤ .

٤٨- سعودية الغد الممكن (بحث استشرافي تنموي) ١٩٨٥ .
٤٩- طَلْقُ الرمل (أوراق في التنمية والثقافة الخليجية) ١٩٨٨ .

في ترجمة النقد :

٥٠- سارتر المفكر العقلي الرومانسي ١٩٦٤ .
٥١- دراسات في المسرح الفرنسي ١٩٦٤ .

منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

INCONSISTENCIES OF THE FUNDAMENTALISM

THOUGHT

تهافت الأصولية

نقد فكري للأصولية الإسلامية من خلال واقعها المعاش

لماذا هذا الكتاب ؟
وما هو خطر الأصوليّة على الدين والواقع العربيّ حاضرًا ومستقبلاً ؟

إنّ خطر الأصوليّة على الحاضر والمستقبل العربيّ ، يتمثّل في الإيمان المطلق بالحقائق المطلقة ، ومنع النقاش والجدل والإبداع الفكريّ فيها ؛ ويتمثّل هذا الخطر في اعتبار الأصوليّة الدينيّة هي الثدي الدافئ المرضع لأفكار عناصر ميليشيات السلفيّة الجهاديّة ، وخطورة الأصوليّة الدينية تتمثّل كذلك في عزل ومنع العقل من العمل في النصّ الدينيّ ، فالأصوليّة الدينيّة ضدّ التجديد ، وضدّ الإبداع والتنوير ، بل هي ضدّ الحضارة بصفة عامّة . ومن المعروف جيّدًا أن الأصوليّة الدينيّة (التفكير المطلق) ضدّ العلمانيّة (التفكير النسبيّ) ، والّتي هي ببساطة فصل السلطة الدينيّة عن السلطة السياسيّة ؛ أي فصل الكنيسة أو المسجد عن قصور الحكم ، كما هو الحال في أوروبّا وأمريكا الآن . والأصوليّة الدينيّة تحارب هذا الفصل محاربة شديدة وعنيفة ، لكي لا يتمّ حرمان رجال الدين من سلطاتهم السياسيّة والماليّة والاجتماعيّة والثقافيّة الّتي يتمتّعون بها .
وهذا الكتاب يحلّل خطر هذه الأصوليّة .
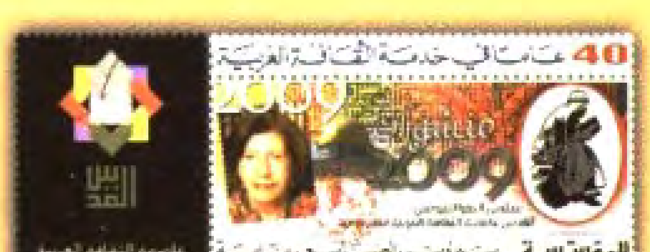
ISBN 978-9953-36-320-X